فاطـمة بن محمـود

المـلائكةُ.. لا تطـــير

روايـــة

القائمة القصيرة في جائزة راشد الشرقي للإبداع
دورة 2019

الإهـــــــــــداء

إلى أمي،

إلى ابنتي،

أكتب، حتى لا ننسى!

تـــصـــــديـــــــــر

إن كنت أقدر أن أقفز دون أن أقع،
أيمكن أن أطير مع الملائكة.؟

***

من رواية "إنجيل الابن"للأمريكي نورمان ميلر

1

اتّخذتُ قرارا مهمّا سأواجهها به ولن يهمّني بعده شيء!
"خلال خمس دقائق أو عشر ستكون هنا، لن تتأخّر أكثر"..
قلتُ هذا لنفسي وأنا أعدّ القطع النقدية في كفّي وأنظّم قراراتي الجديدة في الحياة، وأوّلها أنّي نفرتُ من الشعر ولن أكتبه بعد اليوم، وثانيها أنّي وقعتُ في غرام الرّواية وأشعر بانجذاب شديد نحوها، تماما كأنّي مللتُ رجلا كنتُ أواعده وأهيم الآن بآخر، أتطلّع إليه بشغف من لم تظفر به بعد.
ابتسمتُ مشفِقةً علَي.
يجعلنا الانتظار، أحيانا، نتفلسف، وكأنّها طريقة يختارها العقل حتّى لا يربكه قلق الترقّب. سيقول أصدقائي الشّعراء إنّي شاعرة فاشلة وفَعَلَتْ خيرا إذ تخلّصنا منها وسيقول أصدقائي الروائيون ما الذي أتى بها إلينا؟
لا مشكلة في كلّ هذا، المهمّ أنّها ستأتي وسأكتب روايتي.
يعيش الناس حولنا يوميا عشرات القصص التي يصلح أن نرويها والتي كان من الممكن أن تكون قصصنا أيضا.

مازلت أجلسُ إلى طاولتي، أتباطأ في ارتشاف قهوتي، أحاول أن أتلهّى بأي شيء حتّى لا أزيد اضطرابي الذي لا أجد له مبرّرا سوى خوفي من أن ترفض محادثتي. رغم ذلك قرّرتُ أمرا مهمّا سأواجهها به، وهذا ما جعلني أكثر هدوءا فخفّفتُ نقرات حذائي على حافة الكرسي.
اقترب موعد دخولها إلى المقهى. لن أكتفِي بالتّدقيق في كلّ حركاتها التي تبدو لي - أحيانا- مرتبكة حتّى وهي تقرّب فنجان القهوة من شفتيها. لستُ متأكّدة من أنّها ستقبل محادثتي لكن من يدري، فقد تفاجئني وتروي لي قصّتها.

أرتشف قهوتي التي بدأت تبرد وأحاول أن أركزَّ تفكيري فيها حتّى لا تتشتّت أسئلتي التي أخفيها عنها. في الحقيقة، ليست لي أسئلة جاهزة، بل هي مجرّد استفسارات حول ما عاشته وكيف عاشته. قرّرتُ أيضا أن أخفّف فضولي، فشدّته قد تزعجها. سأكتفي بما تمدّني به من خطوط عريضة وسأؤثّث وحدي بقية تجاويف قصّتها بما سيمنحني به خيالي..
هل تراها تقبل أن أقحم أنفَ خيالي في حياتها؟
بدأ القلق يستبدّ بي، ربّما علي أن أطلب قهوة أخرى؟

لا أظنّها ستتأخّر أكثر، ما زلتُ مصرّة على انتظارها. سأطلب قهوة أخرى وأتلهّى بالنّظر في وجوه روّاد المقهى. كلّ وجه يحمل شخصية وكلّ شخصية تخفي قصّة وكلّ قصّة قد تتحوّل إلى رواية. كم يروقني أن أفسّر ملامح الوجوه وأحاول أن أستقرئ فيها خيوط قصص ما.. النادل، مثلا، منتظم الحركات: الابتسامة نفسُها يوجّهها إلى الجميع، الحركات المتناسقة نفسها بين فناجين

القهوة. ورغم ذلك أخمّن أنّه فوضوي في حياته الشخصية وأنّ كلّ قصصه في الحياة غير مكتملة. كما أظن أنّ قصصه غير جديرة باهتمامي ولا أحتاج إلى أن أرويها، بل أجد أنّه من الممل فعلا أن تفكّر روائية مبتدئة مثلي في قصص غير مكتملة وإن كانت الشخصية الفوضوية تثيرني، وأجدها ملهمة. لكنْ لماذا أزعج نفسي بأشياء لا تعنيني الآن، فيما عليّ أن أركّز ذهني على حضورها حتّى أحصل منها على كلّ ما يساعدني على كتابة رواية جيدة؟
عادت رِجْلِي تنقر حافة الكرسي بانتظام وعدتُ زائغة البصر، أنظر إلى الوافدين على المقهى الصغير. يبدو أنّها تأخّرت أكثر ممّا يجب، فها قد بدأ الانتظار يزعجني. كم أخشى ألّا تأتي أبدا!
أمقت الظّنون التي بدأت تستبدّ بي لأنّها تفسد هدوئي.

كدتُ أستسلم قبل أن أراها تطلّ وحدها من باب المقهى وتسرع نحو النادل. شعرت بأنّها لن تجلس لترتشف قهوتها فاتّجهتُ نحوها. كانت تحتضن حقيبة أوراق صغيرة، في حين تنشغل أصابع يدها الأخرى ببعض القطع النقدية. اقتربتُ منها فأشاحت ببصرها عنّي، لعلّها لم ترني.!
بسرعة انْسَلَّتْ من المقهى، تحمل قهوتها في كوب بلاستيكي. غادرَتِ المكان فتألمتُ، ربّما كان يجب أن أكون أكثر جرأة وأذكّرها بي.!

لا أستطيع أن أفسّر لامبالاتها تجاهي سوى أنّها لم تتذكّرني وما يؤلمني هو أنّي فوّتُ فرصة الحديث معها! قد يعني هذا أنّها لا ترغب في أن أكتب قصّتها. لا يحبّ كلّ الناس أن تُكتب قصصهم التي يعيشونها، وأن أكون روائية لا يعني أنّه يُسمح لي بالتطفّل على هموم النّاس، التي يمكن أن تكون قاسية ومؤلمة وجارحة، ولا يجوز لي ابتزاز معلومات منهم تساعدني على كتابة روايتي وتعريهم أمام الملأ. لا يقبل كلّ النّاس أن يتعرّوا أمام غيرهم ليكشفوا عن النّدوب التي خلّفتها تجاربهم المُوجعة، ليست كلّ القصص مُباحة.!

دلقتُ آخر ما تبقّى من قهوتي في حلقي وقد أزعجني أن تذهب بي الأسئلة إلى هذه الجهة التي لا أحبّ التّفكير فيها. ها هي تغادر المقهى دون أن تجهد نفسها لتتذكّرني، بل لعلّها لم تنتبه إلي أصلا. رغم ذلك لن أزعج نفسي ولن أترك لامبالاتها تفسد علي شغفي بقصّتها ورغبتي الجامحة في كتابتها.
وجئت، وأنا أهمّ بمغادرة المقهى برذاذ المطر يسبقني في الشّارع. راقني ذلك وشعرت بأنّ مزاجي صار أفضل. سيكون ممتعا أن أعود إلى بيتي راجلة.

أدركتُ، لحظة بلّلني المطر، أنّي قد أصبت في اتّخاذ قراري. كان النّاس حولي يسرعون نحو بيوتهم، بينما كنتُ أمشي بهدوء والأفكار تتسارع في ذهني والجُمَل تتزاحم وتنهمر، ترغب في أن تسقط على بياض الورقة وتُكتب.

لا أريد أن أتأخّر أكثر في كتابة روايتي الأولى!

2

حلّ الظلام بالبيت وعمّ السكون الأرجاء. فوق السرير جسد ضخم، بجانبه جسد نحيف وصغير يكاد لا يظهر؛ يتكوّر على نفسه، كأنّه قط وحيد.
دقات الساعة في الصالون تصلها منتظمة ورتيبة، تفسد الهدوء المحيط بهما. تحاول أن تُلهي نفسها بتتبّع أنفاسه وتماثله في الشهيق والزفير. الآن يملأ الهواء فيعلو صدره الكبير. تملأ، مثله، الهواء. يطلقه من أنفه، ينخفض صدره، فتفعل مثله وتبتسم. أخيرا، أصبح لها جسد يمكن أن تحضنه وأنفاس تتبعها ورجل لها وحدها.
كانت أمها تصرخ في وجهها في ساعات الغضب "ستبقين رهينة في البيت ولن يتزوجك أحد". تبكي بصمت وهي تتأمل حجمها الصغير وتخجل من النظر في المرآة. اقتربت منه بهدوء؛ كأنها تريد أن تؤكد لنفسها أنها لم تعد رهينة في البيت الذي غادرته ولن تعود إليه.

تحسّست بكفها وجهه وتلمّست ندبا غائرا لجرح قديم على فكه الأيسر يعود لطيش الشباب. اختبأ الجرح تحت شعر لحيته. سيف لا يريد أن يتذكر أن هذا الجرح سببُه بائعة هوى. ظهرت، في ذلك المساء البعيد، في أحد أزقة ساحة برشلونة فاندفع نحوها. وجد نفسه وسط شبان لا يعرفهم لكنهم كانوا، مثله، تقودهم رغبة شرسة نحوها، تمكّنت منهم فحوّلتهم إلى كائنات متوحشة. كل واحد منهم يريد أن يكون أول من يفتتحها وتهدأ أنفاسه بين فخذيها. لم يهتم أحد بأمر بائعة الهوى ولم يسألها أحد عن رأيها، إن كانت ترى في من تجمهروا حولها رجالا يملكون نقودا لها أو ذئابا ينهشون جسدها ويرحلون. لا تطيق أن تكون ضحية، ولم يهتم أحد بنظراتها الفزعة؛ كأنها لم تعد إنسانا وتحوّلت إلى إناء كل يريد الانفراد به.
كانت الشتائم والسباب ترتفع بينهم وهم يتدافعون حولها، ثم تشابكوا. امتدت قبضته إلى وجه أحدهم. وبسرعة خاطفة، رد عليه بضربة مشرط، فترك جرحا غائرا في فكه. ينزعج سيف من كل من يسأله عن هذا الجرح، وراقه أن يمتد شعر لحيته فيغطيه و لم يعد الناس ينتبهون إليه. من حكمة اللحية أنها تميز المسلم الحقيقي ومن محاسنها له أنها تستر عيبه وتغطي ماضيه السيئ. يتذكر جيدا كيف أنه تفاجأ بأن اللحية نفسها كانت موضوع خلاف شديد بين رجال الدين، يتنازعون حول القول بتحريمها أو إباحتها أو كراهيتها. لم يفهم إلى الآن كيف يمكن للحية بسيطة أن تكون موضوع جدل حادّ. بالنسبة إليه أطلق لحيته على عادة السلف الصالح واقتداء بإخوته في الإسلام. وقد راقه أن يكون ذلك مخالفة للكفّار، لذلك تميزه لحيته عن جيرانه وأصدقائه القدامى، فالكفار لا يخلو منهم زمن.
رفعت كفها إلى رأسه، ثم عادت إلى الجرح القديم تتحسّسه بأناملها، تُبعد شعر لحيته وتقتفي بسبابتها خط الجرح وتضغط عليه بلطف. تململ منزعجا

وقال لها، دون أن يفتح عينيه "أبعدي يدك عني". كان ذلك كافيا لأن يجعلها ترفع كفها عن الجرح المخفي وتمدها في اتجاه شاربه المحلوق. بلطف شديد، أخذت تداعب بأناملها شفتيه الغليظتين. الحرارة التي بدأت تسري في جسده جعلته يتململ قليلا. فتح عينيه وهو يقول:

- ماذا تريدين؟

كان ذلك كافيا لتستيقظ رغبته وتشعّ في ظلام الغرفة. لم تعد تهتمّ بدقات الساعة الرتيبة التي تصلها من الصالون. صارت في حالة أخرى لا يصلح فيها أن تتذكر ملامحها في المرآة ولا أن تستحضر صوت أمها وهي تصرخ بها "ستبقين رهينة في البيت". كانت في حالة لا تُحسن وصفها. الرغبة تعدو بهما مثل حصان جامح وشعرت بأنها ترتفع إلى الأعلى، تكاد تلامس سقف الغرفة. عند ذاك سقط ماء في مجرى بحوضها وانبثقت حياة في نفق مظلم بجدران رطبة ولزجة.

- يا لَحظّيَ الجميل.!

هتف الحيوان المنوي المحظوظ:

- كم يبدو مثيرا ورائعا أن أحظى بفرصة حياة لن يسرقها منّي أحدٌ!

عندما انشغل الحيوان المنوي داخل البويضة بلعبة التقسيمات الممتعة كان في شوق كبير لما ينتظره. قال بزهو: الآن تُصنع حياتي!

وهو غافل عما سيحدث له لاحقا.!

***

تملّك ليلى فرحٌ عارم حين أكدّت لها الطبيبة صحّة الحمل!

3

"لتستقم الصّفوف يرحمنا ويرحمكم الله".
كان صفّا واحدا وأغلب المصلّين من المسنّين الذين تجعلهم شيخوختهم يستفيقون باكرا. ألقى سيف نظرة أخيرة على الباب علّ صابرا يلتحق بهم. أعلن الإمام بدء الصلاة مكبّرا "الله أكبر"، فاستجاب الحاضرون آليا وبصوت واحد "الله أكبر".
شرع الإمام يتلو القرآن بصوت رخيم والجميع منصتون في خشوع وصمت. وما هي إلّا هنيهة حتّى سمع خطوات حثيثة يعرفها جيدا. إنّها خطوات صديقه صابر. كعادته، يأتي متأخّرا، وكلّما عاتبه أحد إخوته في الإسلام أجاب بابتسامة خفيفة:

- نعم، معك حقّ، سأكون في الموعد المرّة المقبلة.

ثمّ يلعن في سرّه النّوم اللّذيذ!
وهم سُجّد يسبّحون لا يدري سيف كيف تسرّبت إليه - مثل كلّ مرّة- تفسد عليه صلاته."ويحها، أي عذاب ستلقاه من ربّي جرّاء ما تفعل بي!"همس سيف لنفسه.
بينما تنام زوجته في سريره، تتجوّل هي في خياله. لا يدري لِمَ تخطر بباله في كلّ وقت؟ لماذا يتذكّرها كلّما ظن أنّه قذفها في دهاليز النّسيان؟ يبدو أنّه لا يزال يحبّها. عليها اللّعنة، هل يعقل أنّه لا يزال يحبّها بعد كلّ ما حدث؟ وهل سيغفر له الله هذا الحبّ الوباء الذي يسري في دمه ويتنفّسه؟ رفع صوته بالتّسبيح وصورتها ثابتة في ذهنه بتحدّ صارخ. ويحها، إنّها تتسلّل إلى صلاته وتقتحم سجوده وتقف حاجزا بينه وبين ربّه.
اللّعنة، ما الذي أتى بها الآن؟ يغمض عينيه حتّى لا يراها، لكنّها تعانده فترتسم في مخيلته. يستعيذ من الشّيطان علّها ترحل، لكنّها باقية هناك. يتلعثم لسانه في الدّعاء:

- ربّي، اغفر لي وثبّتني على دينك.

يقوم من السّجود. يتنفّس بقوّة، كأنّه سيقذفها من أنفاسه، لكنّها تعود لتتجلّى أمامه. كم أحبّها! وكم كان يلذّ له أن يتنفّس في وجهها ورقبتها وبين نهديها! يغمض عينيه ويرفع صوته بقراءة القرآن مع الإمام علّه يبعدها بصوته، لكنْ ما إن يعاود السّجود حتّى يشعر بها قريبة جدّا منه. كم يخشى أن يجدها أمامه إن فتح عينيه. ترى أين هي الآن؟ أتراها تتكوّر دافئة في حضن أحدهم؟ هل تذكره كما يذكرها؟ هل تحنّ إليه كما يحنّ إليها دائما؟
عندما سلّم الإمام معلنا نهاية الصّلاة عاودته الحيرة ككلّ مرّة: هل تعدّ صلاته ملغاة؟ لم يكن يملك غير أن يستعيذ من الشّيطان الرّجيم ويدعو الله أن يثبّت إيمانه.

يتبـــادل ســـيف وبعـــض إخوتـــه فـــي الله نظـــرات يمتـــزج فيهـــا الخـــوفُ بالإيمـــان، ثـــمّ يتســـلّلون بحـــذر شـــديد ليجتمعـــوا، فـــي ســـرية تامّـــة، داخـــل بيـــت مـــن بيـــوت الحـــي، يتغير عنوانه في كلّ مرة.

تعـــرف السّـــاردة جيـــدا مـــا يفعلـــه ســـيف وإخوتـــه فـــي خلـــواتهم، لا ترغـــب فـــي الـــدّخول علـــيهم الآن (تكتـــب ملحوظـــات ســـريعة فـــي كـــنش صـــغير لا يفارقهـــا أعدّتـــه لهـــذه الرواية) ربّما ستكشف لنا ما يفعله الجماعة في خلواتهم لاحقا. !

4

الماء المندفع من الدشّ يَرِدُ على مسمعي كأنّه رذاذ المطر. كنتُ في إغفاءة خفيفة عندما صفق الباب فجأة بقوّة ففزعتُ. فرّ النوم من جفني وانكمش قلبي خوفا. لقد غادر البيت الآن! اتّسعت عيناي وأنا أحملق في الظّلام. ساد الصّمت التّام المكان، ثمّ فجأة ارتفع الآذان قويا وظلّ القلق راسبا في قاع قلبي.
حاولتُ أن أستعيد هدوئي وأعود إلى النوم، لكنّ شيئا ما منع الهدوء عنّي وجعلني في توتّر، كأنّ السّقف سينهار علي. "يا ربّ، أعد السّكينة إلى قلبي"، أتقلّب في فراشي مستجدية النّوم ثانية.
يحدث في النوم أن تراودني أحلام جميلة تُمتعني، كأن أتفسّح في حدائق، أستلقي على الشواطئ، أجلس في المقاهي، ألتقي أشخاصا، أقهقه بصوت عال لنكات بذيئة.
أستغفر الله!
يحدث أحيانا أن أرى نفسي أرتدي سروالا ضيقا وقميصا ينحسر على صدري فينتأ نهداي في تمرّد وتتلاعب النّسائم بخصلات شعري في الهواء.
أعوذ بالله!
ما زال التوتّر يسكن أعماقي: ترى هل ستمرّ هذه اللّيلة بأمان؟
ماذا سيحدث إن قبضوا عليه؟ أرتبك، لا أستطيع أن أتخيل الإجابة، بل لا أستطيع تحمّل مرارة هذا السّؤال.
أحاول أن أستدرج نفسي إلي الهدوء فأغمض عيني.

يتبدّد ضوء الغرفة وتتحسّس يده جسدي. تتلمّسه في الظلام. كانت هذه نقطة اختلاف بيننا، كنتُ أحبّ أن أتحسّس جسده ببصري، بيدي، وهو ملتصق بي أن أرى الرّغبة توقظ الجسد تجعله يتمطّى ويتلوّى وتدفعه في اتّجاه المتعة، للانقضاض على نشوته. يثير ذلك فضولي. كأنّي أعيد اكتشاف الجسد في كلّ فعل جديد. لكنّ سيفا - وباستثناء المرات القليلة جدّا التي رضخ فيها لرغبتي في بداية زواجنا- لم يعد يقبل البتّة أن يتلصّص ضوء الفانوس على جسدينا العاريين. وبعد أن يئست من رغبتي، التي تصطدم دائما بصخرة عناده، لم أعد أطلب منه إنجاز الواجب والغرفة مضاءة. ويعود السؤال يهددني "هل قبضوا عليه؟".

أفتح عيني الآن، أحملق في الظّلام الذي يبدّده قليلًا الضّوء الخافت المنبعث من الصّالة. صمت عميق يلفّ المكان. أشعر بدبيب الخوف يسري في جسدي، ماذا إن قبضوا عليه؟ لم أعد أتحمّل. ازداد خوفي حتّى بدا لي أنّ خطًى ثقيلة تقترب من الباب فعلا. أقفز من فراشي، أتحسّس صدري، كأنّي أطمئن، من شدّة الفزع، إلى أنّ قلبي ما زال في مكانه.
مازال الصّمت المريب يخيم على البيت!

5

يوشك الصّباح أن يطلّ. نتسلّل من البيت ونغادر بهدوء فرادى كي لا نلفت انتباه الجيران. يقول لي الأخ صابر- كعادته- بصوت خفيض:

- سيف، انطلق أنت وسألتحق بك بعد قليل.

أُطلّ من الباب برفق. لا شيء يوحي بالحياة: الزقاق خالٍ من ضوء الصّباح وفارغ من المارّة. بسرعة أندفع فيه، وبخطى حثيثة أمرق من زقاق إلى آخر حتّى أصل إلى الشّارع الطّويل. أخفّف خطاي وأنا أقترب من دكّان صابر.

سأنتظره إلى أن يلحق بي فيفتح دكّانه وأخرج بضاعتي لأفتح شهية المارّة.

مرّت دقائق بدت طويلة وبدأ القلق الذي يسكن قاع قلبي يطلّ برأسه، ثمّ استبدّ بي الخوف.

يا إلهي، هل انتبه إليهم أحد الجيران؟ هل عرفوا ما يحدث في الدّاخل؟

خفق قلبي بقوّة وسكنني قلق استوحشت له روحي فطفقت يداي ترتعشان وزاغت نظراتي حتّى خفتُ أن يتفطّن أحدهم إلى ارتباكي. هل تعقّبهم مُخبرٌ أو تشمّم أصواتَهم أنفُ قوّاد؟ لم أكن مرتاحا لاختيار بيت نجيب هذه المرّة، سور بيتهم منخفض وجيرانهم كثر، وربّما رآنا أحدهم ندخل إلى هناك؟

***

مازلتُ في الشارع أنتظر صابرا. أرسل بصري إلى آخر الشّارع وأدقّق النّظر في الأزقّة الصّغيرة عساه يطلّ من أحدها. ويستبدّ بي القلق! أذكر أنّي رأيت ضوءا ينبعث من شبّاك صغير في بيت الجيران يفتح على فناء بيت نجيب، هل ثمّة أحد خلف النافذة يترصّد لقاءنا السّرّي؟ هل تراه أخبر رجال الأمن بما نفعل؟

هل أطلب صابرا بالهاتف لأسأله عن تأخّره؟ لكن، قد يكون وقع في قبضتهم فيردّ علي أحد الكلاب المتربّصين بنا من الشّرطة وهو سعيد بالغنيمة التي عثر عليها في بيت نجيب. هل يمكن أن أكون فريسة سهلة لهم؟ هل أسمح لهم بالوصول إلي بهذه البساطة؟ أحاول طمأنة نفسي:

- صحيح أنّ صابرا تأخّر كثيرا، لكنْ رغم ذلك قد لا يكون قلقي مبرَّرا. أظنّه سيطلّ الآن، ليس من عادتنا أن نترك أثرا يدلّ علينا، لذلك لن يصيبنا شرٌّ بإذن الله.

يخفت القلق قليلا وأتلهّى، بمساعدة أحدهم، بتنزيل صناديق الخضر من شاحنته. وفي كلّ مرّة أسترق النّظر إلى الشّارع، متطلّعا إلى الأزقّة الضيقة. يعاودني السّؤال:

- هل يكون صابر أحد الأنوف المندسّة بيننا؟

أستعيذ من الشّيطان الماكر في سرّي، لا يمكن لصابر إلّا أن يكون أحد الإخوة الصّادقين. صحيح أنّه حديثُ عهدٍ بنا لكنّه رجل لطيف وكريم وصاحبُ فضل عليّ، يترك بضاعتي في دكّانه دون أجر. سيزداد إيمانه صلابة بمرور الوقت.
أقف أمام الدكّان، أجلس على عتبته، أتّكئ على الجدار، أعبث بقفل الباب، أتقدّم وسط الشّارع بخطى صغيرة وبصرٍ لا يهدأ. لقد بدأ القلق يأكلني ويكاد صبري ينفد! يا إلهي أيمكن أن يكون كلّ هذا التأخير بلا مبرّر؟ أُفَكِّر في أن أعود إلى بيت نجيب، لكنّه لا يبدو قرارا صائبا، فضوء الصّباح قد انتشر في الشّارع وسأكون مكشوفا للجميع. لا يمكن أن أتصرّف برعونة. يجب أن أهدأ قليلًا.
اتّكأت على باب الدّكان مرّة أخرى وبصري يمتدّ بلهفة إلى آخر الشارع .فجأة، لمحتُ صابرا يطلّ بمفرده من زقاق صغير فتنفّست الصّعداء، متقدّما نحوه بخطى واسعة:
- أين كنتَ؟ لماذا تأخّرتَ؟ هل خرج الجميع؟ هل انتبه إليكم أحدٌ؟
ردّ، وهو يخرج سلسلة مفاتيحه:
- لا بأس، كلنا بخير.. اطمئنّ.
- لكنّك تأخّرت كثيرا يا أخي، هل خرج الجميع بأمان؟
-لا، مازال "الأخ عبد الحميد"- أبرز رجال المجموعة وأشدّهم إيمانا وأكثرهم حفظا للقرآن والأحاديث وأفضل من يسرد سير الصّحابة - .
هكذا نحن - أحباب الله- نحمل إيماننا كجمر في أكُفّنا، نتخفّى حتّى لا ترانا عيون الطّاغوت ولا تتشمّمنا أنوف المخبرين. نختلس إيماننا من فتنة الدّنيا وإغراءات الحياة وقبضة الطغاة. "بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا، فطوبى للغرباء". صدق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وثوابُ الآخرة خير وأبقى لو يعلمون.
- إذن لماذا تأخّرتم؟ هل ترصّدنا أحدهم؟
أجاب، وهو يلتفت يمنة ويسرة:
- لا أظن، لكنّ "الأخ عبد الحميد" انتبه إلى أنّ أحد الجيران كان يقف في أوّل الشّارع قريبا من البيت ويهمس في هاتفه. ارتبنا في أمره وكان يجب أن نحذر.
خيّم الصمت للحظات بيننا وشعرت بأن لقلقي الشديد مبرّرا وأنّ حدسي كان صائبا. لم أشأ أن أخبر صابرا عن قلقي فيزداد خوفنا، فقط سألته:
- ماذا قال "الأخ عبد الحميد" ؟
- لا شيء، قال لننتظر بضع ساعات وإن لم يحدث شيء فارتيابنا مجرّد وهم.
قلتُ، وأنا أحاول أن أبدو أكثر قوّة ورباطة جأش:
- نعم، يجب أن ننتظر بضع ساعات لنطمئنّ.
تهالكت على كرسي وأنا أردّد بصوت حاولتُ أن أجعله يبدو واثقا:
- قد يكون الأمر عاديا لكنّ الحذر واجب!
ثمّ أضفتُ في نفسي:
- كيف ستمرّ هذه السّاعات؟ وماذا سيحصل إن انتبهوا إلينا؟
وانقبض قلبي بشدّة!

انزعجت السّاردة أيضا من هذا التّأخر وتوجّست شرّا!

6

- قُلْ كلّ شيء أيها الكلب.!

لا يدري أين هو الآن. شُدَّت على عينيه عصابة وقيّدت يداه بأصفاد حديدية إلى الخلف. دُفع بقوّة فتعثّرت خطواته وكاد يسقط على وجهه حتّى ردّه جدار. وتناهى إليه صراخهم وشتائمهم ورذاذ البصاق المتناثر من أفواههم فانكمش في مكانه من شدّة الخوف واستعان عليهم بالدّعاء: "ربِّ انصرني على القوم الظّالمين".

تشتدّ الرّكلات من أحذية تبدو صلبة جدّا تطال جسده الملقى بإهمال، فيتكوّر على نفسه أكثر ويشدّ رأسه إلى صدره لحمايته. تلهيهم أحاديثهم المختلطة فتخفت الرّكلات ويتمنّى لو يغفلون عنه. يتبين خطى ثقيلة تقترب منه كثيرا، ثمّ تشدّه قبضة حديدية من شعره إلى الوراء ويصرخ به صوت قوي:

- قل كلّ شيء أيها الكلب! ماذا كنتم تفعلون؟

بسرعة، يهوي على صدغه بصفعة قوية تكاد تسقطه ثانية على الأرض، ثمّ تتلوها أخرى، فيحتمي برجليه ويتكوّر على نفسه وتنهال عليه ركلات متسارعة. يلتصق بالجدار القريب منه، لكنّ القبضة الحديدية تعود لتشدّه من ياقة قميصه حتّى يختنق ويصرخ الصّوت القوي:

- خذوا هذا الوغد إلى هناك، سنهتمّ بأمره.

تلقّفته أيدٍ كالمقابض الحديدية وألقت به في مكان بدا له معتّما تفوح منه رطوبة مقزّزة. انكمش على نفسه وقلبه يرتجف من شدّة الخوف. عاد به ذهنه إلى تلك اللّحظات الرّهيبة التي لن ينساها.

كان منهمكا في رصّ بضاعته الصّغيرة حين وقفت فجأة سيارات شرطة نزل منها رجال أشدّاء في لباس أَسْود وأقنعة تغطّي وجوههم والأسلحة في أيديهم وبسرعة البرق طوّقوا المحلّ وصرخوا به:

- قف مكانك ولا تتحرّك!

رفع بصره فوجد المكان مدجّجا بهم. صُعق لمرآهم. بدوا له كثُرا، يدفعون كلّ من كان في طريقهم. بعض رجال البوليس بلباسهم الأسود منتشرون على الأسطح القريبة، شاهرين أسلحتهم في اتّجاه الدكّان.

يا إلهي، لقد وقعوا في المصيدة وانتهى أمرهم!

ركله أحدهم بطرف الرشّاش وصوّب آخر في اتّجاه صابر وهو يُأمره بالانبطاح على الأرض ورفْع يديه والبقاء ساكنا. تمدّد سيف على الأرض، وبسرعة وضعوا الأصفاد في أيديهما ورموهما في شاحنة مظلمة انطلقت بهما تنهب الأرض في اتجاه مجهول.

تحسّس الأرض تحته، كانت مبلّلة. غمرته رائحة نتنة، فرفع رأسه قليلا ليجد نفسه ملقى قرب بركة من البول فيها ما يشبه مرحاضا يموج بماء خاثر لزج تسبح فيه كتل من الخراء. صدمه ما رأى وشعر بالتقزّز وبرغبة شديدة في التقيؤ. رفع نفسه عن الأرض وهو يردّد:

- ربّي انصرنا على القوم الكافرين.

مـــا حـــدث ذلـــك اليـــوم كـــان ســـريعا ومرعبـــا. تابعـــه، بخـــوف، كـــلّ مـــن تصـــادف وجودهم في السّوق وبقوا يتحدّثون عنه فترة طويلة!

غيـــر بعيـــد عـــن الـــدكّان، كـــان "وِلـــد حَـــدَّة" يتـــابع المشـــهد بِوَجـــل، يتحسّـــس بكـــف مرتبكـــة عُلـــب البيـــرة المخبّـــأة فـــي أحـــد صـــناديق الغـــلال ويســـحب دخـــان ســـيجارته بعنـــف ثـــم يطلـــق كتلـــة الـــدخان فتنـــدفع أمـــام وجهـــه وســـرعان مـــا تتمـــدد وتتلاشـــى فـــي الهواء.!

7

لا تدري ماذا تفعل؟
كلّ المنافذ موصدة في وجهها. دقّت كلّ أبواب وزارة الدّاخلية سائلة عن زوجها، فردّوها خائبة، لم يشفقوا على حيرتها. مازالت لا تعرف أين هو. وكلّما استفسرت عنه سألوها عن تهمته، ترد "قبضوا عليه في أحداث سليمان". تتغير سحناتهم وتتخشّب لهجتهم ويطردونها من أمامهم، كأنّها وباء.
لا تدري ماذا تفعل!
المحامون الذين ذهبتْ إليهم تطلب مساعدتهم اعتذروا عن قضية يعدّونها خاسرة مسبقا، والمحامي الوحيد الذي سمعت أنّه يقبل مثل هذه القضايا طلب مالا كثيرا وهي لا تملك قليله. يقتات منها الحزن الشّديد ولا أحد يرحم صوتها المنهك ولا حَمْلَهَا البارز. ويستبدّ بها اليأس.
ساندتها عائلتها بما تيسّر. أمّها تأتي بما يحتاج إليه البيت الصغير وابنتها الحامل. أختها ثريا تزورها باستمرار في كلّ ذهاب إلى المعهد وعودة منه، ومرّات تبيت عندها، تمضي اللّيل ترمّم معنوياتها المحطّمة. في النّهاية، انضمّت ليلى إلى حماتها التي كانت تستعين بالجراية الضئيلة للمرحوم زوجها لتعيش معها.
آلمها أنّ إخوة سيف من السّلفيين الذين كان يصلّي معهم أو يلتقيهم في البيوت السرّية قد اختفوا تماما، منهم من جاء ذكره في سير الأبحاث فزجّ به في السّجن، مثل زوجها، ومنهم من اختفى بإرادته في جهةٍ ما حتّى تمرّ الزوبعة. لكنْ لا أحد منهم كان يجرؤ على الاتّصال بها للاطمئنان عليها أو مساعدتها خوفا من عيون الطّاغوت وأنوف المخبرين.

كان صباحا عاديا عندما طرق البابَ "ولد حَدَّة"وقدّم لها رزمة من المال. فوجئت لأنّها لم تتوقّع مساعدته لكنّه ألحّ قائلا:
- سيف صديق قديم، وأنا لا أنسى ما كان بيننا من صُحبة.
بَقيتْ متردّدة، لكنّ "ولد حَدَّة"ترك المال وغادر دون أن ينتظر استفاقتها من دهشتها لتشكره. ظلّت حماتها تدعو له بالخير والسّتر وهي تقول "والله راجل وفيه الخيرْ". أمّا هي فقد تملّكتها مشاعر متضاربة، فهي تعرف أنّ "ولد حَدَّة"صديقُ زوجِها القديمُ وتعرف أيضا، كما يعرف كلّ سكّان الحي، أنّه في الصّباح يبيع الغلال في السّوق وفي المساء يبيع الخمور خلسة.

هل تعدُّ ماله حلالا وتستعين به في حياتها الوَرِعَة أم تعدُّه مالا حراما وتردّه إليه؟ كيف سيكون موقف سيف منها إن قبلت المساعدة وهو يعدّ صديقه رجلا غريبا عنها؟ لكنّها في أمسّ الحاجة إلى المال، قريبا ستضع مولودها وليس لها من يساعدها في إتمام المراقبة الطبية الضرورية لحملها وفي شراء حاجيات المولود ومصاريف البيت التي لا تنتهي.

كانت في دوّامة من الأسئلة التي لم تجد لها أجوبة مُقنعة. في النّهاية، اضطرّت إلى قبول المال من "وِلد حَدَّة" وفي كلّ مرّة كانت تدعو الله أن يستره ويبعد عنه عيون البوليس وأنوف جواسيسهم ويبارك له في رِزْقه!

8

بحركة خاطفة، أخذت ليلى المقصّ وتقدّمتْ ببرود نحو المرأة التي أمامها. تعرف جيدا ماذا ستفعل بالمقصّ، لكنّ شعورا غريبا راودها في تلك اللحظة بأنّ زوجها يحدّق فيها بكلّ سخط ويطلب منها أن تبتعد عن المرأة الغافلة عمّا يدور في ذهن ليلى. تقدّمت منها أكثر ورفعت المقصّ في وجهها، طالبة منها أن تستقيم. حرّكت المرأة الكرسي قليلا واعتدلت في جلستها.
كان الصمت يخيم على المكان والأفكار تحتشد في ذهن ليلى وتتصارع. مشطت ليلى قليلا شعر المرأة وهي تنظر إليه من كلّ الجهات. ثم تحسّست خصلة منه، وبسرعة أتت عليها بحركة خفيفة من المقص. تمنّت لو أمكنها أن تقطع فكرة ما من الأفكار التي تراودها الآن وتشوّش عليها هدوءها.
عقدت علاقة غريبة بين خصلات الشّعر غير المتساوية والأفكار غير المنسجمة التي تدور في رأسها، وكأنّ الوضع الطبيعي يقتضي أن تقطع خصلات الشعر المتمرّدة ومعها الأفكار الغريبة المتمرّدة التي تمور في رأسها.
تناولتْ، بأصابعها المرتعشة، خصلة أخرى تقدّر انفلاتها عن مجمل الخصلات، ثمّ بحركة سريعة - حاولت أن تجعلها تبدو هادئة- أتت عليها بضربة مقصّ واحدة وعادت تمشطها لتنظر مدى تناسقها مع بقية الخصلات، والمرأة تنظر إلى ليلى في المرآة بهدوء وثقة ولا تدري ما يدور في ذهنها.
تمنّت ليلى لو تسنّى لها أن تمسك أفكار رأسها التي تزعجها وتقطعها ثم ترميها في سلّة المهملات مرّة واحدة وإلى الأبد.

ترفع رأسها لترى صورتها هي في المرآة: وجهها الصّغير في حجم كفّ يتلاءم مع قِصَرها، ونحافتُها تجعلها تبدو كطفلة لا تريد أن تكبر. تأمّلت عينيها الضيقتين وفمها الصّغير الذي لم تنقذه سوى بوسة الخال المرسومة على عجل قرب شفتها العليا. تمنّت لو تعود فعلا طفلة. كانت تودّ أن يكون لها جمال أختها ثريا، بوجهها اللوزي وجسدها الممشوق الذي يجعلها مثيرة في سروال "الدجين". استغفرت الله وعادت إلى الاهتمام بشَعر السيدة الجالسة أمامها.

تظنّ ليلى أنّها كانت ستبدو أكثر هدوءا الآن لولا إحساسها بنظرات سيف الحارقة نحوها. لم يكن يريدها أن تشتغل مُزينة نساء في محلّ حلاقة تدخله السافرات للتبرّج والتزين وهنّ يتبادلن النّكات البذيئة والقهقهات الماجنة التي يتخلّلها دخان سجائرهنّ. لم يكن يريدها أن تساهم في تزيين نساء متبرجات وأن تكون حليفة الشّيطان وهي تجعلهنّ أكثر جمالا وأشدّ فتنة وإثارة. ارتبك المقصّ في يدها وهي تصل إلى استنتاج رهيب هو أنّها والشيطان متعاونان. للحظة، شعرت بأنّها لا تجرؤ على خصلة الشّعر المتمرّدة وتمنّت لو توجّه المقصّ إلى داخل رأسها لتجتثّ هذه الفكرة الموجعة. ظلّ المقصّ في يدها وهي

في حالة سكون للحظات حسبتها دهرا. لم تنقذها إلّا ابتسامة خفيفة من المرأة وهي تقول لها:
- أرجو ألا نتأخر، لدي موعد مهمّ.
انتبهتْ إلى أنّها يجب أن تسرع في عملها وتتقنه، فقد يكون للمرأة موعد عمل، فليس كلّ موعد هو بالضّرورة مع عشيق. لا أحد يعلم النوايا غير الله.

مضطرّة إلى العمل هنا لتعيل طفلتها الرّضيعة، فزوجها مازال مُلقًى في زنزانة وهي لا تعرف عن القادم شيئا. اطمأنّت قليلا وهدأت الأفكار المتمرّدة في رأسها، فبدأت أصابعها تتحرّك برشاقة وهي تقصّ الخصلات الثّائرة.

قبل زواجها كانت تشتغل في الحلاقة. ولأنّ سيفا يعدّه عملا شيطانيا، طلب منها أن تتخلّى عنه نهائيا. غصّت بريقها وهي تشعر بنظرات زوجها اللّاسعة. ارتبكت وهمست لنفسها "الله جميل يحبّ الجمال، ثم إنّني في حاجة إلى المال".

ما ترسله أمها مع ثريا لا يكفيها، تدخل بيتها محمّلة بحاجيات كثيرة وبأسئلة لا تتغير:
- كيف ترضين لنفسك بهذه الحياة؟
تجيبها دون أن تظهر تبرّما من سؤالها:
- أنا سعيدة بحياتي.
- مع زوج منغلق ومتشدّد؟
- إنّه يحب الله ويخشاه.
وتضيف بصوت خفيض:
- ويحبّني.
تكرّر ثريا:
- لقد دفنتِ نفسكِ حية معه.
تشير إلى النوافذ:
- افتحي نوافذ بيتك ليدخلها الهواء النقي.
تردّ بحدّة، وصبرها يوشك على النّفاد:
- زوجي لا يريد، لا يحبّ أن يتجسّس على بيتنا أحد الجيران.
تقول ثريا ساخرة:
- لماذا؟ حتّى لا يروا هذا البؤس الذي تعيشينه، حتّى لا يشمّوا رائحة الرّطوبة؟
لا تنكر أنّها تحبّ ثريا، لكنّها لا تتحمّل تهكّمها عليها.
عادت تقتفي أثر الخصلات المتمرّدة في شعر السيدة. إنّه عملها ويجب أن تخلص فيه، لكنّ سيفا لا يقبله ولا تدري كيف ستواجهه.
لم تدرِ كيف تستقرّ على رأي وبدا عليها التوتر والارتباك. أنهت عملها فاستأذنت صاحبة المحلّ ودخلت المرحاض. شعرت بأنّ يديها ترتعشان وهي تتوضّأ.

هـــل حقّـــا سيغضـــب الله منهـــا وســـيرميها فـــي جهـــنّم لأنّهـــا تقـــوم بصـــنيع يرتضـــيه الشّيطان، كما يقول سيف ؟

9

رفعتُ بصري فهالني المنظر كأني أراه لأوّل مرّة: بقعُ رطوبة كبيرةٌ تمتدّ من الجدار حتّى السّقف، كَسَتْهَا طبقة بيضاء كثيفة من الجراثيم.
بدا الوضع مقزّزا، أشعرني برغبة في التقيؤ. حاولت أن أرفع نفسي للنّهوض فاستندت إلى كفي وارتفعت قليلا عن سطح الأرض الأملس، لكنّ قواي خارت بسرعة وارتطمت بالأرض مرّة أخرى. شعرتُ بكلّ عضو في جسدي يئنّ من شدّة الألم. إلى الآن لم أستطيع تحمّل هذا الوضع القاسي وأجد مجحفا أن يكون عقابي شديدا إلى هذه الدّرجة.
خمس سنوات مرت منذ أن طوّقني البوليس كفأر وحيد ورُميت وراء الجدران الصّلبة أتنفّس الهواء النّتن. كنتُ في السّجن عندما أنْجَبَتْ ليلى ابنة سمتها كما أردت " نور " وحُرمت من أن أتلو عليها آيات قرآنية تكون أوّل ما تسمع في هذه الحياة حتى يَقِرّ في قلبها الذِكر الحكيم.
ماتت أمّي العجوز ولم أحضر جنازتها ولم أتلقّ عزاءها ولم أبكِ على قبرها. أشعر بغصّة في حلقي كلّما تذكّرت ذلك.
غِبت عن حياتي التي أحبّها واشتقت إلى ضوء الشّمس وصخب السّوق ودفء فراشي.
يا إلهي، خمس سنوات قضّيتها في السّجن طويلة فعلا ولم أعتد بعد هذه الزّنزانة الضيّقة ولم أتقبّل الحكم الجائر بسجني عشر سنوات لمجرّد أنّي أحببتُ الله والتزمت بدروس دينية في بيوت سرّية بعد أن منع عنّا النظام الجائر بيوت الله.
هل تكون نهايتي في هذا المكان الموحش الخالي من الحياة؟ يا رب رحمتك!

رُمينا في زنزانات خاصّة بنا ومُنعنا من التواصل مع بقية المساجين، كأنّنا مصابون بالجذام ويخافون عليهم من العدوى، كأنّنا قنابل ستنفجر بمجرّد أن يقترب منّا الآخرون. يتعامل معنا السجّانون بعنف وصلف دون مبرّر؛ وكأنّ كلّ عملهم يتلخّص في إيذائنا بكلّ الطّرق أو أنّ جراياتهم سترتفع إذا أمعنوا في التّنكيل بنا.
الصّدمة التي لم يقبلها عقلي أنّ الجماعة التي كنت أصلّي معها وأحضر معها دروسا دينية هي في الحقيقة واحدة من المجموعات الصّغيرة التي ينتمي بعض شبابها إلى تنظيم سلفي خطير يسمّى "جماعة سليمان"*

جماعة سليمان: خلية سلفية إرهابية عرفت في تونس بجماعة سليمان كانت تعدّ لضرب منشآت حيوية ومصالح أجنبية واغتيال شخصيات تونسية للانقلاب على حكم ابن علي. تّم الكشف عنها سنة 2006.

كان ذلك اكتشافا خطيرا لم أتوقعه، خلت ان المسألة لا تتعدى لقاءات سرية لنتحدث في أمور الدين فاكتشفت انها كانت تعدّ لانقلاب سياسي كبير.
قبض على بعضهم يتدرّبون على السّلاح في مرحلة الاستعداد للانقلاب على حكم بن علي، الكافر. لم يشفع لي جهلي ولا حسن نيتي، وها أنا أتنفّس الرّطوبة التي توهن جسدي وتجعلني أسعل مع كلّ نفَس.

أهمّ بالقيام فتمنعني آلام مفاصلي وتصدر عنّي تأوّهات أحاول أن أجعلها خافتة وأعضّ على شفتي، شعرتُ بمغص في أمعائي، هل أني تبعتهم مثل خروف فقادوني معهم إلى السجن، أم أن نيتي الحسنة لم تشفع لي وأتت بي إلى هنا! هل اني فعلا غبي أم أن الدين ورطة ؟.
ملأتُ المكان تنهيدةٌ حارّة اختزلت كلّ وجعي في هذا اللّيل العميق ولا أدري لماذا خطرت ببالي لُبنى فجأة؟

كنت مغرما لا أحيا خارج عشقي لها، غير انها تركتني لترحل مع شاب آخر هاجر خلسة إلى إيطاليا وعاد بسيارة فخمة ونظّارات أنيقة. تبّا لها، لمَ لا تغادر ذاكرتي وتريحني؟ يا إلهي، كم كنت أودّ أن أحضن ابنتي وأعيش حياتي الهادئة مثل بحيرة ساكنة. قالت لي ليلى في المرّات القليلة جدّا والمتباعدة التي زارتني فيها إنّ "ولد حدّة" لم يخذلني، ويساعدها من حين إلى آخر بمقادير مالية مختلفة. سأشكره لأنّه لم يتنكّر لصداقتنا القديمة ولم يخن الماء والملح اللذين كانا بيننا، أتذكّر قوارير الجعة وأطباق المُكسّرات التي كانت تجمعنا وأستغفر الله من الشّيطان.
بعد أن هداني الله، أقلعتُ عمّن اعتبرهم أصدقاءَ سوء، ولكن محنتي جعلتني أكتشف أنّ "ولد حدّة" صديق حقيقي!
صداقتنا قديمة جدّا، تعود إلى أيام الطّفولة. تشاركنا مقاعد الدّراسة وتقاسمنا الملل منها باكرا. بنحافته التي تجعله يبدو أطول منّي، وببدانتي التي تجعلني أبدو أكبر منه، شكّلنا ثنائيا قويا يمكن أن يكون عصابة ترعب سكان الحي. التقينا في طفولة مشاغبة وترافقنا في شباب متنمّر. دخلنا معارك عديدة نَصَرَ فيها أحدنا الآخر ضدّ شبّان الحي المجاور وخرجنا منها بخدوش وكدمات. جرّبنا معا السّجائر الملفوفة والخمور الرّخيصة وكان، أحيانا، رسولَ حبّ بيني وبين لبنى.
إيه.. كانت أياما، حدّثته عن كلّ شيء إلّا عن أصابع الغريب، فتلك حكايتي وحدي. كان كلّ صباح يمرّ بي في السّوق، يسبقه سعال شاحنته العجوز، يطلّ برأسه:
- سلام صاحبي.
- وعليك السّلام ورحمة الله وبركاته.
يومئ برأسه غامزا وهو يقول:
- وقتاش يهديك ربّي وتجي معايا؟
أصمت فيضيف:

- بلاصتك فارغة، نشتاقك يا صاحبي.

أقول حتّى يكفّ عنّي:

- حاشا لله..

- لا يهمّ، إذا غيرت رأيك تعرف فين تلقانا؟

أستغفر الله من هذه الذكريات وأحمده على نعمة الهداية وأهمس لنفسي: "ولد حدّة" طلع راجل مْعايا، ربّي يحميه ويبارك فيه.!

الزّنزانة هادئة في هذا اللّيل العميق والأرق يمنع عنّي النّوم. كان الجميع في سبات عميق عندما تناهي إلى مسمعي لهاث حارّ من آخر الزّنزانة المكتظّة بمساجين عملية سليمان. كنّا نتلهّى عن ضيقها الشّديد ورطوبتها المقززة بأحاديث متنوّعة نتبادل فيها ذكرياتنا الصّغيرة التي تأخذنا خارج أسوار السّجن، ثمّ نردّد أدعية نتضرّع بها إلى الله ونقضي أوقاتا في قراءة القرآن معا. كنت متأكّدا من أنّ اللّهاث الحارّ يأتي من آخر الزّنزانة؛ وأغلب الظنّ أنّه في أقصى اليسار، ولا أظنّني أتوهّم. تملّكني وجوم شديد أنساني ألم مفاصلي، كأنّني تحوّلت إلى قطعة خشب يابسة. لا أريد أن أفهم هذا اللّهاث الحارّ الذي تبعته تأوّهات تندّ عن جسد مكبوت ورغبة محمومة.

هل امتلكت أحدهم شهوة حارقة واجهها بكفّه المضطربة أم أنّ المسألة أخطر من هذا؟

أغمض عيني، كأنّهما ستمنعان عنّي هذا اللّهاث الحارّ الذي أسمعه بوضوح، وأغلق ذاكرتي جيدا حتّى لا تفتح ذكرى قاسية لا أطيقها. يشتدّ اللّهاث وتزداد التأوّهات بوتيرة متسارعة وأصابع الغريب تنهش ذاكرتي، ويعود نفس السّؤال يخترقني:

- هل هذا اللّهاث الحارّ الذي يصلني الآن لشخص واحد أيقظته شهوته الحارقة أم لشخصين استبدّ بهما مارد الغريزة؟

أطبق عيني بشدّة، كأنّي أصرّ على ألّا أفهم. تمنّيت لو لم يوقظني ألم مفاصلي فلا أكون شاهدا على هذا اللّهاث الحارّ ولا أتذكّر أصابع الغريب. كم تمنّيت أن ألطم رأسي على الجدار حتّى تتلاشى ذاكرتي وأنسى. ثمّ علت شهقة حارقة أحسبها وصلت آخر الرّواق، فسمعها كلّ من به أرق مثلي، و ساد المكانَ صمت مطبق.!

10

الطّقس ربيعي، نسائم الصباح منعشة والعصافير في زقزقاتها خارج بيتي تبدو مبتهجة. سحبت حجابي فانسدل شعري حرا على كتفيّ، شعرتُ أنّ كلّ حواسّي في حالة تيقّظ واستعداد تامّ للفرح. لم أكن أدري كيف أردّ عنّي هذا الإيحاء اللّذيذ الذي يمنحني هذا الطّقس. تمنّيت لو تسنّى لي أن أغادر البيت الآن، نعم الآن، فأتمشّى على شاطئ البحر أو أركض في الحقول، أوزّع ابتساماتي على الفراشات والطّيور والأطفال وأحيي كلّ من يعترضني من العشّاق.

يا إلهي، ما هذه الخواطر المفزعة؟

لكنّ روحي تتوق إلى معانقة هذا البهاء و بي رغبة جامحة في الفرح. أعوذ بالله من الشّيطان، كم هو ماكر يزين لي الشّهوات ويدفعني إلى الخطأ، لكنّي أشعر - صدقاً- بدغدغة في داخلي تجعلني أتمايل كأنّي أرقص.

أهمّ بالبحث عن قناة تلفزيونية فيها أغانٍ راقصة أطرب لها وتروي عطشي. أنا وحدي في البيت، ولا بأس ببعض المتع البريئة.

اللّعنة عليك، أيها الشّيطان، كم أنت مزينٌ الفسادَ!

أضغط على رغبتي وأكبح جماح نفسي وأبتعد عن التلفزيون. أدخل غرفتي وأتمدّد في فراشي.

لو نمتُ سأنسى كلّ هذه الوسوسات.!

***

وجدت نفسها فجأة في ليل عميق داخل مرقص فاخر. الأضواء متلألئة صافية تتراقص على إيقاعات موسيقية هادرة وجمع من الشّباب كلّ يرقص على هواه. لا أحد يخشى على حياته فيفكّر في أنّ المكان يمكن أن يضاء فجأة بقنابل يدسّها "شباب الإسلام" في غفلة من حرّاس الملهى وأعوان الأمن المرابطين فيه كلّ ليلة، لا أحد يخشى أن يتناثر جسده أشلاء ويودّع الحياة وهو يرقص احتفالا بها.

الوضع تحت السّيطرة والأجساد تتمايل في حركات متناسقة وفق إيقاع موسيقي صاخب. انبهرتْ ليلى بتلك الأضواء الرّاقصة، بالموسيقى الفرحة. وبسرعة، رمت نفسها وسط الجموع، تاركة جسدها يحادث الموسيقى. تقول الموسيقى فكرة ما في صورة أنغام إيقاعية، فيردّ الجسد بحركات رشيقة متناسقة، فتطرب نفسُها لهذا الحوار الفنّي الجميل.

تشعر بأنّ كلّ ما فيها يرقص. قلبها يردّد وجيب ضربات الطّبل والدّماء في عروقها تتقافز وفق لمسات الأورغ وروحها تتمايل كما تريد لها الكمنجة فتغمرها السعادة. تحرّر شَعرُها تماما و تناثر كما شاءت له حركات جسدها. بدت أجمل بفستانها القصير. ترى الأضواء الملونة الرّاقصة تنعكس على يديها

وصدرها وخصرها فيزداد اندفاعها في الرقص، وتلمح العيون تحلق فيها فتزداد حماسا وتمضي في إتقان الحوار بين جسدها الرشيق والموسيقى الراقصة. في لحظة ما أحسّت بكفّ كبيرة تتحسّس خصرها بنعومة فاستدارت. إنّه رجل تجعله الأضواء المتراقصة يبدو طويلا. من كلّ وجهه لمحت شاربه الصّغير الشّبيه بشارب عمر الشريف.
كم كانت تعشق مشاهدة الأفلام السينمائية وهي صغيرة.!
ردّت على لمسته الناعمة بابتسامة عريضة وتركت ابتسامة أخرى تهوي داخلها فتشعرها بالفرح.
ها هي الآن ترقص مع الرّجل، تجتهد في جعل جسدها يستجيب لإيقاع الموسيقى من جهة ويردّ برشاقة على حركات الرجل الراقصة من جهة أخرى. كانت تستمع بوقتها كما يجب. ترقص فتدور حول الرّجل، محافظة على حركات جسدها المتماوجة. يفتح هو ذراعيه كأنّه يهمّ بأن يحضنها فيزداد جسدها طربا وقلبها سعادة وتبعث ابتساماتِها في الفضاء.

في لحظة ما انفلتت حركة منها عن غير قصد، كأنّ قدمها زلّت فسقطت على الأرض واستفاقت مذعورة.!

***

فتحتُ عيني فإذا بي في بيتي الصّغير قد سقطتُ من سريري على الأرض. كان ذهني مشوّشا وأنا أستعيد صور الحلم الذي غادرت اللّحظة.
يا إلهي، ما هذا الذي حدث؟
لم أجد ترابطا بين مرقص لَيْلِى وبيتي الصّغير، بين أضواء متراقصة وشعاع الشّمس الذي يتسلّل بهدوء من شقوق النّافذة المغلقة، بين الموسيقى الصّاخبة والصّمت العميق الذي يعمّ المكان.
استغفر الله، ما هذا الكابوس المرعب؟
كيف سمحت لنفسي بأن أرتكب هذا الإثم الكبير فأرقص في الحلم ومع رجل غريب؟
عفوك اللّهم، أي شيطان ماكر تلبّسني؟
نهضتُ وأنا أستغفر الله وألعن نفسي وأستعيذ بالله من الوسواس الخنّاس!
دخلتُ غرفة طفلتي "نور" أتفقّدها. كانت تغطّ في نوم عميق طبعت على خدّها قبلة وأنا أتمتم "حمدا لله أنّه كان كابوسا، شكرا يا ربّ أنّك هديتني وجنّبتني مثل هذه المعاصي". لو أخبرت سيفا بهذا الكابوس لأنّبني كثيرا لأنّي لم أبسمل ولم أستغفر عندما هممت بالنّوم ولم أرقد على جنبي الأيمن!
يا لبلاهتي، يبدو أنّي غفلت عن ذلك، لكن ماذا أفعل لأتخلّص من أثار هذا الكابوس وصلاة المغرب قَرُبَت؟ هل يكفي أن أستغفر وأتوضّأ وأصلّي أم يجب أن أغتسل وأجدّد توبتي؟ تردّدتُ كثيرا. لو علم سيف في سجنه لأنّبني وزاد شعوري الشّديد بالذّنب. ماذا سأفعل؟

لـــم تطـــل حيرتـــي. قـــرّرت العمـــل بقـــول الرّســـول الكـــريم "أُتـــرك مـــا يريبـــك إلـــى مـــا لا يريبـــك". لا بـــأس إذن، سأغتســـل بســـرعة لأتخلّـــص مـــن رجـــس هـــذا الكـــابوس. اتّجَهْـــتُ نحـــو الـــدشّ يســـبقني دعـــائي أن يغفـــر الله لـــي ويُجنّبنـــي وســـاوس الشّـــيطان الماكر.!

11

بدا الوضع في السجن مريبا. شدّد الحرّاس مراقبة المساجين وألغوا فسحة النّهار التي لا تدوم سوى برهة من الزّمن، كما ألغوا زيارات الأهل، فارتاب المساجين وتساءلوا في ما بينهم عمّا يُعدّ لهم. هل اكتشفوا خلية أخرى تتبع الجماعة؟ هل غيروا مدير السّجن فجاءهم آخر بقرارات جديدة؟ هل هي إجراءات للتّنكيل بهم وإذلالهم أكثر؟
لم ينقذهم من ظنونهم سوى ما تناهى إليهم من أحاديث بين الحرّاس عن شابّ في سيدي بوزيد أحرق نفسه.
- أحرق نفسه؟!
- أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم، لا يحرق بالنّار إلا العزيز الجبّار.
- أحرق نفسه!
- عليه اللّعنة، لا يفعل هذا إلا كافر.
- يقال إنه أحرق نفسه جرّاء شعوره بالظّلم، ما أقسى الظّلم وما أمرّ الإهانة.!

شعر سيف بغصّة حين طوّح به خياله بعيدا فذكّره الشاب المحترق بأنياب الفقر التي كانت تنغرس في أيامه فيجد فيها مبرّرا للصّراخ في وجه أمّه من ضيق اليد، ثمّ الخروج إلى الشّارع للتنمّر على ضعاف الحال. لم يعجز يوما عن تدبّر أمره: يسرق بضاعة من السّوق أو يختلس ما في جيب أحدهم في المترو. وكثيرا ما يستغلّ اللّيل فيتسلّل إلى البيوت لينهب منها ما يستطيع حمله. يبيع الخمر خلسة، وأحيانا قِطعا صغيرة من "الزّطلة"، وربّما بعضة أقراص مخدّرة يشتريها بثمن بخس من جارهم "محمد هَبْلَة"، الذي صار يتردّد كثيرا على مستشفى الرّازي بعد أن فرّط في ملكية بيته لزوجته تهرّبا من الدّيون المتراكمة لفشله في مقاولات البناء ثمّ اكتشف فجأة أنّه عقيم، فمن أين جاء الأبناء الأربعة الحاملون اسمه؟
لم يكتف سيف بحبوب مخدّرة، بل كان يتوسّط لبعض السّائحين الليبيين فيأتيهم بالمومسات مقابل عمولة مهمّة. يطأطئ رأسه خجلا من ذكرياته، هذه الذكريات كأنّها شخص من الماضي يعيش داخلنا يمكن أن نستحضره فنشعر بالاعتزاز أو بالإهانة. لم ينقذه من تقريع ذكرياته سوى صوت أخيه في الله عبد الحميد وهو يقول:
- كان يجب ألّا يحرق نفسه. كان يجب أن يصبر على ما ابتلاه الله به من فقر وحاجة، ألا يعلم أنّ الله سيعوّضه بقصر في الجنّة؟
سأله سيف:
- إذا كان الفقر ابتلاء، هل الثّراء ابتلاء أيضا؟
- نعم، الله هو الذي جعلنا كما يريد وابتلانا ليعرف مدى صبرنا فيجازينا أو يحاسبنا.

مال عليَ كمال، "المُعلم" كما نناديه، كان مدرسا وانتهى به الأمر مثلي في هذه الزنزانة التي تضيق بنا، جمعت بيننا ألفة تجعله يأنس بي لذلك كان يردد أمامي أحيانا أن حظه العاثر انتهى به الآن في طريق مسدود، قال لي كمال كأنه يهمس:

- إذن، لماذا يبتلينا الله بالفقر فنعيش الذلّ ويضطرّ المرء إلى السّرقة والنّهب وفعل كلّ الموبقات ثمّ يحاسبه عليها؟ إذا كان الله هو الذي يمنح الفقراء الفقر فإنّه أيضا يقدر على منحهم الصبر على تحمّل ذلك الفقر، وإن كان صبر المرء قليلا فهذا ليس ذنبه، وبالتّالي لا حقّ له في معاقبته. ثمّ لماذا لم يبتليه بالثّراء؟

تفاجأتُ من تحليل كمال "المُعَلم"، وانهمرت ذكرياتي " نعم، عندما تكون ثريا فأنت مثلا لستَ في حاجة إلى سرقة الفقراء، لستَ مضطرّا إلى بيع عرضك. لو كنتُ ثريا ما اضطررتُ إلى أن أسرق كبش عيد جارتنا مباركة، الأرملة الذي جاءها صَدقة. ورغم أنّ مرادا الأعرج وشى بي فإنها لم تستطع أن تواجهني سوى بالدّعاء عليّ في غيابي. لو كنتُ ثريا ما اضطررت إلى أن أزاحم الفقراء في الحافلات والمترو في أوقات الذّروة حتّى أختلس أجرة يوم عامل بسيط أو جرايةَ آخر ينهك نفسه في مصنع صغير".

قطع عني كمال "المُعَلم" سيل ذكرياتي وهو يقول:

- الثّراء ليس ابتلاء، وإنّما نعمة، وإذا مُنحها شخصٌ عليه أن يشكر الله؛ أمّا الفقر فنقمة ليس للإنسان أن يشكر الله عليها، كيف نشكر الله على الفقر والمهانة والذلّ؟!".

تساءلت، مثله في سري، وقد قادني بسهولة إلى بحيرة من قلق:

- نعم، كيف يمنح اللهُ عبادَه حياةَ القهر ثم يطالبهم بشكره.؟

* * *

هزّه الاستنتاج الخطير الذي توصّل إليه، انتبه لنفسه و حمد الله على أنّه حدّث به نفسه سرّا فلم يدر أحد ما يعتمل في صدره. ربّما رطوبة الزّنزانة ومساحتها الضيقة والرّوائح العطنة هي التي جعلته لا يتحمّل هذا المكان فينقاد مستسلما لحديث كمال المُعلم، أو ربّما هو شوقه إلى طفلته التي لم يرها وحنينه إلى فراش نظيف ولُقمة تشبعه ما جعله يطرح السّؤال، لكن هل حقّا انحرف تفكيره.؟

بعد أيام قليلة، صارت حركة الحرّاس حثيثة وهم يحكمون إغلاق الأبواب ويصرخون على المساجين بشدّة. لم يفهم أحد سرّ تلك الجَلَبة إلّا عندما صرخ أحد الحرّاس "بن علي هَرَبْ".

ابتسم "الأخ عبد الحميد" وهو يقول:

- هل تعلمون يا إخوة أنّ الحاكم والشّعب كليهما على ضلال كبير والله لا ينصر القوم الكافرين.؟

- اللّهم نجّنا من شرورهم جميعا، كأنّها علامات القيامة.!

قال مروان بثقة:

- لن يصلح حال هذه الأمّة إلّا باتّباع السّلف الصّالح وبقيام دولة الخلافة على منهاج النبوّة والصّالحين.

طرح صابر سؤالا:

- لو أقيمت دولة الخلافة، أيمكن للنّاس أن يثوروا عليها؟

تعجّب سيف، لأنّ السّؤال نفسَه قد خطر بباله أيضا.

ردّ "الأخ عبد الحميد":

- لا يحقّ الخروج عن الحاكم بأمر الله، سيعدّ ذلك كفرا لأنّه خروج عن أولي الأمر، أي عن الإسلام.

تساءل صابر:

- أيعني هذا أنّه لا ظلمَ في دولة الخلافة؟

احتار سيف كيف أنّ صابرا يلتقط الأسئلة نفسها التي تدور في ذهنه، وكأنّ لديه قدرة على قراءة أفكاره الجديدة التي صارت تتتالى على غير عهده بنفسه.

ردّ "الأخ عبد الحميد":

- نعم، لا ظلم في دولتنا، كلّ ما سيكون هو بأمر الله ويجب أن نتقبّله ولا نثور عليه.

تساءل سيف:

- هل يعني هذا أنّنا يجب أن نرتضي الظّلم عندما يكون على يد أولي الأمر؟

اطمأنّ سيف إلى أنّهم لا ينتبهون إلى الأسئلة التي يطرحها على نفسه سرّا. لم يدرِ إن كان هذا هو السّؤال الذي خطر ببال صابر أيضا. تبادل معه نظرات بلهاء، ثم نقل بصره إلى كمال المُعلم، الذي بدا له غير مهتم بما يقول "الأخ عبد الحميد"، فرفع سيف نظراته إلى سقف الزّنزانة، وكأنّه يعلّق أسئلته هناك. هذه الأسئلة التي لم تكن تخطر على باله من قبل ولا يستطيع أن يطرحها الآن خشية أن يُفهم أنّه ضعيف الإيمان. ودون أن يدري خطرت ببالِه أصابع الغريب، فامتقع لونه بسرعة وارتبكت نظراته فاستعاذ من الشّيطان الوسواس وانزوى في ركن يقرأ ما تيسّر ممّا حفظ من القرآن الكريم حتّى يثبّت إيمانه ويبتعد عن أسئلته القلقة وعن ذكرياته العفنة.

12

*بن علي هَرَبْ، بن علي هَرَبْ..
يصرخ الرّجل في أحد شوارع العاصمة ليلا. يخرج صوته من جهاز التّلفاز كأنّه ينسلّ من حناجرنا. كنّا نتابع الفيديو بخوف ودهشة وانبهار وهو يصرخ أمام وزارة الداخلية "يا توانسة يا اللّي قهروكم، يا توانسة يا اللّي غبنوكم...".
الصّمت يخيم على قاعة السّجن الكبيرة التي تعجّ بالأجساد المنهوبة والأنفاس اللّاهثة والأحلام اليابسة. والرّجل يصرخ دون خوف ودون ارتباك وأنا مشدود إلى صوته القوي. لو امتلكتُ صوته لدافعت به عن أمّي عندما كان أبي يهوي على صدغها بكفّه الغليظة لأنّها لم تلتقط صوته وهو يطلب ماء. لو كانت لي هذه الصّرخة القوية لمزّقتُ بها وجه ذاك الغريب وأصابعه التي كانت تنهشني. كم أمقت أن يعبر ذاكرتي ويخرج عليّ كلما عنّ له فيُفسد مزاجي و يزيد قهري.
يدور الرّجل في مكانه صارخا "يا توانسة، بن علي هرَبْ"..
هرب الطّاغية وترك البلاد للمجهول، هرب الدّكتاتور وترك الشّعب لمهبّ الرّيح.
لا أحدي يدري ما الذي حدث تحديدا. صمت رهيب يخيم على الزّنزانة وحدس مشترك بأنّ الأمور ليست على ما يرام. تقدّم "الأخ عبد الحميد" ثمّ علا صوته:
- إلى جهنّم وبئس المصير!
ثم هتف "الله أكبر"، وأضاف بصوت يسمعه الجميع " تكبير" مع حركة من يده تستحثهم، فاستجابت الأصوات من حوله واهتزّت جنبات القاعة "الله أكبر"قوية مدوية. علا صوته في المرة الثانية "تكبير"فجاء الصّوت أكثر قوّة وتماسكا "الله أكبر" وعلا صوته أكثر في المرة الثالثة "تكبير"فزلزلت القاعةَ الكبيرة "الله أكبر"، كأنها صرخةُ رجل واحد.
بسرعة، نسي الجميع الرّجل الغاضب على شاشة التّلفاز وتعالت صرخات الغضب تكبّر على ذكر الطّاغية الذي هرب. منذ ذلك اليوم حدث انفلات كبير في السّجن! تقدّم "الأخ عبد الحميد" ثم وقف بجانب جهاز التّلفاز الذي التفّ حوله جميع السّجناء وشرع في الدّعاء:
- اللهمّ إنّا نعوذ بك من القهر ومن الظّلم ومن الفسق.
ردّ الحضور بصوت واحد "آمين". ثم قال بصوت هادئ مفعم بالثّقة في النّفس:
- موعظتنا اليوم عن العدل في الإسلام، العدل هو ميزان الله في الأرض، به يتساوى جميع البشر فلا فرق بين غني وفقير، بين حاكم ومحكوم. وحتى يتأسّس العدل حرّم الله الظّلم ودعا إلى مقاومته. يقول الله عزّ وجلّ وهو القوي القهّار في الحديث القدسي "يَا عِبَادي، إنّي حَرّمْتُ الظّلم عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتهُ بَيْنَكُمْ مُحَرّما فَلَا تُظَالمُوا.

بدأ صوته يسيطر على كلّ من في القاعة ويفرض الهدوء على الجميع فأضاف:

- عندما يبتعد النّاس عن الإسلام ولا يطبّقون شريعة الله ينتشر الظّلم ويغيب العدل، ولذلك يقول الله في كتابه "اعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا واذكروا نعمة الله عليكم" صدق الله العظيم. ابن علي - يا إخواني- ظلم الشّعب ومنع عليه إسلامه، لذلك غاب العدل في هذه البلاد وقُهر النّاس، وها هو الله ينتقم الآن للشّعب فيسكن الخوف قلب بن علي ويهرب من البلاد مثل فأر.

في هذه اللّحظة علا صوت أحد الإخوة "تكبير"فردّ الجميع بصوت واحد "الله أكبر". بسرعة، نسيتُ، أنا أيضا، صوت الرّجل المقهور الذي صرخ بشجاعة أمام مبنى وزارة الدّاخلية "العظمة لتونس والبقاء للشّعب التّونسي" وانشددتُ إلى صوت "الأخ عبد الحميد" وهو يلقي علينا دورس دينية كل مساء، بدا لي أكثر شجاعة منذ أن صرخ في إحدى زنزانات وزارة الدّاخلية "الإسلام في خطر". منذ ذلك اليوم صار "الأخ عبد الحميد" شيخَنا. تحدّث عنه بعضنا فقالوا إنّه رجل علم رغم أنّ مستواه الدّراسي لم يتجاوز المرحلة الإعدادية.

بعد هروب بن علي لا نعرف من فتح الأبواب، فهرب الكثير من المساجين من سجون كثيرة في البلاد، ولا ندري لماذا خفتت المراقبة الشّديدة علينا وأصبح بإمكاننا الاختلاط بالمساجين الآخرين، واتّسعت حلقات الدّروس الدّينية في السّجن حتى إننا استقطبنا إلينا العديد منهم، علّمناهم الصلاة وربّوا اللحى مثلنا، وانتبهت إلى أن كمال المُعلم هو الوحيد الذي ازداد انزواء على نفسه.

**"بن علي هرب" فيديو شهير للمحامي الشّاب عبد الناصر العويني، الذي تحدّى حالة الطوارئ في تونس إثر أحداث 14 يناير (جانفي) وخرج ليلا يصرخ مبتهجا بفرار ابن علي، وقد انتشر هذا الفيديو كثيرا على فيسبوك وأذيع في قنوات تلفزيونية تونسية وعربية وعالمية.*

كتبت السّاردة في كنّش لا يفارقها أنّ سيفا ابتسم وهو يتذكّر تلك الأيام الأخيرة في سجنه ولم تفسر سرّ ابتسامته إن كان حنينا أم سخرية أم ندما.؟

13

أبدا لن أنسى تلك اللحظة!
آلمني كثيرا أن يكون البيت خاليا من أمّي التي رحلت كمدا على غيبتي وحسرة على حالي الذي لم يستقم بالنّسبة إليها حين كنت منحرفا أبطش بالنّاس ولا بعد أن صرت مصلّيا أتّقي بطش النّاس، ما دمتُ في كلّ الحالات أنتهي إلى السجن.!
بعد أن أتعبتها كثيرا اعتقدت أمّي أنها اطمأنّت إلى مساري في الحياة بعدما ابتعدت عن صحبة السّوء وأعمالهم الماجنة وتُبْتُ إلى الله، لكنّها صُعقت، مثلي، حين انتهى بي الأمر إلى أخطر أنواع التّهم وهي الانتماء إلى خلية إرهابية تهدّد أمنَ البلاد العامَّ، ثمّ رُميت في أخطر السّجون.

وجدت ليلى كما عهدتها، عدا نحافة بينة ووجه مرهق. أمّا أختها ثريا فقد دخلت الجامعة وبدت أكثر حيوية وجمالا، بوجه مشرق وعينين مضيئتين وفم رسمه قلم أحمر شفاه بدقّة ليشير إلى شفتين ممتلئتين. سرعان ما أشحت ببصري عنها وقد حَشرتْ جسدها في سروال ضيق وأسدلت شعرها الحريري على كتفيها. استعذت بالله من الشّيطان حين رأيتها. لا أدري هل عيبها الشّديد أم ميزتها الكبرى أنّها تشبه لبنى، الفتاة الوحيدة التي سكنت قلبي ولم تغادره حتّى صارت تربك صلاتي في كل مرة، واستعذت ثانية من الشّيطان الرّجيم.

أحمد الله على نجاتي، فلا أحد انتظر حدوث هذه الثّورة ولا أحد آمن بخلاصنا؛ لكن ربّي على كل شيء قدير. بَكيتُ غياب أمّي وآلمني أن تموت دون أن تدري أنّي عدتُ إلى البيت بمعجزة. حدّثني أخي الكبير الهادي عن حُرقتها لسجني، وربّما لاحظ أنّي لا أتوقّف عن النّشيج إذ يذكرها، فحوّل الحديث إلى أخي الصّغير سامي، الذي يبدو أنّه لا يريد أن يكبر.

كان سامي وقتذاك في السّجن بتهمة ضرب رجل أمن في شجار بينهما ولم يصدر بعد حكم ضدّه. تألّمت لأنّه بدا مصرّا على حياة الفساد صحبة رفاق السّوء الذين اختارهم. هو أيضا يرى أنّي لم أختر الحياة الأصلح، بدليل أنّي رُميتُ أيضا في السّجن رمية كلاب!

أحضن الآن ابنتي نور التي وُلِدَت وأنا في السجن. لو كانت ذكرا كنت سأكون أكثر سعادة بها. وكثيرا ما كنت أتساءل هل ستشبه أمّها ليلى أم ستكون لها ملامحي، بحاجبين غليظين كأنّهما طائر مفتوح الجناحين؟ كانت لبنى تحبّ أن تعبث بحاجبي ويروقني منها ذلك، لكني أمنع ليلى أن تداعبني. !
لا يجب أن تتمادى الزوجة في مداعباتها، عليها أن تكتفي بدور المطلوبة دوما و إلا صعب إرضاءها وفسدت أخلاقها. أستعيذ من الشّيطان الرّجيم

وأغيّر مجرى تفكيري بأن أحمد الله على نعمة الإسلام الذي غيّر نظرتي لأشياء كثيرة.
لا يخيب من اتّبع طريق الهدى.

عند خروجنا من السّجن كانت مفاجأتي الكبرى أن استقبلنا إخوتي في الإسلام استقبال الأبطال وأبهرتني معاملتهم لنا، كأنّنا عائدون من خطوط العدوّ منتصرين. كانوا يأخذوننا بالأحضان. وجوه أتذكّرها بصعوبة وأخرى لا أعرفها، أغلبها شبابية. لعلّها أتت بتأثير الجمعيات الخيرية والخيمات الدعوية التي ظهرت بعد الثّورة واستفادت من غياب الطاغوت الذي تراخت سلطته في البلاد فانتشرت تلك الخيمات الدعوية في الشّوارع والسّاحات وأمام الملاعب والمعاهد الثانوية، ويبدو أنّها استطاعت أن تجمع أعدادا كبيرة من الأنصار والأتباع يحيطوننا بكل اهتمام ويروون عنّا بطولات!
آمنتُ فعلا بأنّنا كنّا أبطالا.!

من يمرّ، مثلنا، بتلك المحنة القاسية من لحظة القبض علينا حتّى فتح أبواب السّجن لنا في سراح رئاسي لا يمكن إلّا أن يكون بطلا. تحمّلنا الكثير من ألوان التّعذيب والإهانات وعُلّقنا طويلا من أرجلنا وانهالت علينا هراواتهم وشتائمهم وأُحرقنا بلسعات النّار واكتوينا في الزنازين الانفرادية وفعلوا بنا أشياء أخرى لا تذكر..!

كان من الصّعب، بل من المستحيل، أن أتخلّى عن هذه البطولة التي ترفعني وتردّ لي كرامتي التي مُرّغت في تراب الزنازين الموحشة. فقد شهد إخوتي في الله أنّي من الذين صبروا في السّجن، لذلك كان من الطبيعي أن ترفع تجربة السجن القاسية هذه شأني وتضفي علي هالة من الإعجاب والتقدير، خاصّة من الشباب الذين التحقوا بنا حديثا ولم يكن يليق بي أن أخذل أحدا في دور البطولة الذي وجدتني فيه.

تبّاً للشّيطان الماكر، كم بثّ فيّ سموم أسئلته المربكة وأنا في السّجن! لم يكن يحقّ لي أن أسأل في حضرة إخوة خبروا الحياة وسخّروا أنفسهم للإسلام، وها قد ثبت أنّهم على حقّ ونصرنا الله على الطّاغوت. انتبهت إلى غياب كمال المُعلم، الذي انقطعت أخباره عنا كليا منذ غادرنا السجن. حدثني صابر عنه مرة واحدة، إلتقاه صدفة وكان مارا من أمام أحد المقاهي الفخمة في البحيرة فلمحه داخلا إليه بوجه حليق وبذلة أنيقة. حياه صابر بتحية الإسلام وقال لي إن كمال بدا متفاجئا من لقائه، فرد عليه بسرعة وتعلّل بأنه مستعجل وغاب داخل المقهى الفاخر.

البلاد تغيرت، تلاشت تلك المسافة بين النّاس والسّلطة التي لم تعد مُهابة ولم يعد للبوليس نفوذه المطلق وأصبح بالإمكان نقد أي سياسي. ولعلّ هذا ما

جعل الإعلام أكثر حرّية في أفكاره وأكثر جرأة في انتقاداته. لاحظت أنّ الاحتجاجات تعمّ كلّ القطاعات تقريبا، وكأنّ سقوط النّظام قد كشف ما يعيشه الناس من أوضاع مزرية.

انتشرت الروائح النّتنة لأكوام الفضلات في كلّ الشّوارع والسّاحات، وارتفعت الأسعار فأضحت الحياة أكثر عسرا، لكنّ المُشرق في كلّ هذا هو دخول الدّعاة تونس لأوّل مرّة لنشر الإسلام من جديد. لقد أصبح بإمكانهم تقديم الدّروس في الجوامع وتلقين التونسيين أصول دينهم. وكم أسعدني أن تغصّ الجوامع بالمتابعين.

كم أثلج صدري أن أرى تونس تُفتح من جديد.!

14

يجب أن يبحث عنه، سأل عنه في السّوق فقيل له إنّه غادر منذ الظّهر ولم يعد وكان يعرف أين يجده. اتّجه إلى أطراف الحي الجنوبية المتاخمة لأرض زراعية كبيرة تناثرت فيها بعض الشجيرات المتفرّقة وأخذته الذّكريات إلى تلك الجلسات اللّطيفة، كان يجتمع رفقة أصدقاء الحي. ابتسم وهو يستغفر الله من تلك الأيام وغمغم: "ربّي لا تعدنا إلى معصية".
صحيح أنّها كانت جلسات خمرية تتعالى فيها القهقهات من نكات بذيئة تمتزج بأغان ملتاعة عن الغربة في بلاد الطّليان، وقد يبكي أحدهم أمّه لأنّه تذكّر أنه ابتزّها ذاك المساء في ثمن عُلب البيرة التي دلقها في بطنه مع رفاقه. ويحدث أن تنتهي الجلسة بخصومة بين اثنين وتسكب بقايا قارورة على الأرض شماتةً في أحدهم، وقد تُهشّم لتتحّول إلى أداة قتال وتختلط الشّتائم بالسّباب وتهتك الأنصاف السفلى للأمّهات والأخوات والخالات و لا تسلم القابلة التي ساعدت أمّ أحدهم على مخاض الولادة.. لكنّ هذه الخصومات لا يبقى لها أثر بمجرّد ما يصحو أولاد الحي من نوم ثقيل وتكون آثار الخمرة الرّخيصة قد زالت تماما.

انعرج قليلا، تابعا مسلكا صغيرا يقود إلى شجرة كبيرة لا أحد تحتها وغيرَ بعيد عنها بعض الأحجار التي كانوا يجلسون عليها. لا يهمّ، ابتسم سيف وواصل سيره في اتّجاه منحدر قاده إلى خِربة صغيرة عبارة عن كوخ متهدّم لم تبق منه سوى الجدران المتصدّعة تحمل فوقها سقفا من العيدان والحجارة الصّغيرة، فيه ثقوب تتّسع في كلّ مرّة فيتسرّب منها ضوء النّهار وأمطار الشّتاء ورياح الخريف. كانت هذه الخِربة مكانَ الرّفاق الأثيرَ إذا أرادوا الانزواء والابتعاد عن تلصّص الفضوليين. علت محيا سيف ابتسامة واسعة وهو يبصر من بعيد "ولد حدّة" يجلس وحيدا تحت جدار الخِربة وقد تناثرت أمامه بعض علب البيرّة التونسية المجيدة، كما يصفونها.
هتف سيف:
- كنتُ أعرف أنّي سأجدك هنا.!
رفع "ولد حدّة" رأسه تجاه الصّوت وعلت وجهه ابتسامة عريضة صاحبتها صيحة فرح لهذه المفاجأة، فوقف لاستقبال الضيف الذي بادره بتحية الإسلام:
- السلام عليك ورحمة الله وبركاته.
- أهلا بصاحبي، وينك يا مْعَلّم؟ الحمد لله عليك كِي خرجت.
وصل سيف إلى حيث "ولد حدّة" الذي تقدّم خطوات لاستقباله وفتح كلّ منهما ذراعيه لاحتضان رفيقه.
- الحبس للرّجال يا خويا، ما يدومْ حال، سمعت بيك خرجت وكنت جاي نسلّم عليك.
- بعد هروب الطّاغية شملني عفو عامّ، عدتُ إلى البيت منذ يومين.
أشار "ولد حدّة" إلى صخرة بجانبه يعدّونها كرسيا ومدّ له علبة بيرة:

- اقعد يا صاحبي وبِلّ ريقك.
- حاشا لله يا صديقي، تعرف أنّي ابتعدت عن هذا المُنكر بعد أن أنعم الله علي بالهداية، وربّي يهديك أنت أيضا.
- اقعد يا رجل، ما يحاسبناشّ ربّي على أربعة بيرة، ماناش قتّالين أرواحْ.
- لا.. لا.. جئت أسلّم عليك وأشكرك كثيرا على ما قدّمته لعائلتي أثناء محنتي.
- ما عملت شيء يا صاحبي، خيرك سابق.. اقعد وبلّ ريقك.
- قلت لك أنا لم أعد أشرب، تاب علي ربي، والحمد لله.
- طيب، أقعد فقط، لا يعقل أن نتحدّث واقفين.
جلس سيف على مضض ثم قال:
- الرّسول الكريم لعن شارب الخمر يا صديقي، متى يتوب عليك الله؟
- يا صاحبي، خلّيني نفرح بيك وما تردّهاش خطبة جمعة، احكيلي آش صار فيك؟ غضتنا الكلّ وخلّيت بلاصتك في الحومة.
- تجربة قاسية، لكنّ رحمة الله كبيرة والله لا يترك أحبابه أبدا، وها قد أنعم علينا بالحرية، والحمد لله.
- ما يهمّش، الحبس للرّجال والحمد لله جات باللّطف، خوذ هذه (ومدّ له علبة بيرة) وما ترجّعهاش (وأضاف ضاحكا وهو يلوّح بالعلبة) إنّها من نِعم الله علينا.
- حاشا لله، أنت تعلم أنّي تركت هذا المُنكر.
ردّ "ولد حدّة" ويده لا تزال ممدودة بعلبة سلتيا:
- لا مشكلة في كعبة واحدة.. خوذ يا راجل وما تكسّرش بخاطري راني خوك، خُوذْ.. ربّي غفور رحيمْ.
بإلحاح شديد من "ولد حدّة"، أمسك سيف العلبة بامتعاض، في حين انهمك صاحبه في إخراج علب أخرى من كيس بلاستيكي وضعه بين رجليه.

علاقة سيف بـ"ولد حَدَّة"جيدة منذ الطّفولة بحكم الجوار. كان "ولد حَدَّة" منذ صغره مشاكسا، عنيدا، مارقا عن قوانين الحي، اختبأ خلف الكنية التي تحيله على أمّه واعتاد عليها الجميع حتّى نسوا أنّ اسمه الحقيقي هو محمد. قضيا سنوات معا في مدرسة الحي وكانت لهما مقالب عديدة.
يذكر، مثلا، يوم اصطادا ضفدعة وحملاها في علبة طماطم فارغة ولمّا انهمكت المعلّمة في الدّرس أطلقا سراح الضّفدعة في القاعة فدبّ الرّعب في صفوف التّلاميذ وتعالى ضجيجهم وبدأوا يتقافزون. منهم من صعد على طاولات الدّرس ومنهم من هرب؛ أمّا المعلّمة فقد غادرت القاعة جريا من هول المفاجأة وهي تصرخ "من فعل هذا؟ من فعل هذا؟".. ولم يكن ثمّة من يملك الجرأة من التّلاميذ ليفضح محمّدا أو سيفا.

يبتسم سيف من هذه الذّكريات التي تتوارد عليه. كان "ولد حدّة" شاهدا أيضا على قصّة الحب الكبيرة التي جمعت سيفا ولبنى و أحيانا يقوم بدور "بسطاجي الحب" ويسأله عنها أحيانا وهو يغمز بمكر:

- شنوّة صاحبي، ذُقت الزّبدة ولّا مازلت؟
كان يلذّ لـ"ولد حدّة" أن يستفزّه بأسئلته الماكرة رغم أنّ سيفا كان يخبره بكل شيء، فقط كان يخفي عنه أمر ذلك الغريب وأصابعه القذرة. تغيرت سحنة سيف حالما قادته الذّكريات إلى تلك اللّحظات الغامضة مع الغريب واكفهرّت ملامحه وغرق في صمت حزين.
سأل "ولد حَدَّة"وهو ينظر إلى علبة السّلتيا مازالت في يد سيف:
- وين سرحت يا صاحبي؟ بِلْ ريقك رَاكْ ربحت عمُر جديد.
انتبه سيف إلى "ولد حَدَّة"وردّ:
- أرجوك، كفى!
- لا بأس كعبة واحدة يا صاحبي، وربّي يهدينا الْكلّ.

طال جلوس سيف إلى "ولد حَدّة". كانا يتجاذبان الحديث والذّكريات فتعلو قهقهاتهما بين الحين والآخر. عندما تناهى إلى سمعيهما آذان المغرب من جامع الحي كان سيف يمسح بقايا رغوة السلتيا من شفتيه وهو يستعيذ بالله من الشّيطان الرّجيم.

منذ ذلك اللّقاء صار سيف يتردّد من حين إلى آخر على صديق طفولته في الخِربة التي كانت تتحوّل إلى جنّة صغيرة تزدحم بذكريات الطّفولة وشغب الشّباب، ممزوجة بالطّرائف الماكرة والنّكات الظّريفة والقهقهات العالية، وقد انتشرت حولهما علب السّلتيا الفارغة.

15

سيف يستمتع بحياته بين إخوته في الله وعائلته، يقضي يومه بين العمل في السّوق وحضور الدّروس الدّعوية في جامع الحي. يروقه جدّا أن يجد نفسه مختلفا عن بقية النّاس بقلنسوته البيضاء وقميصه الأفغاني ولحيته المطلقة التي تتأرجح فيها الملائكة كما يقول " الشيخ عبد الحميد"، سيد الجماعة منذ سنوات السّجن. أمّا شاربه المحلوق فيجعل وجهه المائل إلى الاستدارة أكثر وقارا وهيبة.
أصبح اللباس الأفغاني أهمّ ما يميزه وإخوتَه في الله. كانوا يتجمّعون حول بعضهم يتبادلون الكتب والوعظ والحكايات الرّصينة، يصرّون على التلاحم، حتى أنّه يتّفق أحيانا مع نجيب وصابر، الذي تزوّج ابنة أخت "الشّيخ عبد الحميد"، فيأخذون زوجاتهم وأطفالهم إلى حديقة الملعب الرياضي في رادس وينفردون بمساحة صارت خاصّة بهم بين الأشجار. تجلس النّساء عند شجرة يتبادلن الأحاديث، وعلى بعد أمتار يجلس الرّجال، عند شجرة أخرى، أمّا الأطفال فيلهثون بين شجرة النّساء وشجرة الرّجال يتسلّقون الأولى ويتأرجحون في الثّانية.

رغم أن الآن له حياته ما زالت لبنى تعبر ذاكرته دائما فيبتسم، يحبّ أن تعلم أنّ له الآن طفلة وأنّه قد سمّاها بالاسم الذي اختاراه معا ذات لقاء جميل. يتذكّر جيدا أنّهما كانا معا على "شاطئ سيدي بوسعيد".
يتّكئ هو على صخرة تحجبه عن عيون الفضوليين وتتّكئ لبنى على كتفه ويستمتعان بأحاديث لا تتوقّف تقودهما، أحيانا، إلى بيت صغير يحلمان به. يختاران له ديكورا وينتقيان أسماء أطفالهما. أحبّت اسم "نور" لطفلتهما، قالت له تبرّر اختيارها الاسمَ:
- ستكون طفلتي نورا في حياتنا المعتمة، لقد كرهت هذا الفقر.. يوما ما سنبحر إلى روما!
أمّا هو فأحبّ اسم قيس لطفلهما، قال لها:
- لن أسمح لأحد بأن ينافسني في حبّك إلّا قيس، يا أحلى لبنى.
ويضحكان.. كعادته، يقطع سيف ذكرياته مع لبنى مستعيذا بالله.

يشعر سيف فعلا بأنّ نورا أضاءت حياته وملأتها بهجة لكن لا يستطيع أن ينكر وخزا في قلبه، مع لبنى لم يكن يعنيه كثيرا جنس المولود الذي سينجبانه، أما الآن فهو يتمنى فعلا لو كانت نور صبيا. لا يمكن أن يلوم نفسه عن تغيير أفكاره، رأي الإسلام واضح في فضل إنجاب الذكور على الإناث وهو يتذكر جيدا قوله تعالى " وليس الذكر كالأنثى " ويستحضر باستمرار قوله تعالى " الرجال قوامون على النساء" لذلك حسب سيف ان تتغير أفكاره يعني انه الآن أشد نضجا، رغم كل ذلك يستمتع بالوقت الذي يقضيه في البيت يلاعبها.

عاد من السجن ليجدها ابنة خمس سنوات، لكن لا بأس، لقد ربح عمرا جديدا كما قال له "ولد حدة" ذات مساء في خِربة الأنس، صار يستمتع بتحفيظها آيات قصيرة من القرآن الكريم ويعلّمها العدّ بالتّسبيح، يرفع لها إصبعا ويطلب أن تردّد معه: "واحد: سبحان الله"، ثم يرفع إصبعين اثنين ويشير إلى كل أصبع "سبحان الله.. سبحان الله"، ثم يرفع ثلاثة أصابع وتردّد معه "سبحان الله ثلاث مرّات". وأحيانا، ينشدان معا بعض الأناشيد الدينية، وفي اللّيل يروي لها قصّة من القصص الإسلامية الموجَّهة للأطفال.
في قصّة "الله يراني"وزّع الشيخ أربع تفّاحات على أربعة صبيان بشرط أن يأكلوها في مكان لا يراهم فيه الله. عادوا إليه ومنهم من أكل التّفاحة على سطح البيت وآخر في غرفته والثّالث في الصّحراء، أمّا رابعهم فقد عاد وفي يده التّفاحة. سأله الرّجل:
لماذا لم تأكلها؟
أجابه:
- لم أجد مكانا لا يراني فيه الله.
يبتسم سيف لأسئلة نور الطّفولية:
- هل يرانا الله في كلّ مكان؟
يجيبها:
- نعم.
تسأله ببراءة:
- هل يرانا الآن؟
- نعم، يرانا الآن.
تردّ بعفوية:
- أين هو؟ لماذا لا نراه نحن؟
يتعجّب من أسئلتها العفوية وتستعصي عليه الإجابة:
- لا يجب أن تطرحي مثل هذه الأسئلة يا نور.
ولأنّها لا تفهم إجاباته، لم تكفّ عن أسئلتها. وجد سيف في تلك الأسئلة إزعاجا له. وعندما تحوّل كُتّاب جامع الحي إلى مدرسة قرآنية استبشر سيف خيرا، فهناك ستجد من يجيبها عمّا يشاء لها أن تعلم.

لم تكن الفكرة المسمومة قد زحفت مثل دودة متعفنة إلى رأسه بعد. !

16

البيت هادئ، ليلى في المطبخ ورائحة الطعام اللّذيذة تطغى على رائحة النّدّ. نور نائمة وسيف يطالع كتابا. لم يظن قطّ أنه سيعود إلى الكتب بعد أن رماها نهائيا قبيل أن يُطرد من المدرسة في صباه. الآن أصبحت له مكتبة صغيرة لا تضاهي بالطّبع ما يملكه الإخوة، وخاصّة تلك التي يملكها "الشّيخ عبد الحميد" وجعلها شطرين، خصّص الأول لنفسه ولإعارة إخوته، أمّا الثاني فللكتب المعروضة للبيع أمام جامع الفتح في تونس العاصمة، إضافة إلى بعض العطور والملابس الشرعية للرّجال وللنّساء.

دَخَلَتْ ليلى قاعة الجلوس:

- الطّعام جاهز، هل تتناول فطورك الآن؟

أجابها سيف دون أن ينظر إليها:

- لا، بعد قليل.

ثم وضع الكتاب جانبا وأشار بيده:

- إليّ بشريط الشّيخ الإدريسي، ذاك الذي أتيت به صباحا. فيه الدّرس الذي ألقاه الأسبوع الماضي في جامع الفتح، لنسمعه معا قبل أن أعيره لصابر.

اتّجهت ليلى حيث أشار سيف وأخذت الشّريط بحنوّ كأنّها تمسك شيئا ثمينا، وضعته في آلة التّسجيل وانطلق صوت الشّيخ الإدريسي قويا يعتقد سيف أنه يمزّق كلّ جهل يغلّف القلوب الغافلة.

ما هي إلا لحظات حتّى سمع طرقا خفيفا. اتّجه سيف بسرعة نحو الباب، فيما انشغلت ليلى بوضع الحجاب. وضع سيف يده على مقبض الباب وقبل أن يديره أطلّ من "العين السحرية"، وسرعان ما بدا عليه الامتعاض وتراخت يده ثمّ عاد إلى حيث كان يجلس وأشار إلى الباب والكلمات تخرج من شفتيه معانِدة:

- إنّها أختك، افتحي لها الباب.

دخلت ثريا وقد سبقتها رائحة عطرها وحُصر جسدها في سروال "دجين" وكنزة حمراء وشدّت خصلات شعرها الأمامية بنظّارات سوداء. بابتسامة عريضة قالت:

- ع السلامة ça va*؟

ردّت عليها أختها ليلى بابتسامة مشرقة:

- عليك السلام ورحمة الله وبركاته.

Ça va (بالفرنسية) = هل أنت بخير؟

أرسل سيف نظرة خاطفة نحوها. ردّ السّلام بصوت خفيض وانشغل بتعديل صوت الشّيخ الإدريسي المنبعث من آلة التسجيل. خاطبتها ليلى بصوت مرتعش:

- كيف حالك ثريا؟ هل أمّي بخير؟

أجابت ثريا، وهي تُخرج من حقيبة يدها الصغيرة قطعة شوكولاطة:

- أمّي بخير وتبلّغك سلامها، تقول إنّك لم تزوريها منذ فترة طويلة، خذي هذه لنور، أين هي؟.

- شكرا، عزيزتي، سأزورها قريبا إن شاء الله.

ثم أضافت ليلى:

- أين كُنْتِ؟

ردّت ثريا، ونظراتها تتّجه إلى سيف كأنّها تخاطبه:

- جئت من باردو، شاركت في وقفة احتجاجية أمام المجلس التأسيسي تنديدا بما حدث في كلية منوبة.

سألت ليلى باستنكار:

- لماذا؟ ما الذي حدث؟

- لقد حدثت كارثة في كلية منّوبة، كارثة عظيمة!

صُوّبت نظرات ليلى وسيف نحوها بفضول فواصلت تقول بحماس:

- أحد السلفيين تجرّأ وأنزل العلم التونسي ليرفع مكانه تلك الخرقة السوداء* وقد منعناه.

فجأة، ارتفع صوت سيف مقاطعا:

- ماذا تقولين؟ خرقة سوداء؟ لعن الله كلّ كافر براية الإسلام وحَشَرَه في جهنّم.

ثمّ أضاف والشّرر يتطاير من عينيه:

- كيف تجرئين على قول "خرقة سوداء"؟ اسمها راية الإسلام، وقد كُتِبت عليها عبارة التوحيد.

ثمّ أضاف باستهزاء:

- إلى هذا الحدّ عَمِيَتْ قلوبكم؟ تحاربون الله -عزّ وجلّ- والرّسول الكريم؟

قالت ثريا بلهجة ثابتة:

- العَلَم التونسي رمز وطني مقدّس ولا يجب المساس به مهما يكن السّبب.

قاطعها سيف، وهو يلوّح بيده:

- بِئْسَ الرمز هذا! لا عَلَم يعلو على راية الإسلام ولا صوت يعلو على الحقّ عزّ وجلّ.

وأضاف، متأفّفا حانقا:

- أعوذ بالله من جهلكم وكفركم.

قاطعته ثريا محتجّة:

- راية الإسلام التي تتحدّث عنها كانت تُرفع فقط في الغزوات والحروب، وحسب علمي لا أنتم في غزوة ولا نحن كَفَرة.

أجاب سيف دون أن ينظر إليها:

- بل هي حرب على التونسيين الجاهلين بالإسلام، وهو فتح جديد لبلاد حكمها الطّاغوت وأعداء الله. ستستعيد الأمّة مجدها وإن كره الكارهون.

ردّت ثريا باستنكار شديد:

- ماذا تقول؟ أقول لكَ أجرموا في حقّ العلم التونسي فتقول لي كفَرة وطاغوت وأعداء الله؟

ردّ سيف بصوت بدا واثقا:

- هو كذلك، لا معنى للعَلَم التونسي ولا قيمة لكلّ الأعلام التي ترفعها البلدان الإسلامية، لنا راية واحدة هي راية التوحيد، الحدود صنعها الغرب الكافر وحافظ عليها الرّؤساء والملوك أعداء الله ليعيثوا في الأرض فسادا وجورا.

قالت ثريا، باستنكار، رافضة هذه الحجج التي بدت لها سخيفة:

- لا يعقل ما يحدث، أنتم تقسّمون بلادنا إلى مسلمين وكَفَرة، هذه فتنة كبيرة.

ردّ سيف، بحدّة وهو يرمقها بطرف عينه:

- نحن لا نقسّم البلاد وإنّما أعداء الله جعلوا الناس جاهلين بدينهم وحوّلوهم إلى كافرين، ونحن ننشر الإسلام من جديد في بلاد الإسلام.

قالت ثريا، متأفّفة وقد بدأ صبرها ينفد:

- يا إلهي، ضاعت تونس، هذا وضع لا يُحتمل، لا فائدة من الحوار معك، أنت لا تقدّر هذا الخطرَ الدّاهم من السلفيين!

ردّ سيف، بصوت أشدّ ثباتا وقد راقه أن تتهاوى ثريا أمام بلاغته وقوّة حججه:

- بل أنتِ التي لا تفهمين شيئا ممّا يحدث وتحاربين الإسلام، أنصحك بأن تتفادَي هؤلاء العَلْمانيين الكَفَرَة. عودي إلى رشدك!

أرسل نظرة خاطفة إلى كلّ جسدها، ثمّ أضاف:

- أُستري نفسك والتزمي اللّباس الشرعي وطاعة الله، علّه يغفر لك.

قالت ثريا، وهي تتّجه إلى الباب:

- قلت لك ضاعت تونس!

إنّكم تجرّون البلاد إلى الهاوية!

ثمّ التفتت إلى أختها:

- قبّلي نورا عوضا عنّي، سأعود ثانية لأراها فقد اشتقت إليها كثيرا.

**حادثة إنزال العلم في كلية الآداب في منّوبة صباح يوم 7 مارس 2012:*
إشارة إلى ما قام به أحد السلفيين أثناء تجمّع لهم وقد أحدث ذلك احتجاجات قوية في الأوساط الطلاّبية والسياسية والإعلامية!

لم تشأ ليلى أن تغادر أختها هكذا فلحقت بها متوسّلة:
- ابقي للغداء معنا، فالطعام جاهز. (تمدّ يدها لتعترض طريقها مواصلة توسّلها) أو على الأقلّ اشربي قهوة.
ردّت ثريا، بصوت خافت حتّى لا يسمعها سيف:
- بيتك لا يُطاق، ربي يصبّرك.
عندما أغلقت ليلى الباب خلف أختها كان سيف يتّجه إلى آلة التسجيل لرفع صوت الشيخ الخطيب الإدريسي، كأنّه يستنجد به حتّى يساعده على السّيطرة على الموقف فيستعيد البيت هدوءه، ثمّ قال، دون أن ينظر إلى ليلى:
- أختك هذه لم أعد أطيقها في بيتي.
وجّه نظرة حادّة إلى زوجته وأضاف:
- هل رأيتِ ما ترتدي؟ إنّها سافرة، ويبدو أنّها تصاحب العَلْمانيين، صرتُ أجدها خطرا عليك وعلى ابنتي.
ردّت ليلى، وقد أوجعها حديثه عن أختها:
- كيف تكون خطرا عليّ وأنا أعيش كما تريد أنتَ؟ وكيف تكون خطرا على ابنتنا وهي تحبّها كثيرا؟
ردّ سيف بصوت حادّ:
- لا أريدها أن تزورنا ولا أحبّ أن ترى ابنتي هذا النموذج من النّساء.
كانت كلماته طعنات في صدرها، ورغم ذلك لم تردّ. فأخذ يتأفّف بازدراء:
- أعوذ بالله من غضب الله.
حين تعوّذ سيف متأفّفا، شعرت ليلى بالمأزق الخطير الذي قد ينتهي إليه هذا الحوار المتشنّج فيعصف به ولا ترى أختها في بيتها مرّة أخرى:
- لا تزعج نفسك يا سيف، نحن نربّي ابنتنا على محبّة الله ورسوله ولن تكون إلّا كما تريد أنتَ.
أضافت، بهدوء مصطنع وهي تحوّل مجرى الحوار:
- هل أعدّ لك الغداء الآن؟
اتّجه إلى الباب وردّ غاضبا:
- لا أريد شيئا.
صفق الباب خلفه وغادر. ذهبت ليلى بسرعة إلى غرفة الجلوس. أطلّت من مشبك النافذة المغلقة على الشّارع، من الشّقوق التي يتسلّل منها الضّوء أرسلت بصرها علّها ترى أختها. كم حزّ في نفسها ألّا تستمتع بمجالستها فتحدّثها بالتفصيل عن أمّها وتضحك من طرائفها التي لا تنتهي. كم أوجعها رأي سيف فيها وهي تعتقد انه لا ينتبه مثلها إلى إشراقها في الحياة وكم يعذّبها إنْ يَصْدق تهديد سيف المبطّن ويمنع عنها أختها. دقّقت ليلى جيدا من شقوق المشبك لكنّها لم ترَ ثريا. استدارت بجسدها عائدة إلى الدّاخل. لو استرقت النّظر من النافذة دقائق أخرى لرأت سيفا يعبر الشّارع، لكن يبدو أنّها لا تحتاج غير رؤية أختها.

أرسلت نظراتها إلى الدّاخل. لم يكن هناك غير صوت الشّيخ الخطيب الإدريسي يُلْقي درسه بصوت قوي. اقتربت من آلة التسجيل وبضغطة زر

واحـــدة أخرســـته. دخلـــت، بخطـــى بطيئـــة، إلـــى غرفـــة نومهـــا ورمـــت جثّتهـــا علـــى الفراش، ثمّ تعالى نشيجها.

عنـــدما أنهـــت الســـاردة كتابـــة هـــذا الفصـــل تـــردّدت قلـــيلا وهـــي تتســـاءل لـــو كانـــت مكان ثريا كيف تراها تواجه سيفا؟

17

في حالة صدمة!

الفوضى تزحف على البلاد، عقلي في حالة عطالة وروحي مشلولة. البلاد في مخاض عسير، وأخشى أن تُنْجب مسخا.

في غفلة من الجميع انسلّت السّاردة، غادرت الغرفة وتَركتِ الرّواية. غابت هي وعدتُ أنا شاعرة من جديد، تَركتُ كتابة الرواية التي حلمتُ بها و أشعر انها تستنزفني و رحت أتحسّس قصائدي بقلب مرتجف. يبدو أنّي أتراجع عن قراري بترك الشعر وأعجز عن الغدر به أو التملّص منه. أشعر بأن علاقتي بالشعر هي علاقة حب بالأساس، ويبدو أنّنا لا نستطيع الخلاص من حبّ شكّل وجداننا. لا نستطيع أن نشفى ممّن نحبّ حتّى حين نغادره، يظل الحبّ القديم مرسوما في ذاكرتنا وعلى جدران قلوبنا، يطلّ مثل ذكرى نتدفّأ بها في ليالي الشتاء.

دُعيت إلى دار الثّقافة ابن رشيق لحضور احتفالية بعيد المرأة بصفتي شاعرة.

عيد!

كيف تعود أيها العيد.؟

عيد بلا نكات تفجّر الضّحكات ولا ألوان تصنع البهجة. أشعر بالاختناق، أرفع بصري إلى السماء فيصطدم بسقف مسرح دار الثقافة، وأتمنّى أن ينزل المطر عساه يُنعش حواسّي أو يبلّل أفكاري ويروي روحي قبل أن يسرقها الجدب، فأنتشل نفسي من هذا الفراغ الكبير الموحش.

السّاردة ليست هنا، في غيابها وجد سيفٌ فرصة التحرّر كليا من ضغوط الواقع رفقة إخوته في الإسلام: يقتفي أثر الدّعوة إلى الله في خيمات نصبوها في ساحات المدينة وأمام المعاهد الثّانوية وفي المقاهي لرصّ الصّفوف حولهم. "الشّيخ عبد الحميد" لا يفوته أمر، هو على علم بكلّ شيء. ينظّمهم ويوجّههم ويراقبهم أيضا. يقول لهم إنّ خطابهم يجب أن يتّجه إلى النّاس حيث هم وأن يستهدف على الخصوص الشّباب والمراهقين. لا يدري سيف لِمَ تخصيص الشّباب والمراهقين، لكنْ لا مجال لسؤال الشّيخ، فهو حتما على حقّ!

غابت السّاردة، فوجدت ليلى الفرصة متاحة للتخلّص من حججها الواهية فأسدلت على وجهها النّقاب وصارت تطلّ على الحياة من ثقبين صغيرين.. هذا العالم لا يستحقّ أن تكشف له وجهها بعد اليوم. لقد أصبح لها عالمها المختلف كليا عن الجاهلية التي يعيشها النّاس من حولها، وأن تتحوّل إلى "دابّة سوداء" كما يتهامسون أفضل من أن تكون سلعة معروضة للجميع. فكّرت ليلى في أن تتقرّب من زوجها أكثر، فأسدلت حجابا على رأس نور فلم تعد الخصلاتُ الصّغيرةِ الذهبيةُ تتطاير في الهواء.

صرخت ثريا، وهي ترى نور وقد غلّف رأسَها الصّغير حجابٌ:

- لماذا فعلتِ بها هذا؟ إنّها طفلة، ما معنى أن تشدّي رأسها بقطعة قماش؟
لم تجبها ليلى.
تتألّم ثريا لغياب السّاردة ولا تجد لها مبرّرا!
أنا أيضا أحتاج إلى أن تعود السّاردة علّها تضع في أوراقها حدّا لهذه الفوضى المدمّرة التي تزحف على البلاد.
في الاحتفالية بعيد المرأة في مسرح "ابن رشيق" بُرمجت الفنانة بديعة بوحريزي، ثمّ قراءات شعرية سأقرأ فيها قصائدي الجديدة.
أعرف أنّنا نحتاج إلى الشّعر دائما حتّى في أحلك الظّروف، لكنّ مسرح ابن رشيق كان صحراء قاحلة يملؤها الفراغ. إنّها تعجّ ببشر يتحادثون ويبتسمون ويغنّون ويصفّقون غير مدركين أنّ البلاد على حافّة هاوية وأنّ المرأة التي نحتفل بعيدها تطلّ على قبرها من جديد. شعرت بالاختناق وغصّ حلقي بسؤال حارق: هل صارت المرأة في بلادي مهدّدة حقّا؟
وددت أن أبكي خيبتي ولم أحبّ أن أقرأ قصائدي في هذه الصّحراء.

أعترف بأنّني كنت محبطة لكنّني لم أكن أهذي. لقد لمحت سيفا يمرّ للحظة أمامي، نعم إنّه هو. قال وهو يشير إلى الجموع في المسرح "موتوا بغيظكم، أيها العلمانيون الكَفَرَة!". كانت الكلمات - وهو يشدّ على أسنانه- تخرج متقطّعة لكنّها حادّة تقطّع أوصالي.
على الرّكح، كانت الفنّانة بديعة تغنّي وصوت الكمنجة يأتي متوجّعا، ملامسا أوتار روحي المتقطّعة فأغصّ بالدّمع. أشعر بشيء حارق في حلقي يدميني، وخلف الحشود ألمح ليلى ترسل نظراتها من ثقب النقاب إليّ بكلّ شماتة ثمّ تخلّفُ - وهي تغادر- قهقهةً مدوّية تفزع لها كلّ حواسي، فأصرّ سأقرأ قصائدي.
تزحف الفوضى على البلاد وتبعثر ما بقى من أزهار وأغنيات وتتلوّى الموسيقى في جسد الكمنجة حزينة موجوعة مثل أحلامي الهزيلة . كم أتمنّى أن تعود السّاردة من شرودها، أن تفيق من صدمتها، أن تأخذ قلمها وتستعيد الحياة وترسلها من جديد في أوراقها.
ما ذنبي أن تتحرّر الشّخوص من قبضة السّاردة وتلاحقني بنظراتها القاسية.؟

على السّاردة أن تعود إلى أوراقها وتتحكّم في خيوط سردها فتسيطر على شخوص روايتها تماما كما يجب علي أن أنهض الآن.
أحبّ أن أنهض وأتخلّص من هذه الجثّة التي أشعر بأنّي محبوسة داخلها. أريد أن أستعيد جسدي الرّاغب في الحياة. أحب أن أكون هناك مع صديقتي في مقهى هادئ على شاطئ حلق الوادي أتلهّى بفكرة ممكنة قد تكون منفذَ قصيدةٍ.
سأكتب، وعندما تستوي القصيدة كونا مكتملا سألكز صديقتي بمرفقي لأجعلها تنتبه إليّ ثمّ سأقول لها:
- استمعي إلى هذه القصيدة، أحبّ أن أعرف إن كانت متوهّجة كما أحبّ؟

ســتكون منشــغلة عنّــي برجــل أنيــق يجلــس وحــده فــي المقهــى، وعنــدما تلتــف إلــي ستسرد، كعادتها، نكتة بذيئة.!

18

يحبّ سيف أن يقوم بإشهار مجاني في السّوق فيرفع صوته قائلا "المدرسة القرآنية أفضل من كلّ رياض الأطفال العصرية". ويضيف، كأنّه يصرخ "إنّها البيئة الصّالحة التي يمكن أن ينشأ فيها الأطفال وفق تعاليم ديننا الحنيف".

كان أغلب النّاس حوله يتحسّرون على "زمن بن علي"، مضيفين أنّ "القفّة"كانت في متناولهم وأنّ "الزوّالي كان يقدر يعيش"، فإنّ سيفا يشكر المولى كلّما تذكّر أنّ الطّاغية قد رحل فخرج هو من السّجن ونَعِم مع إخوته بثمار الحرية التي أتت بها الثّورة كما ابتهج مثلهم بتعويض ماليا محترما مقابل سنوات سجنه وصاروا يجتمعون في المساجد متى شاؤوا، بل حوّلوها إلى حلقات للذّكر وأمكنة للتهجّد وفضاء للدّروس الدينية العامّة ومركز لاستقطاب النّاس من حولهم.

(تردّدت الساردة كثيرا في استعمال لفظ "استقطاب" فغيّرتها بـ"هداية"، ثم أثناء مراجعة الرواية عادت واختارت "استقطاب !")

يأخذ سيف كلّ صباح ابنته نورا إلى المدرسة القرآنية ويبتهج عندما تصله أصوات الصّغار يقرؤون آيات من القرآن ويعرف أنّهم، بعد ذلك، سيصدحون بأذكار الصّباح.
هذا المساء تختتم السّنة الدراسية. جلس سيف وليلى سعيدين في الصفّ الأمامي. يبدو سيف مبتهجا وهو يرى المدرسة القرآنية تحقّق نجاحا كبيرا في حيهم مثلما تنجح الخيمات الدّعوية التي ينصبها إخوته في الله وسط السّوق وأمام المقاهي والمعاهد الثانوية في رصّ صفوف الناس من حولهم.

"الأخت مريم"هي المعلّمة التي تستقبل الأطفال بابتسامة هادئة وتنظّم جلوسهم، الذّكور إلى اليمين والإناث إلى اليسار، لتبدأ بعد ذلك الحصّة بتحفيظ سور من القرآن الكريم، ثمّ ترديد أذكار الصّباح بصوت جماعي. يحدث، أحيانا، أن يسبق صوت أحد الأطفال أصوات المجموعة ويلحق بها آخر فتطلب "الأخت مريم" من الأطفال إعادة الأذكار حتّى تنتظم أصواتهم. وما إن تتأكّد من أنّهم قد حفظوا المطلوب حتّى تبدأ حصّة القراءة بكتاب خاصّ بحياة الأسرة المسلمة، فيه الأسماء عربية والأمّ بلباس شرعي والأب بقلنسوة تغطّي رأسه وزي أفغاني، وبهذا يتعلّم الأطفال آداب العائلة المسلمة.
كان سيف يثني على هذا الكِتاب ويشير إلى صوره مخاطبا زوجته:
- أليست هذه الصّور المحترَمة أفضل من العراء الذي يعلّمونه للأطفال في مدارس العلمانيين؟
في الحصة المسائية كانت ليلى تعود بطفلتها من المدرسة وتبتهج وهي تقول إنها تستطيع أن تتبين صوت نور من جملة أصوات الأطفال وهم يستهلّون

حصّتهم ثانية بسور من القرآن الكريم وأذكار المساء. كانت تعرف أنّ "الأخت مريم"، كما يحبّ الجميع مناداتها، تخصّص الحصص المسائية لسرد قصص القرآن ثم تحفيظ أحاديث الرّسول الكريم. أمّا الحساب فكانوا يتعلّمونه بالتّسبيح وتعداد ركعات الصّلاة. تخبر ليلى سيفا بذلك فيبتسم وهو يردّد إنّهم بهذا يضربون عصفورين بحجر واحد: يتعلّم الأطفال الحساب والعبادة، ويعلن متفاخرا:

- هذا هو التّعليم الحقيقي!

ثمّ يضيف ساخرا:

- يقولون روضة أطفال عصرية.. هههههه بماذا يمكن أن تفيد روضة الأطفال؟ لا تعلّمهم غير الاختلاط والعادات السّيئة وليست الا لهدر الوقت.

ما زال سيف وليلى يجلسان في الصفّ الأمامي. بدأ النّاس يتوافدون باحتشام على المكان، الجدل قائم بين من يفضّل المدارس القرآنية ومن ينحاز إلى رياض الأطفال العصرية. حضر سيف باكرا إلى المدرسة القرآنية "الجيل الذهبي"، كان من حين إلى آخر يلتفت لينتشي بمنظر القاعة وهي تمتلئ تدريجيا بعائلات التّلاميذ.

على المنصّة انقسم الأطفال قسمين منفصلين، الذّكور في جانب وقد لبسوا جميعهم قلنسوات وارتدى بعضهم زيا أفغانيا، في حين كانت الإناث في الجانب الآخر وقد ارتدت أغلبهنّ حجابا. كان سيف يردّد بفخر "سبحان الله، ماشاء الله"، وهو يتابع الأطفال يتلون القرآن ويصدحون بأذكار جميلة منعشة ويمثّلون بعض المشاهد المسرحية التي تنتصر لقيم الدّين الحنيف. كانت ليلى تلتقط صورا للحفل لتريها لعائلتها لاحقا. تمنّت لو كانت أختها ثريا هنا لكنّها تعلّلت بظروف تمنعها، وأدركت ليلى أنّه مجرّد تبرير حتّى لا تلتقي سيفا لأنّها تعرف أنّ حضورها يزعجه لكن - هذه المرّة- وعلى عكس ذلك كان سيف يرغب في حضور ثريا حتّى يفاخر بأنّ المدرسة القرآنية ليست تعليماً موازيا كما تقول، بل هي التّعليم الحقيقي. كان يحبّ أن ينتقد رياض الأطفال فيتحدث عنها "تلك التي ظهر بالمكشوف أنّها بلا قيمة حقيقية".

في آخر الحفل سلّم "الأخ كمال"، مدير المدرسة، الأطفال الشّهادات. ابتسم سيف وهو يرى طفلته تتقدّم بخطى صغيرة لتتسلّم شهادتها مع قصّة مصوّرة من قصص الإسلام هي جائزتها، فهمس لنفسه: "ربّي احفظها وأبعد عنها كلّ أذى، ربّي بارك لي فيها واجعلها من عبادك الصّالحين". ودون سبب برقت لبنى في ذهنه. كان يمكن أن تشاركه هذه اللحظة. همس لنفسه "ترى أين هي الآن؟ وماذا فعل بها الزّمن؟".

لم تخرجه من خياله سوى لكزة ليلى قائلة:

- أنظر كم هي سعيدة ! اللّهم باركها وبارك لنا فيها.

ابتسم سيف وهو ينظر إلى ليلى ويفكّر في لبنى!

19

لم يكن سيف في البيت. ذهب في "خرجة" مع إخوته في الله لمدة عشرة أيام إلى الجبال للابتعاد قليلا عن مجتمع الفساد والضّلال، كما يحبّ أن يسمّيه، وتصفية ذهنه من شوائب الدّنيا بالتعبّد وقراءة القرآن وتمرين الجسد على بعض الحركات الرياضية الدفاعية لتعويده على الصّلابة والصّبر عند الشّدائد، عملا بقول الرّسول الكريم "اخشوشنوا فإنّ الحضارة لا تدوم".

استغلّت ثريا تلك الفجوة لتنفض عن البيت رتابته وصمته الباهت. أخذت معها علبة قاطو وبعض الزّينة. فوجئت ليلى - وهي تفتح الباب- بثريا محمّلة بكلّ ما يلزم الحفل:

- هذه المرّة سنحتفل بعيد ميلاد نور، لا يمكن أن تمرّ سنتها السادسة أيضا دون احتفال.

نفخت ثريا البالونات الملّونة وكوّمتها على الطّاولة. كانت نور ترميها وتعود لتلاحقها، والبالونات ترتفع قليلا عن الأرض ثم تسقط ببطء. التقطت ثريا البالونات وعلّقتها في أماكن مختلفة، في الثريا التي تتوسّط سقف الصّالة وفوق التلفزيون وعلى رفوف المكتبة الصفراء، وجعلت أخرى تتدلّى من النافذة الوحيدة المغلقة دائما.

أنهت ترتيب الطاولة التي تصدّرتها قطعة قاطو كبيرة كتب عليها بالشوكولاطة اسم "نور" وأحاطت بها كؤوسا وصحونا صغيرة.

أدارت ثريا من حاسوبها المحمول أغاني أعياد ميلاد وأخذت تراقص نورا وتتمايل طربا، وليلى تبتسم، محاولة محاكاة ابنتها في حركاتها الصّغيرة. كان الحفل صغيرا ومرتبكا؛ كأنّ الفرح يدخل البيت على استحياء. صحيح أنّ عيد الميلاد خال من الضّيوف ومن صخب الأطفال لكن لا بأس، يكفي أنّه أشعّ السّعادة في قلب نور وهي تحيي، لأول مرّة، عيد ميلادها. قدّمت لها ثريا أجمل هدية ممكنة لطفلة باربي كبيرة بيضاء ترتدي فستانا، عيناها زرقاوان وشفتاها مكتنزتان ورديتان وشعرها أصفر حريري. كانت سعادة نور كبيرة بهديتها الوحيدة التي أصبحت تلازمها، فتستحمّ معها وتمشط لها شعرها وتجلسها على ركبتيها، بل تدسّها معها في الفراش ليلا. كأنّ نورا وجدت أنيسة لها في البيت تحادثها وتضاحكها، تغضب منها وتعود لتصالحها.

ارتبكت ليلى وهي تتذكّر سيفا. تحبّ أن تحتفي بابنتها، فهي أفضل ما حدث لها في هذه الحياة، لكنّها لا تحبّ أن تغضب زوجها، الذي يعدّ أعياد الميلاد بدعة ودمى الأطفال محرّمة.

***

بعد أيام قليلة،
أدار سيف المفتاح ودخل. كان يبدو عليه الإعياء. هرعت نور إليه منادية "بابا.. بابا". لم تترك له فرصة إلقاء تحية الإسلام على البيت. نظر إليها في دهشة فارتمت عليه مبتهجة وهي تصرخ من الفرح. مسكها ونظر إلى يدها الصّغيرة التي تطوّقه ممسكة دمية باربي. تجمّد في مكانه وهو ينظر إليها مصدوما، ثمّ صرخ في وجهها:
- ما هذه التي في يدك؟
كانت صرخته كافية لتأتي ليلى مسرعة من المطبخ وقد امتقع وجهها وتسارعت ضربات قلبها، ها قد حدث ما تخشاه!
صرخ سيف في وجه طفلته ثانية:
- قلت لك ما هذا الذي في يدك؟
أربك صراخه الشّديد نورا فشدّت الدّمية إلى صدرها خائفة، التفت سيف إلى زوجته صارخا:
- ما هذا الشّيء الذي تحمله الطفلة ؟
بلعت ليلى ريقها بصعوبة متظاهرة بالابتسام:
- ألق تحية الإسلام أوّلا يا سيف.. السّلام عليك ورحمة الله وبركاته ومرحبا بك في بيتك.
ازداد غضب سيف فألقى نور بعنف على الأرض، كأنّه يتخلّص منها، وعلا صوته:
- قلت ما هذا الشّيء؟ ومن أتى به إلى هنا؟
- أنت تعرف أنّ أختي ثريا تحبّ نورا كثيرا، أقامت لها حفل عيد ميلاد لم نكن فيه سوى نحن الثّلاثة وأهدتها تلك الدّمية.
رمى سيف حقيبته العالقة بظهره على الأرض واقترب من ليلى صارخا:
- ماذا؟ عيد ميلاد في بيتي؟ أهذا ما تفعلينه في غيابي أيتها الملعونة؟
كان الشّرر يتطاير من عينيه والبصاق يتناثر من فمه:
- أهكذا تحفظين شرفي أيتها البائسة؟
خطف الدّمية من حضن نور وهو يلوّح بها في الفضاء:
- هل بلغ بها الأمر أن تأتي بدمية إلى بيت يُتلى فيه القرآن؟ ثّم إنّها دمية سافرة، أتعلّمي ابنتي الفجور؟
ردّت ليلى مرتبكة:
- لمَ كلّ هذا الغضب يا سيف؟ لا يستحقّ الأمر كلّ هذا الصّراخ.
كانت ليلى قد رمت لهبا في البيت، بسرعة لوى سيف رأس الدّمية ففصله عن جسدها، ثم سلّ يديها وهو يصرخ:
- أتعدّين دمية سافرة في بيتي عملا هيّنا أيتها الغبية؟

لـم يتطلّـب منـه الأمـر جهـدا كبيـرا. بيسـر، سـلّ رجلـي الدّميـة، ثـم شـرع يرفسـها بقدمه. هرعت نور إلى أمّها في رعب شديد، شدّتها من ثوبها وصرخت باكية:

- ماما، ماما، أريد دميتي!

دفعها سيف بشدة فارتطمت بالأرض وعلا صراخها.

لـم تكـن نـور تعـرف أنّ أيـام سـعادتها بـدميتها سـتكون قليلـة ولـم تكـن ليلـى تتصـور أنّ سـيفا سيغضـب إلـى هـذا الحـد مـن حفـل عيـد المـيلاد وأنّـه سـيتحوّل إلـى ثـور هائج عندما يرى الدّمية باربي.

هتفت ليلى:

- أهكذا تفعل بطفلتي؟

لـم يعـد الصّـبر مجـديا مـع ليلـى ولـم يكـن بالإمكـان إسـكاتها سـوى بصـفعة مدويـة على خدّها. تراجعت إلى الخلف من شدّة الصدمة وغصّت بصرختها.

- هـل تقبلـين أن يـدخل الحـرام بيتـي؟ منـذ اليـوم لا أريـد أن تزورنـا أختـك. أخبريها ألّا تأتي ثانية. لن أقبل أبدا أن تعلّم ابنتي الاستهتار والسّفور.

اتّجه سيف صوب غرفة نومه مواصلا أوامره:

- أسكتي طفلتك، لا أطيق صراخها ثمّ أضاف (وهو يشير إلى أشلاء الدّمية):

- ارمي هذه خارج البيت.

كانـت فرصـة رائعـة منحـت سـيفا مبـرّرا قويـا لمنـع ثريـا مـن بيتـه، فهـي السّـافرة والعلمانيـة التـي تعـادي الإسـلام، ثـم إنّهـا تـذكّره بتلـك التـي تسـكن وجدانـه. أمّـا ليلـى فكانت إهانتها شديدة وهي تُضرَب أمام طفلتها وتبكي مثلها.

كلّمـا تـذكّرت ليلـى تلـك الحادثـة تحسّسـت أوصـالها، كأنّهـا دميـة بـين يـدي سـيف. أمـا نـور فقـد كانـت تلـك الـذّكرى غائمـة فـي ذهنهـا، فكـلّ مـا تـذكره هـو أنّ أباهـا رفـس الدّميـة الوحيـدة التـي امتلكتهـا، أمّـا بقيـة تفاصـيل ذلـك الحـدث فقـد ذابـت. مـن الأفضـل فعـلا أن تنسـى أجـواء عيـد ميلادهـا الوحيـد وأن تنسـى هـذا الجـرح فـي ذاكرتها الذي سبّبه أبوها، لأنّه سيفعل بها ما لم يفعله يوما تونسي بطفلته.

20

لم تغادر ليلى غرفتها. كانت مستسلمة للصّمت المنتشر في المكان، الشّبيه بالصّمت القابع في أعماقها. تشعر بأنّها جثّة ملقاة بإهمال، كلّ شيء فيها ساكن، كلّ شيء باهت مثل حياتها. بسرعة، انتبهت إلى نفسها قبل أن يأخذها التّداعي إلى حيث لا تحبّ، "أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم" همست لنفسها بصوت خفيض، علّ غيمة الكآبة التي تحيط بها تنقشع. تنزعج ليلى كثيرا من كلّ ملحوظة يبديها سيف عن أختها وإن كانت بعض ملحوظاته تبدو وجيهة، فهو متدين وأختها سافرة.

هكذا كانت تبرّر لنفسها الأمر ثمّ تضيف:

- اللّهم أصلح القلوب والأعمال.

من فضائل الفوضى التي عمت البلاد استقبال الدّعاة والشّيوخ لإعادة فتح تونس وتجديد إسلامها بعد أن استبدّت بها جاهلية القرن الحادي والعشرين. تابع سيف وليلى كلّ الحلقات الدعوية والدّروس الدينية التي ألقاها كلّ الدعاة الزّائرين، مثل زغلول النجار ومحمد هداية ومحمد موسى الشريف وحسان الدبّاغ... كانت مهمّة الدّعاة والشّيوخ محدّدة: أن يعلّموا التونسيين دينهم الحقيقي.

الدّعوة إلى هذا الدّين الرّحيم ركن أساسي والجهاد يبدأ بجهاد النّفس ضدّ شرورها وينتهي إلى الجهاد بالسّلاح ضد الطّاغوت والمرتدّين. كان حماس سيف لهؤلاء الدّعاة والشّيوخ شديدا.

دخل سيف في الصّباح مقهى الحي. تحدّث مع صاحبه قليلا، ثمّ رفع صوته ليسمعه الجميع:

- السّلام عليكم، ربّي اهدنا الصّراط المستقيم ولا تزغ قلوبنا بعد أن هديتنا إنّك على كلّ شيء قدير. إخوتي الكرام، هذا المساء في قصر المؤتمرات بالعاصمة سيلقي المفكّر الإسلامي طارق رمضان درسا دينيا، لن تخسروا شيئا إذا ذهبتم إلى هناك، ستسمعون كلاما لم تسمعوه من قبل عن ديننا الحنيف. لقد آن الأوان لنواجه ردّة هذا العصر، التي انتشرت فجعلت بلادنا تبتعد عن طريق الله.

راقه أن ينتبه إليه الجميع، حتّى النّادل توقّف عن تحريك الجمرات الصّغيرة في صحن النارجيلة ليتابعه بانتباه. شجّعه ردّ فعلهم فأضاف:

- طارق رمضان حفيد حسن البنا، وهو من أهمّ دعاة الدّين الإسلامي. ورغم أنه يعيش في سويسرا فإنّ الحياة لم تغرّه، فكرّس حياته للدّعوة الإسلامية. تعالوا هذا المساء ولن تخسروا شيئا.

كان سيواصل لولا تنحنح عبد الكريم، صاحب المقهى. نظر إليه سيف شاكرا سماحه له بهذه الدّعاية في مقهاه ورفع يديه:

- اللهم سهّل رزق صاحب هذا المحل، ويسّر أمره واغفر لنا وارحمنا إنّك عفوّ رحيم.

ثم غادر المقهى.

اقترب موعد خروج نور من مدرستها. غادرت ليلى الفراش بتثاقل. نظرت حولها بفتور وعندما همّت بالمغادرة غطّت رأسها ووجهها وقذفت نفسها في الشّارع. كانت كتلة سوداء تنظر إلى العالم من ثقبين صغيرين وتجرّ جلبابها الفضفاض حاثّة الخطى نحو المدرسة.

أمام الباب الكبير المخصص للتلاميذ انزوت وحيدة قرب السّور، قبل رنين الجرس بلحظات اقتربت منها امرأة اعتادت أن ترافق طفلتها هي الأخرى وخاطبتها بتردّد:

- إن سمحتِ، أريد أن ألفت انتباهك إلى أنّ جلبابك طويل يجُرّ أوساخ الشّارع، ما يجعله غير طاهر.

أجابتها ليلى دون تردّد:

- قبل أن تنصحيني أحسني إلى نفسك ولا تغادري بيتك سافرة.

ذُهلت المرأة، كانت تنتظر ردّا أكثر لطفا، أجابت بصوت حاولت أن تتمالكه فكان يصل خافتا وبطيئا:

- أنا امرأة عادية، وهكذا أحبّ أن أكون.

في هذه اللّحظة رنّ الجرس وأنقذ المرأة من ذهولها، فتراجعت وشعرت ليلى بانتصارها. ابتعدت المرأة محمّلة باستيائها، في حين شعرت ليلى بنخوة لقدرتها على دحر الأعداء. كانت تلمح من خلف الستار نظرات فضول الكبار وتنتبه أحيانا إلى فزع الأطفال منها فتهمس لنفسها "لا بأس، سيعتاد النّاس رؤية المنقّبات". كان اختلافها يزيدها اعتزازا بنفسها. إنّها تتميز عنهنّ جميعا بإيمانها وصبرها على الشّدائد، وستفوز عليهنّ برضى الله وجنّاته.

بين حشود التّلاميذ بحثت عن طفلتها التي تجعلها تتحمّل الحياة. كاد يغمرها اليأس بعد زواجها. انتحبت لربّها كثيرا ليرزقها طفلا يغرسه في أحشائها وتحمّلت الكثير من تقريع حماتها، وكأنّها وحدها المسؤولة عن الإنجاب، ثمّ أتت نور وكانت نوراً حقيقيا، كانت تشعّ في حياتها فتجعلها مشرقة وجميلة تستحقّ أن تُعاش.

في طريق العودة أمسكت ليلى يد طفلتها، حثّت الخطى نحو البيت ومرّت أمام جامع الحي حيث اعتادت أن تجد سيفا الذي يمضي الصّباح يبيع الغلال في السّوق والمساء أمام الجامع يبيع سلعه من كتب صفراء وأعواد أراك ومراهم نباتية وأزياء "شرعية". إنّه ليس هنا أين تراه يكون؟

هذه المرّة أيضا كان حدسها صادقا، هناك مصيبة غيّبته!

21

مضى من اللّيل جزء يبدو طويلا. غطّت نور في نوم هادئ، أمّا ليلى فلا تزال تنتظر زوجها قلقة.
تُرى ما الذي أخّر سيفا عن بيته؟ هذا المساء ليس له درس ديني ولا حصّة تجويد؟ حتّى هاتفه لا يجيب! اشتدّ بها القلق، فانشغلت بقراءة ما تيسّر من الذّكر الحكيم وبين السّور الكريمة تطلق حفنة من الأدعية، متضرّعة لله أن يرعى زوجها فيعود إليها سالما.

بعد الثّورة، تحرّرت المجموعات الإسلامية من قبضة بن علي الحديدية وأصبحت تُعلي صوتها وتعدّ الإسلام الحلّ الوحيد للبلاد والعباد وتدافع عنه بالخيمات الدعوية التي تزرعها في أماكن مختلفة. أيمكن أن يعتقل زوجها ثانية؟ كم تخشى أن يحدث ذلك!
تآكلها جمر الانتظار ولم يكن حدسها ينبئ بخير.

في حدود منتصف اللّيل تقريبا، أدار سيف المفتاح ودخل، بدا غريبا بملامحه الحزينة ونظراته الزّائغة. حياها ببرود:
- السّلام عليك ورحمة الله وبركاته.
قفزت ليلى من مكانها وصوتها يسبقها:
- وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، ما بك ؟ ما الذي أخّرك؟
بخطى ثقيلة تقدّم مجيبا بصوت خفيض:
- لا شيء.
أدار بصره في أرجاء البيت، ثمّ اقترب من غرفة صغيرته وأطلّ برأسه:
- نائمة؟
أجابته، وقد زاد قلقها:
- طبعا، قل لي ما بك؟ ما الذي أخّرك؟
ألقى جسده الثّقيل على أوّل كرسي، وبأنفاس متقطّعة حاول الردّ:
- لا بأس، لا بأس.
أفزعتها طريقته في الخطاب:
- غير صحيح، أنت على غير عادتك.. قل لي هل أصابك مكروه؟
رمقها بنظرة قاسية خلعت قلبها من مكانه:
- أنت تقتلني يا سيف، أجبني، ما بك؟
اقتربت منه وشدّت كتفه:
- ماذا ألمّ بك؟ لماذا تنظر إليّ هكذا؟
وجّه نظرته القاسية إلى يدها المعلّقة على كتفه، فسحبتها بسرعة. قالت كأنّها تستجديه:
- ما بكَ يا رجل؟ ما الذي حدث؟

- الأنثى قرينة الشّيطان وبلاؤها عظيم.!
ثمّ أضاف حانقا وهو يضرب كفّا بكفّ:
- تلك السّافرة الكلبة ابنة أخي...
قاطعتْه، كأنّها وجدت رأس خيط لوجومه وقلقها:
- من؟ هيفاء، ما بها؟ ماذا حدث لها؟
خرج صوته حادّا من بين أسنانه الغليظة:
- العاهرة، منذ البارحة لم تعد إلى البيت. عائلتها وجيرانهم والطاغوت فتّشوا عنها ولم يعثروا لها على أثر. غادرت إلى المعهد صباحا ولم تعد.
ضرب كفّا بكفّ وارتفع صوته:
- تصوّري، إلى الآن لم تعد.!
ألجمت المفاجأة لسان ليلى فتراجعت خطوة إلى الوراء وضاع منها الكلام، ثمّ دون أن تعي، خانها صوتها معلنا تعاطفها:
- مسكينة!
قاطعها صوت سيف حادّا وعاليا:
- مسكينة! بل مسكين أبوها، كيف سيواجه النّاس؟ مسكين أنا، كيف سألاقي إخوتي في الله؟ الكلبة مرّغت رؤوسنا في التّراب، لقد قتلتنا. إنّها تستحقّ الموت، لقد وصمتنا بعار لن ينسى.
رفعت بصرها مرتبكة من صراخه الشّديد وقالت بصوت مرتعش:
- نعم، إنها فضيحة لا تُغتَفَر!
ثم سألته بصوت واجف:
- لكن كيف فَعَلَتْ هذا؟ كيف رضيت لنفسها بهذا؟
قاطعها دون أن يكلّف نفسه عناء انتظار انتهاء أسئلتها:
- هاتِي ماء.
مدّت له إناء الماء بيد مرتجفة تلبّست صوتَها المرتعش الذي يرشح بأسئلة قلقة. بسمل ثمّ عبّ من الإناء ثلاث جرعات كبيرة فسالت على جانبي لحيته الكثّة خيوط الماء وقال:
- انتبَهوا إلى غيابها آخر النهار عندما لم تعد، فتّشوا عنها كامل اللّيل في مراكز الطّاغوت والمستشفيات وعند صديقاتها، تكتّموا على الخبر حتّى لا ينتشر في الحي وعند الأقارب، واليوم يئسوا من عودتها. هاتفني أخي مساء وأعلمني بالكارثة. أخبرتهم صديقة مقرّبة بأنها رحلت مع أحد الشبان كان يتردّد عليها في المعهد.
أضاف، بعد زفرة عميقة:
سافرت معه عند عائلته في الجنوب!

تَذَكّر لبنى. كعادتها، تتسلّل إلى ذهنه في كلّ وقت، حتّى في مثل هذه الأحداث العصيبة تذكّره بنفسها. صحيح أنّه كان يتردّد عليها أمام المعهد لكنّه لم يأخذها إلى بيته يوما. كان يكتفي بهرشها في الأزقّة الخالية، ومرّات قليلة،

لذيذة، في ظلام قاعات السينما. الآن يريد أن يلقيها خارج ذاكرته ليفكّر في مصيبة اسمها هيفاء.
مزّق سؤالها صمته:
- هل توصّلتم إليه؟
أجاب بحركة من رأسه "نعم" ثم أردف:
- جعلنا صديقه الذي يعمل معه في محلّ البيتزا يتّصل به هاتفيا فأخبره بأنّه تزوّج هيفاء اليوم.
صُعِقت ليلى وتلعثمت:
- يا إلهي، تزوجها اليوم؟ هل هذا صحيح؟
- وهل من عادتي أن أكذب؟
- لا أقصد ذلك، لكنّ هذا أعظم من أن يصدَّق.
وتابعت، بصوت واجف:
- مسكينة، كيف غرّر بها وجعلها ترتكب هذه الحماقة؟
صرخ، والبصاق يتناثر من فمه:
- بل نحن المساكين، كيف تفعل هذا بنا؟ لو وجَد منها صدّا ما فعل، ولكنّ الكلبة هرشتها الرغبة ففتحت ساقيها لأوّل عابر.
بدت له فرصة ملائمة فأضاف:
هناك حِكمة في فضل الذكور على الإناث، هنّ أقل دينا وأقل عقلا وأقل عفّة. .!

عَبَرَتْ لبنى ذهنه بصورة خاطفة، فأخذ يتمتم "أستغفر الله، أستغفر الله".

أمام هول الحدث وغضب زوجها الشّديد كان يجب ألّا تقاطعه وألّا تزيد غضبه بجدل قد يستفزّه فخير ما تفعله - وفق الكتب الصّفراء التي يأتي بها زوجها- هو أن تتراجع قليلا وتدعو له، لذلك كانت تتراجع بخطى صغيرة وهي تقول "الله يوفقك، الله يحفظك، أسأل الله أن يغفر لك ويثيبك على صبرك"، وقلبها يرتجف ممّا قد يفعله زوجها.!

22

المساء منعش والهواء رطب، انطلق آذان العصر يوقظ القلوب المؤمنة.
ألقَيتُ - كعادتي- لحافا كبيرا على صناديق الغلال وأسدل صابر -كعادته أيضا- السّتار الحديدي على باب دكانه إلى ما تحت النّصف بقليل، إشارة إلى أنّنا نؤدّي الصّلاة في الجامع الكائن على بعد بضعة أمتار وتظلّ عيون زملائنا التجّار، الذين لم يسكن الله قلوبهم بعدُ، تراقب بضاعتي والدكّان.

كنت أحثّ الخطى في اتّجاه الجامع، أسابق الآذان عندما اقتربت منّي سيارة جميلة غريبة عن الحي. كان لونها الأسود يلمع تحت أشعّة الشمس كأنّه يضيء. وكعادتي، التي لا أريد أن أعترف بها، تطلّعت إلى داخل السيارة التي كانت تسير ببطء، وسرعان ما عادت بي الذّاكرة إليها.. أتكون هي؟

على عجل، لحق بصري لوحةَ السيارة المنجميةَ، إنّها أجنبية تحمل الرّمز الإيطالي! ارتعش قلبي.. أتكون هي؟
توقّفت السيّارة أمام محلّ الخياطة على بعد أمتار منّي فتسارعت دقّات قلبي: أتكون هي؟
فُتح بابها. عقلي يشكّ وقلبي يراها جازما أنّها هي.. وأطلّت..
يا إلهي، إنّها هي!

كأنّ السّنين لم تمرّ عليها، هي نفسها، بجسدها الممشوق وشعرها المتناثر، كأنّي أسمع ضحكتها الآن وهي تدسّ رأسها في صدري، كأنّي أشمّ رائحتها وأنا أضمّها إلى قلبي.
لم أهتمّ لصابر، الذي تركته يسرع الخطى نحو الجامع، ووجدت نفسي أوسّع الخطى في اتّجاه السيارة. اقتربتُ منها بما يكفي. الآن كلانا على رصيف الطريق، لم تبقَ غير بضع خطوات لأصل إليها، لحق بها قلبي وقد فاض شوقا.

لم أشعر بكلّ ما يدور حولي، فقط قدماي تتّجهان صوب السيارة، كانت لُبنى تتحدّث إلى صاحبة محلّ الخياطة وشعرها مشدود إلى الخلف، عدا خصلات تحرّرت فعبث بها الهواء. تمنّيت لو كنتُ النّسائم التي تعبث الآن بشعرها، لو كنت ضوء الشّمس الذي يلفّ جسدها، لو كنت الجدار الذي يستمع إلى حديثها وترتطم به ضحكتها.
- يا قلب، هل لا تزال تسكنك؟
هل يكفيك أن تراها ليصبح الماضي حاضرا والذّكريات القديمة طريةً وموجعة؟
يا قلب، أتُراها تَذكركَ فتحنّ إليك.؟

هي داخل المحلّ الآن وأنا خارجه لا أدري ماذا أفعل ؟ لا أفهم لمَ أنا هنا ولا أستطيع أن أبرح مكاني؟ كأنّي قد تسمّرتُ، فلا أستطيع التّزحزح قيد أنملة، أشعر بأن كلّ حنيني إليها قد تكوّم اللّحظة ولا أستطيع الخلاص منه. أشعر بأنّ كلّ عشقي لها قد تجمّع الآن ولا أستطيع التملّص منه.!
لا أدري كم من الوقت مرّ وأنا على الرّصيف كأنّي جزء منه، عيناي على باب محلّ الخياطة وقلبي داخله! في تلك اللّحظة لم يكن يهمّني النّاس الذين لا أشعر بهم، كلّ ما يعنيني هو أن أراها ثانية ولا يهمّ بعد ذلك إن تجمّدت في مكاني أو مُتّ، لا شيء يهمّ!
لا أدري كم من الزمن مَر.!

فُتح الباب وأطلّت لبنى. اهتزّ فؤادي واستيقظت روحي من سُباتها. في لحظة خاطفة لا تُنْسى رَفعتْ لبنى بصرها فرأتني أمامها، كان يجب أن تراني، فقد كنت قريبا منها. شعرت بأنّها جزء منّي لم يغادرني يوما. انفرجت شفتاها عن ابتسامة ولا أجمل. لوّحت بيدها تحييني وقالت بصوت ضاحك:
- أهلا سيف.. لا باس؟
ثمّ دَخَلَتْ السيارة الفخمة وأخذها الشارع الممتدّ أمامي.
لا أدري ماذا فَعلتُ؟ هل رَددتُ تحيتها أم بقيت صامتا؟ هل رَفعتُ يدي أم ظللت كعمود إنارة معطوب؟
ذَهَبَتْ تاركة ابتسامتها اللّذيذة معلّقة أمامي وقد تدلّى صوتها العذب فأثار رغبتي في معانقته وتقبيله وتخبئته.
- يا قلب، هل كان فراقها الحلّ الأمثلَ حقّا؟ أكان يكفيك أن تراها لدقائق وتشمّ ضحكتها وتتلمّس صوتها حتّى تستعيد الحياة؟

يا قلب، هل حقّا لو كنت بقيت معها لسبحت في بحر من السّعادة ولم تَشْق أبدا؟
انتبهتُ فجأة إلى وقوفي على الرّصيف وشعرت بأنّي بلا معنى. أخذت السيارةُ لبنى وتوارت عن الأنظار ما زلت أقف في مكاني، كأنّي طفل يتيم ضائع، وكان علي أن أقود هذا الطفل إلى مكان ما.. لم أكن أدري أين أذهب. وجدت نفسي أعود بخطى ثقيلة إلى صناديق الغلال تنتظرني ولَمَحْتُ صابرا وهو يرفع السّتار الحديدي ليفتح دكّانه من جديد، انتبهت إلى أنّه قد عاد من صلاة العصر. التفتّ صوب الجامع فإذا بالمصلين قد غادروه وانتشروا في الشّارع كلّ إلى شأن يعنيه.
يا إلهي، لقد فاتتني الصّلاة.!
يا إلهي، أُعذرني، لم أقصد تفويت الصّلاة. لم أستطع ردَّ حنيني الجارف إليها. عفوك اللّهمّ،لا يغفر ذنوبي إلّا أنت. لم أستطع كبح عشقي السّاكن في أعماقي. إلهي، رحمتك أوسع من ذنوبي.

كنت وحدي أسرع نحو الجامع وأتضرّع لله سرّا أن يغفر ذنبي. أصطدم بالمصلّين الواقفين أمام باب الجامع والخائضين في أحاديث مختلفة، باحثا عن المنفذ الأقرب لأدلف منه إلى الداخل. وفي أول مساحة بدت لي في البهو الكبير، كبّرت للصّلاة.

هل كنت أصلّي أم أفكّر فيها؟ هل كنت أتعبّد الله الواحد الأحد أم أستعيد تفاصيل جسدها الجميل وابتسامتها اللّذيذة وصوتها العذب؟ هل كنت أتقرّب إلى ربّي أم أستمتع بها قريبة جدّا منّي؟ هل سيعاقبني الله لأنّي فَوَّتّ الصّلاة أم سيغفر لي لأنّ عشقها لم يفارقني؟ هل سيعاقبني الله على العشق؟ هل سيعاقبني لأنّني لم أنسَ ذكراها ولم أستطع محوَها من مخيلَتي؟

لا أدري كيف أنهيت صلاتي وعدت بخطى متثاقلة إلى صناديق الغلال التي تنتظرني. لا أريد أن أكلّم أحدا ولا أطيق من يكلّمني. لا أريد من يفسد علي خلوتي وأنا أستعيد ابتسامتها السّاحرة وصوتها الشهي ويدها المرمرية وهي تلوّح لي بالتحية.
هل كان من الأفضل ألّا ألتحق بها وأوقظ هذا الحبّ الجبّار النّائم في أعماقي؟ لكنْ لماذا لم أقطع الطريق إليها وأضمّها إلي؟ كم كنت غبيا!
ظللت صامتا أمام بضاعتي مثل أبي الهول، أبدو لمن يراني هادئا وفي داخلي يعلو ضجيج مشاعري المتلاطمة وحيرتي المتأرجحة وأشواقي المشتعلة. أشعر بالبهجة كلّما تذكّرت أنّني رأيتها ثم يتملّكني الشجن! لا أفهم ما يحدث: مازلت أحبّها وأنا الأعلم بأنّه من العبث الاستمرار في حبّها، ماذا أفعل بهذا القلب الذي يغدر بي؟ أخشى أن يرى الله في ذلك ذنبا لا أقدر على ردّه، يا ربّ أَعِنّي.

عدتُ إلى البيت وأنا في وجوم تامّ، لا أطيق أي ضجيج. يعذّبني كلّ هذا الصّخب داخلي. كانت نور منشغلة بدروسها في غرفتها وليلى غارقة في شواغل البيت الصّغيرة. ماذا لو كانت لُبنى مكانها الآن؟ أستغفر الله. لكن هل ستكون سعيدة معي؟ هل كانت سترضى ببيتي الصّغير وبحياتي الضّامرة؟
عفوك يا رب، ليلى أفضل لي. إنّها تهشّ بابتسامتها وتجتهد في إرضائي..
- أتتعشّى ثمّ تنام فتريحَ جسدك؟
لقد شبعت إذ رأيتها وارتويت من ابتسامتها العذبة وصوتها اللّذيذ...
- ما بك يا سيف؟ تبدو مرهقا، هل أنت مريض؟

آه، لو تعلم لُبنى أنّي مريض بدونها فعلا وأنّي ضعيف وحزين ويائس لأنّي أفتقدها بعد أن أضعتها مرّة واحدة وإلى الأبد. لكنْ، أليست هي التي هجرتني لمجرّد أنّ أغواها آخر بسيارة فخمة ونظّارات شمسية أنيقة؟ نعم، هي التي تركتني. لكنْ أنا أيضا لم أدافع عن حبّي ولم أجتهد في إقناعها بأنّي أفضل من صاحب السيارة والنظّارات الشمسية.

بسرعة، انسَحَبْتُ وتقوقعت فغاب كلّ شيء حولي. هدّني هجرها وتراكمت علي الأحزان واشتدّ قهري وعضّني الفقر وسُدّت السبل في وجهي. وككلّ مرّة أكون فيها وحيدا، قفزت إلى ذاكرتي أصابع الغريب. لم أقو على تحمّل كلّ ما عشته فتركتُ الحياة خلفي ولم ينقذني سوى "الشّيخ عبد الحميد" الذي وجدني في حال يرثى لها - أستغفر الله- فقادني إلى دار الإيمان وأصبحت حياتي مفعمة بحب الله، وهذا أفضل.

حياتي مع ليلى أكثر هدوءا وأشدّ قربا من الله، وهذا يكفيني. رغم ذلك يراودني خاطر أنّ حياتي مع لبنى كانت ستكون أشدّ ألقا وأكثر بهجة، لا أدري كيف أفسّر حياتي، لكن هذا ما أشعر به الآن!

قضيت سهرتي يتقاذفني القلق من سؤال إلى آخر. وعندما آويت إلى فراشي عنّ للرّغبة أن تستفيقَ من غفوتها وراقني أن أتلمّس جسد ليلى في الظّلام، موهِما نفسي بأنّها لُبنى. استسلمت ليلى، شعرتُ بالدّهشة تتملّكها وأنا أتحوّل إلى فارس جمحت به رغبته. كم تبدو لبنى شهية، ها أنا أشمّ جسدها فترتعش أوصالي وأدغدغ بطرف لساني كلّ مكان تسكنه اللذّة. أرتشف رضابَها وأعضّ شهوتها الطرية وأعدو بأناقة خلف غمغمتي حتّى صَرَخَتْ خيولي من شدّة الفرح.

كم كانت لُبْنَى لذيذة.!

23

يوم الأحد كانت الأقدام التي تدوس العشب الأخضر في اتّجاه قُبّة الرّياضة في المنزه كثيرة. انبهر سيف وهو يرى كلّ هذه الحشود تسرع الخطى وراقه ألّا يكون ذلك من أجل متابعة مباراة رياضية. شعر بمتعة خفية وحمد الله كثيرا على أنّ هذه المناسبة لم تفته. أسرع، بدوره، الخطى في اتّجاه بوابة الدّخول مستعجلا صابرا.

تحت القبّة الكبيرة جال سيف ببصره في أرجاء المكان متمتما "ربي نحمدك ونشكرك على نعمة الإسلام" وقلبه يتميز غيضا من التونسيين الكفرة الذين لم يلتحقوا بهذا الموعد. ثمّ أضاف "سينتصر الإسلام ولو كره الكارهون". كان في مقعده يتابع بانشراح متعة دخول أفواج البشر الذين غصّت بهم القاعة الكبيرة ووصله صخب من بقوا خارجها. أسعده أنّ كلّ هذا الهتاف والتّكبير ليس من أجل تشجيع فريق رياضي.
مضت برهة من الزّمن قبل أن يعلو التّكبير ويشتدّ التّصفيق حين أطلّ الداعية المصري وجدي غُنيم. كان مرفوقا بحرّاس ومسؤولين كبار سبق أن شاهد بعضهم على شاشات التلفزيون.
جاء وجدي غُنيم من أجل إلقاء سلسلة محاضرات عن الإسلام ليساهم في إحياء دين أهل البلاد. كان سيف يتابع المحاضرة بقلب مطمئنّ وإيمان يزداد عمقا. أدهشته بلاغة الرّجل في طرح الأفكار ومناقشة المسائل الدّينية، وخاصّة قوّة حججه وطرافة ردوده على أعداء الدّين.
تمنّى سيف لو اصطحب لهذا اللّقاء كلّ من يعرفهم من أقاربه وجيرانه وأصدقائه، خاصّة القدامى، حتّى يستفيدوا من علم الرجل. هي أيضا خطرت بباله وتمنّى لو كان يمكنه أن يدعوها إلى مثل هذه الدّروس الدينية، ربّما ستتخلّى عن لباس "الدجين" وإسدال شعرها الناعم وستتخلّص من ضحكتها المثيرة، وقد تقلع أيضا عن السّجائر التي علّمها كيف تستنشقها دون أن تخبئ دخانها في صدرها لتطلقه بشفتين طريتين فيندفع الدخان كما تندفع الحمم من فوهة بركان. مازال يذكر كيف كان يميل عليها أحيانا ضاحكا ويمدّ أنفه لكتلة الدّخان التي تطلقها ليستنشقها فتضحك منه.

كعادته، كلّما ذكرها استغفر الله مغمغما، ثمّ عاد ليتلهّى بأي شيء آخر حتّى يخدع قلبه علّه ينساها.

عندما عاد إلى البيت حدّث ليلى عن الشّيخ وقيمة المحاضرة ووعدها بأن يأخذها معه إلى دروسه المبرمجة في منطقتي المحمدية والكبّارية. في المساء لاحظ، أثناء متابعاته أخبار البلاد، السِّجال الشّديد الذي أثاره العلمانيون حول

حضور الدّاعية وجدي غُنيم فشعر بالغيظ منهم وتأكّد من أنّ الشيخ قد أصاب منهم مقتلا، لذلك يعارضونه ويتّهمونه بالتّرويج لختان البنات!

قرّر سيف أن يدخل محلّ الإنترنيت القريب من السّوق. ساعده الشابّ العامل هناك على الدّخول إلى "موقع الدّاعية وجدي غُنيم"حتّى يتمكّن من الردّ على النّاس الذين قد يتحدّثون أمامه بسوء أو كره بيّن عن الشّيخ. تابع على "يوتيوب" لقاءات كثيرة وتأكّد من أنّ الرّجل على علم كبير، إنّه يكشف حقيقة الديمقراطية وأسسها المعارضة للإسلام ويدعو إلى العودة إلى الشّورى، وبذلك أثبت أنّ للإسلام تاريخه في ما يسمّونه ديمقراطية. كما أنّ حرية التّفكير لا تعني المجاهرة بالكفر. فضح أيضا حقيقةَ مناداة البعض بالفصل بين الدّين والسياسة؛ فالإسلام قانونُ حياة واحد لا ينفصل، وإن كان هناك من يطالبون بالحرية الشخصية فهذا لا يجوز لأنّه سيسمح بموبقات كثيرة، مثل الفساد والشذوذ.

أقنعته كلّ هذه الأجوبة وأسعده أن يمتلكها الآن وبإمكانه الرد على كل تونسي كافر.

هذا جميل، تأكّد من أنّ الشيخ الدّاعية ينتصر للسّلف الصّالح، كما أنّه جريء في التعبير عن أفكاره، ففي الوقت الذي لا يصرّح بعض الدّعاة بحقيقة مواقفهم من المجاهدين الذين يرفعون راية لا إله إلا الله محمد رسول الله في سورية والعراق يعلن الشيخ وجدي غنيم أمام الجميع أنّهم إخوانهم وما أعمالهم إلّا لنشر الإسلام.

يجب على سيف أن يتسلّح بكلّ الأجوبة للدّفاع عن الإسلام، خاصّة أنّ المرتدّين في تونس كُثر -عليهم اللّعنة- وفيهم اليساريون و العلمانيون وجميعهم كفرة كما يقول الشّيخ غنيم نفسه؛ فقد استقبلوه بقوارير الخمر المهشّمة وتربّصوا به أمام قاعات المحاضرات التي كان يلقي فيها الدّروس وحاصروا الفندق الذي نزل به. أمّا ختان البنات فقد فوجئ به سيف أيضا. فهذه أوّل مرّة يسمع أنّ الأنثى تختّن. لكنْ لا يمكن أن يكون في صفّ المرتدّين فيعادي رجل الدين.!

كم تبدو تونس بعيدة عن الإسلام فعلا!

كان سيف مضطرّا إلى قبول الأمر المتعلق بختان البنات إلى أن يفهمه، فالجدل الذي أثاره النّاس حول هذا الموضوع أصبح شديدا وعليه أن يسارع في جمع المعلومات التي سيدافع بها عن الإسلام. وها أنّ محلّ النت يمنحه فرصة متابعة بعض فيديوهات الدّاعية وجدي غنيم. لا ينكر سيف بينه وبين نفسه أنّه فوجئ فعلا وهو يكتشف أنّ العديد من علماء الإسلام ينادون بختان الأنثى،

منهم من يعدّوه واجبا وعملية ضرورية حتّى لا تزوغ الفتاة عن طريق الصّلاح. وقد كرّر الشّيخ الدّاعية غنيم أنّ الختان مكرمة لكلّ بنت وأكّد أنّ كلّ من يعترض على ختان البنات، سواء كان من الأطبّاء أم العلماء أم العلمانيين، إنّما هو من أعداء الإسلام!
من هم هؤلاء الكفرة ليفتوا في دين الله؟
أدرك أنّ عليه أن يسأل صديقه "الشيخ عبد الحميد" عن الموضوع، فهو الذي يملك جوابا عن أي سؤال. قال له الشيخ:

- إنّ ختان الأنثى من سنن الإسلام ويصبح ضرورة إذا خشينا الفساد.

ثم أضاف:

- أنت ترى أن الفساد عمّ بلادنا والغرائز أصبحت تتحكّم في شبابنا. والله، لو كان الأمر بيدي لجعلت الختان واجبا على كلّ أنثى. هل يعجبك ما تراه من فتياتنا الآن؟ هل يرضيك؟

شعر سيف بارتباك وغصّة، كأنّ صديقه يعرف ما فعلته ابنة أخيه "الكلبة هيفاء". نعم، لو خُتنت ما مرّغت سمعة العائلة وما جعلته منكّس الرّأس، يسرع الخطى كلّما مرّ بمقهى الحي، وفي كل مرة يجالس النّاس في السّوق يخالهم على علم بفضيحتها.
نفخ سيف من شدّة الغيظ وقال لصاحبه "الشّيخ عبد الحميد":

- نعم، أنا أيضا لو كان الأمر بيدي لجعلت الختان واجبا على كل أنثى.!

ساد الصّمت بين الرّجلين، في تلك اللّحظة كان سيف مشغولا بفكرة رهيبة تتسلّل بسرعة إلى ذهنه وتتمدّد!

في تلك اللحظة نفسها تأكّدت السّاردة من أنّ الفكرة الرّهيبة التي سكنت ذهن سيف ستدمّر عائلته، لكنّها لم تكن تقدر على سلّها من عقله..
لقد فات الأوان.!

24

أمام الدكّان كان سيف واجما، يرصّف الغلال بحركة آلية حتّى تسرّ عيون المشترين. لم يتبادل الحديث كثيرا مع صابر. لم يسأله عن خطبة الجمعة التي قدمها الشّيخ السوري الدّاعية حسن الدباغ. لاحظ صابر حزن صديقه لكنّه كان منهمكا في خدمة زبائنه. اكتفى بإلقاء نظرة عليه من حين إلى آخر فيراه مكسوّا بغلالة حزن لم يفهمها. استغلّ خلوّ المحلّ من الزّبائن ليسأله:

- ما بك؟

أجاب دون أن ينظر إليه:

- لا شيء، ضغوط الحياة، لا أكثر.

تردّد صابر ثم قال:

- أظنّك على علم بما حدث لأخينا أبي الوليد، ذاك الذي يمدّك أحيانا بالكتب الدينية والبخور والعطور لتبيعها.

التفت إليه سيف، وبفضول شديد سأله:

- أبو الوليد؟ طبعا أعرفه، ما به؟

- كان هو وبعض شباب الإسلام يستعدون لشنّ هجوم على أحد الفنادق التي تبيع الخمر وتمارَس فيها الرّذيلة في إحدى المناطق السياحية في سوسة، لكنّ الطّاغوت باغتهم واعتقلهم.

- لا حول ولا قوة إلّا بالله، اللّهم ثبّتهم على الحق وألهمهم الصّبر.

ثمّ أضاف:

- لن يستتبّ هذا الدّين على هذه الأرض إلّا بحدّ السيف.

ثم غمغم:

- اللّهم إنّا لا نسألك ردّ القضاء لكنّنا نسألك اللّطف فيه.

يا إلهي، ما الذي يحدث.؟

لم تستطع غيمة الحزن الكثيف التي لفّت سيفا أن تجعل صابرا يستمرّ في الحديث، فعاد إلى دكّانه وبقي سيف في جزيرة حزن معزولة عن العالم لا يصله كلّ ضجيج الشّارع ولغط النّاس. يبدو وحيدا في حزنه الشديد، لا يدري كيف يردّ هذه الابتلاءات ولا يعرف كيف يتخلّص من هذه الفضيحة المدوية التي رمت فيها ابنة أخيه العائلةَ ولا يعرف كيف يهدأ أمام فكرة ختان البنات التي ترُجّه بشدّة ولا كيف يصبر على خبر اعتقال أبي وليد وما يمثّله من ضربة قاسية تزلزل صفّ إخوته في الإسلام.

كانت نظرته زائغة حتّى أنّه لم ينتبه إلى امرأة تقف أمامه سائلة:

- بكم التفّاح؟ قلتُ لك بكم التفّاح؟

لم يعرها اهتماما، ألقت التفّاحة في الصندوق واستدارت وهي تتمتم. رأى سيف التفّاحة الملقاة تتدحرج على الأرض فتساءل في سرّه "كيف تسألني عن الثّمن

وهو مكتوب في ورقة أعلى الصندوق؟"وغمغم "يا إلهي، من يقدر على النّساء؟ فعلا ناقصات عقل وإخوان الشياطين !"..

مدّ يده يلتقط التفّاحة، وبسرعة استبدّت بذاكرته تفّاحتان أينعتا على صدر لبنى. كان نهدها في حجم هذه التفّاحة، رائحة عطرها تدغدغ أنفه الآن. انتفض يستعيذ بالله من الشّيطان الرّجيم. بسرعة ألقى التفّاحة في الصّندوق كأنّها لسعته "النساء بوابة جهنم"، تمتم ثمّ عاد بهدوء إلى كرسيه يتأمّل الشّارع. من بين الأصوات تناهى إليه صوت "ولد حدّة"عاليا:
"إيجا منّا وذوق البنّة"*.1
تبعت صوته قهقهة نسائية متغنّجة: "يقوى عليك ربّي، ما تحشمش"*2.
انتبه سيف إلى هذا الإيحاء الفاحش وغمغم "حسبي الله ونعم الوكيل".
لو كانت ابنة أخيه على ختان ما اشتدّت شهوتها وتراخت أمام تصلّب شهوة ذلك الشّاب الوغد. بدأ يستعيد كلّ ما أصغى إليه من محاضرات الشّيوخ الأجلّاء. لقد قالوا إنّ الختان مَكْرُمَة للمرأة وواجب على الذّكر والأنثى في مذهب الشافعية والحنابلة، وقد أقرّه القاضي أبو بكر بن العربي من المالكية أيضا.
رحمهم الله جميعا.!

اطمئنّ سيف إلى رأي علماء الدّين وهو يتذكّر أنّ فقهاء الإسلام اتّفقوا على مشروعية ختان المرأة. لم يقل أحد منهم بعدم مشروعيته أو كراهته أو تحريمه. لو سادت شريعةُ الله الأرضَ لارتاح الناس من مصائب كثيرة، لهذا يجاهد إخوته في الإسلام في العراق وسورية وليبيا ومصر لتعلو كلمة الله، ومن ينصره الله فلا غالب له.
يجب ألّا تتكرّر فضيحة ابنة أخيه ويجب أن يطبّق المجتمع سُنن الإسلام. تردّد صوت "الشّيخ عبد الحميد" في أذنه:
- نحتاج إلى رجل واحد يفعلها لتصبح بعد ذلك شائعة في مجتمعنا، وسيكون له أجر عظيم.
خرجت الحروف من بين أسنانه حادّة:
- "بدأ هذا الدّين غريبا وسيعود غريبا، فطوبى للغرباء"، صدق رسول الله.

أخذت الفكرة تدبّ في رأسه ثمّ تغلغلت، هل يفعلها فيكون له أجر المبادرة.؟

اشتدّت حماسته للفكرة، سيشيد به إخوته في الله وسيضرب به "الشيخ عبد الحميد" المثل في الشّجاعة والمبادرة بإحياء سُنن الإسلام. لم يطل به التّفكير، إذ سرعان ما اطمأنّ إلى قراره سيكون ختانُ طفلته لضبط ميزان حسّها الجنسي وستصبح قادرة على التحكّم في شهوتها ولن تكون مثل هيفاء. ثمّ بفضله ستنتشر هذه السُنّة في البلاد، وقد يذكر التّاريخ أنّه أول من ساهم في

إحيـــاء ســـنن الإســـلام علـــى أســـس حقيقيـــة. وربّمـــا ســـيُذكر ذلـــك فـــي المقـــرّرات المدرسية في دولة الخلافة التي ستكون عليها البلاد التونسية!
مـــن يـــدري، لعـــلّ اســـمه يـــنقش علـــى مـــدخل مؤسســـة تربويـــة إســـلامية فيخلّـــد فـــي تـــاريخ هذه البلاد.

---

*1 تعال إلى هنا وتذوّق ما هو لذيذ.
*2 ألا تستحيي؟

25

صار هادئا الآن،

لا يدري لماذا أو كيف حانت منه التفاتة عن غير قصد إلى ذكريات قديمة. كان يحبّها ويلذّ له أن يرافقها أثناء عودتها من المعهد، وكانت تصرّ على أن يقطعا طريقا ضيقا مظلما، وكان يعرف أنّها تريد أن يمشيا فيه فتلتصق به أكثر كأنّها تخاف الظّلام.
كان يعنّ لها أن تُدخل يدها تحت مرفقه فيلتصق بنهدها وتضغط عليه برفق، فتسري الحرارة في كلّ جسده وتهمس له "لِمَ تسرع في المشي؟" ثمّ تميل على عنقه لترسل ضحكة صغيرة تشعله نارا.
يتململ في كرسيه الآن، لا شيء يبلغه من الصّخب والضّجيج المحيطين به. كم كان يحبّها! كم كان يشتهي عناقها! يكاد يصيبه الدّوار كلّما اعتصر نهديها في ذلك الزّقاق المظلم وقضم شفتيها، فتتأوّه وتمدّ رقبتها صوب أنفاسه السّاخنة وشفتيه المرتعشتين.
انتبه إلى صابر يدخل المحلّ وفي يده كيس بلاستيكي أسود محشو بأشياء لم يتبينها. ظلّ بصره يلاحق صابرا وهو يستعجل الخطى إلى الدّاخل. خمّن أنّه قد يحتاج إليه ليساعده فلحق به، وصُعق سيف.!
هل يعقل ما يراه الآن؟
لا يصدّق عينيه، أحقّا يفعل صابر هذا؟
كذّب عقله، ظلّ مشدوها ينظر ولا ينبس بكلمة، يرى صاحبه منشغلا تماما بما يقوم به ولا يقدر على السّؤال. تفطّن صابر إلى وجود سيف، فبدا عليه ارتباك حاول إخفاءه بحركات يديه السّريعة وهو يجمّع العُلَب من داخل الكيس وينضّدها بسرعة داخل الثّلاجة.
بدت اللّحظات بينهما ثقيلة جدّا.!
قال بصوت خافت:
- ليست لي، إنّها لبعض شباب الإسلام.
- ماذا تقول؟
- أنت تعرف أنّ العديد منهم حديث عهد بالإيمان، ومنهم من أُبتلي بها ويحتاج إلى بعض الوقت ليتخلّص من إدمانه، أنا أكتفي بتبريدها فقط.
- لا أصدّق ما أرى، كيف تفعل هذا يا صابر؟
ردّ صابر مرتبكا:
- قلتُ ليست لي (تلعثم وهو يضيف) أنا لا أشرب البيرة.!
قال سيف، وهو يتراجع قليلا إلى الوراء:
- لن أصدّق منك شيئا بعد الآن.!
بسرعة برقت في ذهنه جلساته مع "ولد حدّة". لا ينكر أنّه بعد خروجه من السّجن تردّد عليه مرّات متباعدة واستمتع بوقته معه مردّدا لنفسه أنّ الله غفور

رحـــيم، لكنّـــه لا يـــدري لـــمَ لـــم يقبـــل ذلـــك مـــن شـــباب "حـــديثي الإيمـــان" كمـــا يقـــول صابر.

التبس عليه الأمر وشعر أنّه في دوّامة!

ســـيطرت عليـــه رغبـــة فـــي الخـــروج مـــن المحـــلّ ليستنشـــق الهـــواء. اهتـــزّت الأرض تحـــت قدميـــه، اســـتند إلـــى الجـــدار بعـــد أن شـــعر بـــأنّ كـــلّ شـــيء حولـــه يميـــد حتّى يكاد يُسقِطه. ولم يجد بدّا من التّهالك على كرسيه محاولا جمع أفكاره.

هل يعقل أن يحدث له كلّ هذا؟

تراكمت الأسئلة وصارت تنغل كالدّود في رأسه فتخرّب روحه.

أيقظه صوت صابر من وجومه:

- ما بك يا سيف؟ ما الذي يشغلك؟

انتصـــب ســـيف واقفـــا علّـــه يحـــرّر نفســـه مـــن ثقـــل الهمـــوم. شـــعر بأنّـــه حـــزين ولا يـــدري هـــل لِمَـــا فعلـــت ابنـــة أخيـــه الســـافرة أم لأنـــه تـــذكّر تلـــك التـــي هجرتـــه وخرّبـــت كـــلّ العمـــر ويحبهـــا أم لِمَـــا يفعلـــه صـــابر وبعـــض شـــباب الإســـلام ســـرّا أم لِمَـــا وقـــع لأخيه في الله أبي الوليد أم لِمَا قرّر فعله بطفلته الصغيرة ؟

يبـــدو أنّ السّـــاردة تـــأثّرت كثيـــرا بحالـــة ســـيف، لـــذلك قـــرّرت أن تـــريح نفســـها أيامـــا فـــلا تنشـــغل بـــه حتّـــى لا تخـــتلط عليهـــا خيـــوط السّـــرد. ورغـــم أنهـــا لـــم تكتـــب شـــيئا لأيـــام فإنهـــا لـــم تســـتطع الـــتخلص من هيمنة شخوص الرواية وأحداثها عليها!

26

أراد سيف أن يقطع الطريق على ذاكرته المثقلة بالحزن والحيرة فمدّ رأسه تحت الحنفية وأطلق الماء، يسيل آخذا تعرّجات مختلفة تتخلّل الشّعر وتمتدّ إلى لحيته الكثّة.

الآن يشعر بأنّه أفضل!

اقترب من صابر وقال له بصوت كالهمس:

- اسمع أخي، أعرف أنّ لديك متّسعا من الوقت، فهل لك أن تبحث لي في الإنترنت عن كلّ النّصوص الدّاعية وجدي غُنيم إلى وجوب ختان البنات!

ذهل صابر لطلبه، هتف:

- ختان البنات.؟

قاطعه سيف بصوت أراده صارما:

- هو كذلك يا أخي، الختان في الإسلام واجب على الذّكر ومَكرمة للمرأة.

ثم أضاف بنبرة واثقة:

- هل تعرف أنّ "الشّيخ عبد الحميد" فسّر لنا ذلك فقال إنه لا أحد من الفقهاء اعترض على ختان الأنثى أو قال إنّها عادة سيئة قبيحة تجب محاربتها، بل كلّ ما هناك هو أنّهم قد اختلفوا في الحكم بالوجوب أو النّدب أو الاستحباب.

راقه ذهول صابر فأضاف، كأنّه يسدّد له لكمة أخرى:

- الشيخ وجدي غُنِيم كذلك يؤكّد هذا الرّأي ويُعدّ الختان مكرمة، لو كانت بلادنا مسلمة بحقّ لأعلنها على الملأ في دروسه التي ألقاها في تونس، لكنّه قال ذلك في دروس قديمة له.

ردّ صابر بتردّد:

- نعم، لكنْ...

قاطعه سيف بضربة قاضية:

- الخِتان من شعائر الإسلام يا أخي ولا اعتراض على دين الله.!

انتبه سيف إلى أنّ صابرا يصغي إليه بانتباه فأعجبه ذلك، هذا يعني أنّه يسيطر على الحوار، ما سيجعله ينجح في إقناع ليلى. أضاف:

- منذ مجيء الشيخ وجدي غُنيم وأنا مشغول بهذه المسألة.

في تلك اللحظة تجلّت له صورة هيفاء، ابنة أخيه، الكلبة التي جلبت العار، ولا يدري لِمَ خطرت بباله طفلته نور أيضا، وكذلك لبنى فتنهّد. لبنى التي أسلم لها ذاكرته تصول وتجول فيها كما تريد. استعاذ بالله من الشّيطان الرّجيم وعاد للتّركيز في حديثه المهمّ مع صابر.

كان صابر ينصت باهتمام، وكان سيف سعيدا لأنّ صاحبه لا يعرف ما يجول في ذهنه!

قال صابر بصوت خفيض:

- لكنّ هذا قد يؤذي الطّفلة ويسبّب لها تشوّهات.!
- كان ذلك ممكنا في الماضي عندما كانت الأدوات بدائية مليئة بالجراثيم والسّكاكين صدئة والحجارة حادّة، لكنّ الوضع اختلف الآن وصارت العملية تجري في ظروف طبية تضمن سلامة الطفلة.
- هذا ليس من عادات مجتمعنا.؟

قال سيف، وقد بدأ يُعييه عناد لم يتوقّعه من صاحبه:

- "بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا، فطوبى للغرباء"هكذا قال الرّسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

ربّت على كتف صديقه واثقا من أنّ هذا الحديث الشّريف سيقطع دابر كلّ شكّ أو تململ في ذهن صاحبه، ثمّ تابع:

- لا تنسَ ما طلبته منك، حتما هناك كُتب في هذه المسألة لن نعثر عليها في تونس، عموما أنا أصدّق ما يقوله شيوخنا في دروسهم. ستجد في الإنترنت وثائق واضحة أُقنع بها ليلى. هل يرضيك ما تفعله الفتيات الآن؟ هل تتحمّل أن ترى كلّ هذا السّفور والانحراف والجهل بالدين؟ توكّل على الله يا أخي وسنلتقي عند صلاة المغرب.

أضاف، وهو يغادر المحلّ متأفّفا: إنّ كيدهنّ عظيم.!

شعرت السّاردة بأنّ ما طلبه سيف من صديقه موجّه إليها أيضا، ففتحت غوغل ودخلت صفحات كثيرة تناقش حكم ختان البنات، وقد فوجئت بكثرة الوثائق والفيديوهات التي تتحدّث عن الموضوع، لذلك أنشأت ملفّا على سطح الكمبيوتر ضمّنته كلّ المقالات التي ستحتاج إليها أثناء كتابة هذه الرّواية.

26

تقدّمت منه بخطى مرتبكة وسألته متردّدة:

- هل من جديد عن هيفاء؟

رفع بصره إليها وبدا لامباليا، كأنّ السّؤال غير موجّه إليه. ظلّت واقفة لا تدري إن كان عليها أن تذهب أم تبقى، تخشى إن ذهبت أن يعتبر ذلك عدم اهتمام به فيغضب، وتخشى ان بقيت أن يرى في ذلك إزعاجا له فيغضب.

فكّرت قليلا ثمّ قالت:

- أليس من الواجب أن نذهب إلى عائلة أخيك لنطمئنّ عليهم بعد هذه الكارثة؟

أجاب هذه المرّة دون أن ينظر إليها:

- لن أذهب إلى هناك مرة أخرى، أخي أيضا يتحمّل مسؤولية ما حدث، كان بإمكانه أن يمنع الكارثة قبل حصولها.

لم تفهم ليلى قصده، لكن كان يجب أن تردّ حتّى لا يبقى كلامه معلّقا في الفضاء فيخمّن أنّها لا تبالي به:

- هيفاء لم تكن لِترضى أبدا بما حدث..

قاطعها صارخا:

- بل هي التي رضيت بذلك لو كانت قد خُتنت ما فعلت هذا، لكنّ النّاس لا يحترمون كلام العلماء.

نظرت إليه مشدوهة، لا تصدّق ما سمعت. أيقن بأنّ اللّحظة ثمينة وعليه استغلالها فجعل يسترسل رافعا صوته كعادته كلّما أراد السّيطرة على موضوع:

- طبعا، النّاس لا يحترمون الشّرف ولا يقدّرون العفّة لأنّهم لا يلتزمون بضوابط الإسلام. صدق الشّيخ وجدي غُنِيم، لو كانت قد خُصّنت بالختان ما فعلت بنفسها هذا وما ألحقت بنا الفضيحة. إنّه عار لا يمحى!

- لكن ما شأن الختان بهذا؟ إنّ الختان ليس من الإسلام، يقال إنّه عادة فرعونية.

- ليكن، ما يعنيني هو أنّ الإسلام دعا إليه حتّى تُحفظ عفّة البنت.

- لكنّ هذا ليس من عاداتنا في تونس.

راقه نسق الحوار وهو يسير كما خطّط له، فازداد ثقة في قدرته على فرض فكرته:

- لأنّنا لا نطبّق الإسلام في تونس، هذه البلاد تحتاج إلى فتح جديد، لقد أثبت علماء الدّين، وخاصة الشّيخ وجدي غنيم، أنّ ختان الإناث مَكْرَمَة.

بدت عاجزة عن استيعاب ما يقول سيف:

- ماذا تريد أن تقول؟ هل يجب أن نختن بناتنا.؟

بدت له اللّحظة مواتية، فردّ بصوت حادّ لا يقبل الطّعن:

- طبعا، إنّه مكرمة، الختان هو الأمر الوحيد الذي يضمن عفّة البنت وشرف العائلة، لذا يجب أن تُختن الفتيات منذ الصّغَر.

كان كلامه صاعقا لا يمكنها تصديقه:
- أُترك هذا الحديث جانبا، حين ترتاح سيزول غضبك وتنسى ما قلت.
صرخ:
- هل تريننني مجنونا؟ إنّني أقول الحقيقة، وجدي غُنيم نفسه أكّد ذلك وقال إنّه يمكن أن نعود إلى رجال الدين فنتثبّت من الأمر.
كانت ضربته القاضية جاهزة، فواصَل:
- من لا يقبل شرع الله يُعدّ كافرا ومرتدّا.!
- لكنّه لم يذكر ذلك في دروسه التي قدّمها في تونس.
- هذه البلاد يجب أن تُفتح تدريجيا، لذلك لا يمكن أن يُقال كلّ شيء دفعة واحدة، فقط تأكّدي من أنّ الختان مَكرمة وعِفّة.
أجابت، وكأنّها تريد أن تقطع الحديث الذي لم يتقبّله عقلها:
- إذن إلى أن يأتي ذلك الزّمن سنَدْعُو لبناتنا بالصّلاح والهداية.
- لن ننتظر حتّى يأتي ذلك الزّمان، نحن من يجب أن نُعجّل به، نحن أبناء أمّة الإسلام، وهذا بلدنا وعلينا فتحه ليعرف التونسيون دينهم الحقيقي.
سألته، وكأنّ كيسا من الغباء اندلق على رأسها:
- كيف؟
أسعده أن يسيطر على الحوار وبدا أنّ اللحظة المناسبة قد حانت:
- نحن من يجب أن يبدأ، في البداية سيرفض الأمرَ كلُّ الجاهلين دينَهم، لكنْ بالتّدريج سيتقبّلون الختان وسينتشر بينهم، وحينذاك سيصبح مجتمعنا صالحا.
سألته، ورأسها يكاد ينفجر:
- كيف؟
ثمّ صرخت: تقول نحن؟.. من نحن؟
أضافت، وقد تعلّق بصرها بغرفة طفلتها، كأنّها فهمت إيماءته:
- ماذا تقصد.؟
أجاب بصوت واثق، مُطلقا القنبلة:
- يجب أن تكون لنا القوّة والجرأة لنلتزم بما يرضاه الإسلام، نحن سنفعلها.
- ماذا سنفعل؟
- أنا سأختن نور.
(ندّت عنها شهقة).
واصل، بصوت تعمّد أن يكون مرتفعا:
-لا يهمّني الناس، إنّهم لا يعرفون شيئا عن دينهم، إنّهم في ضلال كبير.
صرخت:
- ماذا تقول؟ هذا لن يحدث أبدا!
صفعة مدوية نزلت على خدّها فبقي جزء من كلامها معلّقا في الفضاء وجزءه الآخر منحبسا في حلقها. كانت الصّفعة كافية لأن تتعثّر ليلى وتسقط. لم تفقد الوعي تماما، لذلك تناهى إليها صوت سيف يردّد:
- لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.!

فكّرت السّاردة طويلا.. لو كانت مكان ليلى كيف كانت ستواجه سيفا؟

27

بعد أن أدّت ليلى صلاة المغرب مع طفلتها، عادت إلى طاولة الدرّس تعينها على إنجاز فروضها المدرسية. تحرص ليلى كثيرا على مساعدة صغيرتها نور لتتفوّق في الدّراسة. ترى فيها عمرها الذي تتحسّر عليه وتحاول أن توفّر لوحيدتها طفولة سعيدة، وإن حرمتها من الدُمَى والدِبَبَة القطنية وخَلَتْ جدران غرفتها من صور الأميرات الصّغيرات ومجسّمات الحيوانات ومنعت عنها الصور المتحرّكة في برامج الأطفال التلفزيونية. كان كلّ همّها أن تُسعد صغيرتها بما يراه سيف جائزا.

لم يكن في الغرفة سوى صوتها والهرج اللّذيذ الذي تحدثه صغيرتها عندما تناهى إليها صرير الباب وهو يُفتح.
دخل سيف يسبقه صوته القوي "السّلام عليكم". التفتت فإذا بزوجها يقبل وفي يده رزمة من الأوراق فارتجف قلبها، ترى ما الجديد.؟
تساءلت وقلبها يلهج بالدّعاء: "بسم الله الذي لا يضرّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السّماء وهو السميع العليم، اللّهم باعد بين صغيرتي وبين كلّ أذى ينويه بها".
لم تستطع ليلى أن تتبيّن انفعالات سيف. كانت ملامحه صامتة كجملة بلا معنى ونظرته باردة لا توحي بشيء. شعرت بقلبها يزداد ركضا. ردّت عليه دون أن تحوّل بصرها عنه:

- عليك السلام ورحمة الله وبركاته.

وجد سيف مدخلا يبدأ به حديثه مع زوجته، رسم على وجهه ابتسامة خفيفة بدت مصطنعة وقال:

- منذ قليل نجح شباب الإسلام في تفجير حانة، لم يمسكوا أحدا، والحمد لله، انشغل الطّاغوت بالفوضى العارمة التي أحدثها النّاس والتّدمير الهائل الذي لحق المكان.

سألت بفزع:

- هل هناك ضحايا؟

ردّ بهدوء:

- إن كتب لإخواننا الموت في سبيل الله فإنّهم في الجنّة ويحسبون عند الله شهداء بإذنه تعالى، أمّا قتلاهم ففي النّار. (تابع، وهو يشدّ على الحروف وقد اختفت ابتسامته الباردة). هذا الشّعب عنيد لم يرضخ لشريعة الله، لذا يجب أن نلزمه باتّباع الحقّ ولو اضطررنا إلى مواجهته بالحديد والنّار، لا يوجد حلّ آخر.

ثم أومأ إلى ليلى بيده المحمّلة برزمة الأوراق:

- تعالي، أريدك قليلا...

دخل سيف غرفة النّوم ولحقت به ليلى، تتعثّر في حيرتها:

- خيرا إن شاء الله؟
- لا بأس، لن يكون إلّا ما يريده الله عزّ وجلّ.
أومأ إليها أن تجلس على طرف السرير بينما ظلّ هو واقفا:
- ماذا قلتِ بخصوص المسألة التي حدّثتك عنها البارحة.؟
ردّت وقد شعرت بأنّ قلبها يكاد ينشقّ:
- بل ماذا تقول أنت يا سيف؟ لا يعقل أن تؤذي طفلتنا الوحيدة، حرامٌ هذا الذي تفكّر فيه.
قاطعها محاولا السّيطرة على نفسه حتّى لا يرتفع صوته فيبلغ نور:
- ما هذا العِناد يا امرأة؟ هل تظنّين أنّها ابنتك وحدك؟ إنّها ابنتي أيضا وأنا أريد حمايتها، اِفهمي أيتها الجاهلة، أنا أريد أن أصونها وأحفظ عرضها.
قالت وقد انهمرت دموعها كأنّها كانت مخبّأة في مآقيها:
لكنّ هذا سيؤذيها، سيشوّهها جسديا ونفسيا ولن تغفر لنا.
قاطعها وهو يلوّح بيده، محاولا كبح صوته حتّى لا يصل مداه إلى نور:
- قلتُ لك إنّه من شعائر الإسلام، أيتها الغبية.
قالت، متردّدة:
- لكن لا أحد قَبْلنا فعل ذلك؟
اقترب منها، كأنّه سيهوي عليها بجسمه السّمين، وقال لها، وهو يتأفّف ويشير بكفّه في الفضاء القليل بينهما:
- وبلادنا تعرف الشّريعة؟ هل تجدينها ملتزمة بحدود الله ورسوله؟ إنّها في ضلال كبير، أمّا نحن فقد هدانا الله - سبحانه وتعالى- ثمّ إنّ ختان البنات قد يكون في البداية أمرا غريبا لكنّه سينتشر تدريجيا.. يكفي أن يبادر أحدنا.
قالت باكية:
- سنؤذي ابنتنا...
ردّ، وقد بدأ صبره ينفد:
- قلتُ لكِ إنّه مَكْرَمَة لها (خَفَّض صوته وقال) نحن لن نقطع جزءا كبيرا منه، فقط سنخفض الجزء الذي يعلو مخرج البول لا غير لضبط الاشتهاء عندها، فلا تتهيّج شهوتها ولا يدفعها ذلك إلى الاستهتار وعدم التحكّم في نفسها. إنّي أصونها وأحميها من شهوتها، إنّنا نُكرمها فنساعدها على التعفّف ولن تفاجئنا عند الكِبر بما يعذّبنا، لن تكون من المستهترات، والعياذ بالله.
انخفض نشيج ليلى فَاطمأنّ عندها وأضاف بعد أن تأكّد من أنّه سيطر على الموضوع تماما:
- اطمئنّي، لن يكون إلا الخير..
صمت برهة كأنّه يمنحها فرصة هضم كلامه دفعة واحدة، ثم تابع:
- هناك كتب عديدة في هذا الشّأن، وقد استمعتُ إلى دروس مسجّلة لوجدي غُنيم واقتنعت بها، سأمدّك بها لاحقا، إن بقي لديك شك.

مدّ لها الأوراق التي في يده:
- خذي هذه، إنّها مقالات استخرجتها من الإنترنت لأجلكِ وتهمّ موضوع ختان البنات، اطّلعي عليها وسيطمئنّ قلبك إلى الأمر تماما، نحمد الله على نِعْمة الهداية.

مدّت يدها ببطء لرزمة الأوراق. تثق في تقوى زوجها وإيمانه، وقد رأته مرّات كثيرة يصلّي فيغلبه البكاء من شدّة الخشوع. كيف يخطئ وهو يقرأ دائما كتبا تبدو مهمّة لأنّها عادة ما تكون قديمة وأوراقها قريبة إلى الصّفرة ويواظب على صلواته في مواعيدها ويدفعها إلى حضور الدّروس الدينية ولا يبخل عليها بكل ما يثبّت إيمانها. إنّه لا يمكن أن يخطئ إسلامه أبدا.
طأطأت رأسها وهي تنظر إلى الأوراق بين يديها، ثم قالت دون أن تفتحها:
متى ستفعل ذلك؟
اِنفرجت شفتاه عن ابتسامة كبيرة وقال:
- سيكون ذلك قريبا إن شاء الله.
همّ بمغادرة الغرفة فلحق به صوتها:
- هل أعدّ لك العَشاء؟
أجابها، دون أن يلتفت:
- لا، بعد صلاة العِشاء إن شاء الله.
لحقت به وقد رمت الأوراق على أقرب كرسي:
- ماذا حدث في بيت أخيك؟ هل نذهب لنطمئنّ عليهم؟ من الواجب أن نذهب.
كان حينذاك قد فتح التلفزيون على قناة دينية تقدّم درسا في السّيرة النبوية. تذكّر مصيبة أخيه فتمتم وهو يعدّل الصّوت:
- لا حول ولا قوّة إلا بالله.. (وأضاف بصوت سمعته) إنّ كيدهنّ عظيم.!
انكمشت ليلى وهي تردّد في سرّها "اللهمّ أبعد الأذى عن طفلتي".

الأوراق التي أتى بها سيف من عند صابر وقدّمها لزوجته هي مجموعة مختلفة من المقالات المستخرجة من غوغل، السّاردة نفسها اطّلعت على كثير منها ورتّبتها في كنش لها حسب الجدول التالي:
ختان البنات: اتفق الأئمة على مشروعيته واختلفوا في حُكمه:
-الشافعي يعدّ ختان الأنثى واجبا، وهو ما يذهب إليه مالك وأحمد بن حنبل (فتوى رقم 4487).
-لا يعدّ أبو حنيفة ختان الأنثى واجبا، بل سنّة مؤكّدة، ولذلك يقول انه مَكْرُمَة للمرأة (نفس الفتوى).

28

بعد صلاة العِشاء، دخل سيف البيت. كانت ملامحه صارمة ونظرته مضطربة، وهذا يعني انه في مزاجٍ سيئ، على ليلى أن تتجنّبه. قالت بصوت واجف:

- هل تتعشّى؟

ردّ بإيجاز شديد وبصوت بارد:

- غدا بإذن الله يكون ختان البنت!

صُعقت ليلى، كأنّه لم يحدّثها عن الموضوع من قبل، كأنّها تسمعه لأوّل مرة. شعرت بالاختناق ولم تدر ما تقول. رفعت إليه بصرها مرتبكة فسدّد نظرة حادة في عينيها، كأنّه يريد أن ينفذ إلى أعماقها وجاء صوته صارما:

- نحن نطبّق واحدة من سنن الإسلام ، لذلك لا أريد المزيد من الثّرثرة حول هذا الأمر.

ظلّت ليلى ساكنة، تريد أن تصرخ في وجهه لأنّه سيؤذي ابنتها، لكنّها لا تستطيع أن تعترض على أمر قال إنّه من سنن الإسلام، لا قدرة لها على إغضاب زوجها، فيغضب الله منها.

لم يذق سيف الطعام. دخل غرفته لينام، في حين تهالكت ليلى على أول كرسي اعترضها وبقيت ساكنة، كأنّها جلمود صخر لا تشعر بكلّ ما حولها؛ فقط عقلها يجوب صحارى وفيافي، فلا بالها يهدأ ولا فكرة تسكن لها ولا صمتها يريحها. لا تدري إن كان عليها أن تسعد لأنّ زوجها أوّل من يُحْيي سنن الإسلام في البلاد أم تحزن لأنّ في هذه السّنن ما يؤذي طفلتها.؟

ما تستغربه أنّها حضرت خطبا عديدة في صلاة الجمعة ودروسا كثيرة في الجامع ولم تسمع مرّة واحدة عن هذا الأمر إلّا عند وفود الدّعاة على تونس؛ فهل البلاد بعيدة عن إسلامها فعلا.؟

ما معنى ختان الأنثى مَكرمة؟

لماذا لا توجد آية قرآنية واضحة في هذا الأمر.؟!

كانت الأسئلة تنبت مثل الأشواك في رأسها، ولا أجوبة.

ودّت أن تطرحها على زوجها لكنّها تتهيّبه. ورغم علمها بأنّه لن يقنعها فإنّها لا تجرؤ على مواجهته. ما زالت تذكر المرّات القليلة التي حاولت فيها أن تعترض فاشتدّ صراخه وارتعشت كفّه العريضة المشرّعة على خدها.

مضى من اللّيل أغلبُه وهي جثّة تجلس على كرسي. كان الأمر سيكون عكسيا لو كان لديها طفلا ذكرا وقرّرا ختانه.

تجد الوضع مبهما وكارثيا والأمر يتعلّق بأنثى.!

لا يستطيع عقلها التّسليم بحكاية ختان البنات هذه، ولا تستطيع أن تفهم كيف أنّه يجعل المرأة تسيطر على غريزتها. هي، مثلا، كانت تحبّ سيفا ولم تستسلم له قبل الزّواج. ولم يكن للأمر علاقة بقطع جزء من ذلك الشّيء الذي يسكن بين فخذيها، بل ، فهي من اختارت ألّا تفتح ساقيها لأحد قبل الزّواج وتشعر بأنّها فعلت ذلك بعقلها .

كم تحتاج إلى أختها ثريا، تلك التي منعها سيف من بيتهم وأخبرها بأنّه سيقطع رجليها إن هي ذهبت لزيارة أمّها دون علمه، وهي لا تستطيع أن تغضب زوجها، لأنّ في ذلك غضب الله.
أطلّت على طفلتها واقتربت منها بهدوء، فإذا هي في نوم هادئ. مسحت على رأسها وقبّلتها ولا تدري لِمَ تمنّت أن توقظها، لو كانت ستختن ولدا لكانت هذه اللّيلة من أجمل اللّيالي؟

اقتربت من سيف، كان يغطّ في نوم عميق. تمنّت لو أيقظته ونثرت بين يديه كلّ قلقها وأسئلتها دون أن يقاطعها، دون أن يرفع صوته في وجهها ودون أن يشرع كفّه على خدها. تمدّدت بجواره في هدوء حتّى لا توقظه، وتمنّت أن تغمض عينيها فيأتي النّوم سريعا، دون أن يعذّبها الأرق ودون أن تقتات منها الأسئلة وتستنزفها الحيرة.

كان شخيره يزيد أرقها.!

لم تكن السّاردة، بدورها، تعرف كيف تخلّص ليلى من هذا المأزق، كأنّ حالة القلق التي تعيشها ليلى قد تسرّبت إليها، لذلك حاولت ألّا تشغل نفسها كثيرا بليلى واختارت أن تروّح عن نفسها قليلا بالاستماع إلى قطعة موسيقية هادئة.

29

لم أقدر أن أصمد أكثر أمام صراخ طفلتي الموجع فدفعت الباب ودخلت. أُلقيت نور على ظهرها وهي في حالة فزع شديد. كان الألم يزدحم في حلقها ليخرج كتلا من الصّراخ الحادّ. إلى جانبها يقف والدها وقد فتح بيديه القويتين فخذيها الصّغيرين ومدّ وجهه ناحية النّافذة المغلقة حتّى لا ينظر إلى عورة طفلته ورجل غريب يرتدي ميدعة بيضاء وقفّازين شفّافين يهيئُ ضمّادة مضمّخة بالدّواء. عندما مددتُ رأسي ناحية نور كانت الدّماء تلطّخ فخذيها ولون اللّحاف تحتها تحوّل إلى الأحمر القاني. كان صراخ نور يدوّي في أرجاء البيت وصداه يتردّد في قلبي فيكاد ينخلع من مكانه. اندفع صوتي مرتجفا كأنّي لم أكن أتوقّع هذا الذي أراه:

- ما الذي حدث؟

اختار الرجل الغريب الصّمت، فأجابني سيف:

- لابأس، إنّه جرح صغير وستكفّ الدّماء الآن.

وضع الرجل الغريب الضّمادة أعلى فَرْجهَا وشدّها بالشريط الطبّي اللاّصق ونور كالعصفور المذبوح، تنتفض وتصرخ، أمّا سيف فلا يزال يمسكها بشدّة حتى لا تتخبّط فتزيل الضّمّادة. جلسْتُ متهالكة على طرف السّرير وقد تيبّس الفزع في قلبي الجريح. لم أكن أدري ما أقول. أمّا سيف فأخذ يهدّئ نورا، محاولا التخفيف عنها بوعوده:

- اهدئي قليلا يا صغيرتي، كفّي عن البكاء وسآخذك إلى حديقة الحيوانات.

لكنّها لا تتوقّف عن الصّراخ الشّديد.

جمع الرّجل الغريب أدواته الطبية القليلة، مسح المقصّ ممّا علق به من دماء وردّه إلى الحقيبة، ثمّ قال بصوت هادئ:

- عليك ببعض الدّواء من الصيدلية، وغدا أعود لتفقّد الجرح واستبدال الضّمادة.

قال سيف:

- بارك الله فيك وجازاك خيرا.

رَفَعْتُ بصري إلى سيف. لم يبد لي حزينا ولا سعيدا، لم يكن متألّما ولا مبتهجا، ملامحه جامدة لا تقول شيئا. حين انتبه إلى نظراتي إليه قال، بلهجة آمرة:

- تعالي إلى هذه الجهة وأمسكي بها حتّى لا تركل فخذيها فتنزع الضّمادة، ستكون بخير.

ثمّ وجّه حديثه إلى نور:

- اِهدئي قليلا، اِنتهى كلّ شيء الآن، اِهدئي.

حللتُ مكان سيف الذي وجّه حديثه إلى الغريب وهو يشير إلى طبق حلويات:

- تفضل أخي، لقد قمتَ بعمل كبير جعله الله في ميزان حسناتك.

وهما يغادران الغرفة قال لي سيف:

- سأرافق الأخ إلى صلاة المغرب، لنا درس في السّيرة النبوية اللّيلة حتّى صلاة العِشاء، أعود إلى البيت بعد ذلك بإذن الله.

غادرا البيت وأطبقا الباب على وجعي وصراخ طفلتي يرتدّ في قلبي كضربات خنجر. كان يجب أن أهدّئها قليلا. لم تنتبه الصّغيرة إلى حالتي. كان صراخها يختلط ببكائي، تتساقط دموعي حارقة، أتلمّظ ملوحتها فأحسّ بالمرارة في حلقي. أشعر بأنّ طفلتي فقدت شيئا مّا إلى الأبد، وكان هذا كافيا ليجعل بكائي نحيبا. كنت أهدّئ من روع طفلتي وأنا أحتاج إلى من يربّت على قلبي علّني أستعيد تماسكي.

افتقدتُ في تلك اللحظة أختي ثريا، أحسّ بأنّي ضعيفة وأحتاج إلى أن ألقي رأسي على صدرها وأبكي بكلّ حرقة طفلتي التي ضَيعْتُ عمرها، لكنّ سيفا منعني منها وتركني غصنا مكسورا ومُلْقى بإهمال في طريق موحش. بعد أن هدأت طفلتي قليلا مسحتُ آثار الدّماء بين فخذيها.

كان آذان صلاة المغرب يشقّ الفضاء.!

شعرت السّاردة بعد كتابة هذا الفصل بضيق شديد حدّ تعطُّل تدفّق السرد عندها، كأنّه نبع قد جفّ. بدت اللّغة متخشّبة وبلا معنى بعد الذي حدث ولم تكن تعرف ماذا تفعل. هي أيضا عاجزة عن التحكّم في انفعالاتها، لذلك كانت تمسح بأنامل مرتعشة دموعا أطلّت من مقلتيها، اعترفت لبعض الأصدقاء المقرّبين منها بأنّها لم تستطع العودة إلى الكتابة إلا بعد فترة طويلة.

كان الوضع محزنا فعلا.

تساءلتْ الساردة أكثر من مرّة ألم يكن بإمكاني أن أختار موضوعا آخر أقلّ تأزّما و أقلّ فجيعة؟

30

تبّا للكتابة! ما الجدوى منها الآن؟ كنتُ أدور في البيت كالمجنونة.
مـــا معنـــى أن أكـــون كاتبـــة وأصـــطدم بعجـــزي فـــلا أســـتطيع مســـاعدة طفلـــة صـــغيرة؟ ما معنى أن أكتب في زمن يمتدّ فيه المقصّ ليجزّ الفرح؟
يعـــذّبني الشّـــعور بالإحبـــاط ويعـــذّبني أكثـــر أنّـــي لا أســـتطيع تـــدارك هـــذا الوضـــع فأنقـــذ نـــورا مـــن مخالـــب أبيهـــا الغبـــي؟ كيـــف يمكـــن لأب أن يكـــون بهـــذا القـــدر مـــن التـــوحّش فيولج المقصّ في ابنته ويسرق طفولتها؟
لا أســـتطيع أن أصـــدّق هـــذا! هـــل مـــازال الجهـــل يعشّـــش فـــي رؤوس بعضـــهم فـــي القرن الحادي والعشرين بهذه الكيفية؟

كنـــت أدور فـــي البيـــت مثـــل لبـــؤة جريحـــة، أشـــعر بـــأنّي أنـــزف مثلمـــا نزفـــت نـــور وهـــي بـــين أيـــدي جلاّديهـــا. تبّـــا لســـيف، لـــو كانـــت لـــي القـــدرة لعالجـــتُ بالسّـــيف رؤوس أفكاره الصّفراء النّتنة، ولو بَعجتُ رأسه لتسرّب منه القيح لا الدّماء.
يـــا إلهـــي! أريـــد أن أصـــرخ، أريـــد أن أطلـــق هـــذه الغصّـــة التـــي تخنقنـــي فتجعلنـــي عـــاجزة عـــن التـــنفّس. عـــدتُ إلـــى مكتبـــي وقـــد تنـــاثرَتْ حـــولي أوراق ظلّـــت بيضـــاء. كورّتهـــا بعصـــبية وقـــذفتها علـــى الحـــائط. لا فائـــدة مـــن روايـــة ولا معنـــى لقصـــيدة بعـــد الذي حدث لنور.
أحـــبّ أن أصـــرخ، أن أفعـــل أي شـــيء يمكـــن أن يمـــتصّ غضـــبي ويحرّرنـــي مـــن عجزي ويطلق غصّتي.
كم يبدو تافها أن أكون الآن كاتبة.!
مـــا معنـــى أن أتحـــدث فـــي روايـــة عـــن هـــذه الجريمـــة التـــي حـــدثت لنـــور؟ هـــل ســـأردّ لنـــور ضـــحكتها؟ هـــل ســـأعيد إليهـــا طفولتهـــا؟ هـــل ســـأرتق الجـــرح الـــذي أحدثـــه المقصّ بين فخذيها وفي روحها؟

ألقيـــتُ رأســـي علـــى المكتـــب وأنـــا أنصـــت إلـــى ضـــجيج الأفكـــار المتلاطمـــة. اهتـــزّ كـــلّ داخلـــي عنـــدما ســـمعتُ صـــرير البـــاب. رفعـــت رأســـي بتثاقـــل فـــإذا بزوجـــي يـــدخل عائـــدا مـــن صـــلاة المغـــرب وفـــي يـــده الســـجّادة. بـــدت لـــه حـــالتي غريبـــة فتفـــرّس فـــي وجهي بدهشة وقال:
- ما بكِ؟ ما الذي حدث؟
لم أستطع أن أجيب، ظللت أحدّق فيه ورأسي ملقى على المكتب فسألني ملحّا:
- ما الذي حدث، أجيبي؟
- لقد حدثت الفاجعة.
حدّق في فزعا:
- أية فاجعة، تكلّمي؟
قلتُ بصوت ذابل:
- خُتنت نور هذا المساء.

- مَنْ نور هذه؟ عَمّن تتحدّثين.؟
- لقد تَركت السّاردة سيفا يفعلها وتمّت الجريمة منذ قليل، هل يمكن أن يحدث هذا فعلا في تونس؟
تراجع زوجي خطوة إلى الوراء وهو يقول بذهول:
- هل تتحدّثين عن رواية؟
أجبتُ بإيماءة من رأسي "نعم".
نفخ في الهواء بشدّة وقال:
- يبدو أنّك جننت فعلا؟ أحقّا تتحدّثين عن رواية؟ كيف يفعل بك عالم خيالي كلّ هذا.؟
ثم عدّل وقفته وعاد يقول:
- أفيقي من أوهامك قليلا يا امرأة، ستدمّرين نفسك وعائلتنا بهذه الهواجس المرَضية.
قلتُ دون أن أنظر إليه:
- من كان يتصوّر أنّنا سنتحدث عن خِتان البنات في تونس.؟
هل يعقل؟ في تونس المشهورة بنصرة المرأة، أن يثار هذا الموضوع وترتفع الأصوات في الواقع و في الفايسبوك بين مؤيد ورافض؟ أين ذهبت مجلّة الأحوال الشخصية؟ أهذا ما انتظره النّاس من الثّورة؟ أهذا كلّ ما استطاع الإسلاميون جلبه لنا؟
ظلّ صامتا!
نظرتُ إليه بطرف عين، قلت وأنا أُجهد نفسي لأرفع جسدي عن المكتب وأعدّل جلستي:
- خذلتني ليلى، زوجة سيف، لم أكن أظن أنّها ستترك زوجها يختن طفلتهما فيدمّران حياتها.
نظر إليّ بشفقة. بدوتُ له سابحة في الأوهام. لم يتكلّم، فتابعتُ:
- هي ليست رواية خيالية، إنّها واقع حقيقي، فنحن نلتقي أشباه سيف يوميا في الشّارع.
أجاب بهدوء:
- إن كان في الحياة من يفكّر بتلك الطريقة فهو حرّ.
رجّني ردّه، شعرتُ بأنّه يسكب البنزين على رأسي:
- ماذا تقول؟ هل هو حرّ في خِتان ابنته؟
أجاب، بهدوء وهو يقترب منّي ويضع سجّادة الصّلاة على مكتبي:
- نعم، هو حرّ وتلك طريقته في الحفاظ على عفّة ابنته وصون شرف العائلة.
كأنّه ألقى عود كبريت في رأسي:
- ما معنى هذا؟ أيمكن أن تفعل أنت هذا بطفلتنا؟ طفلتنا التي أريد لها حياة أفضل تعيدها أنت إلى زمن الختان؟ تعُدّها مجرد فَرْج يرتدي ثيابا و يحق أن تسرق حياتها؟

- بعد أن أصبحت نسبة الانحلال الأخلاقي لدى الفتيات عالية يحقّ لكلّ أب أن يصون عِرضه بالطّريقة التي يراها مناسبة.
صرختُ، بجنون وأنا أقترب منه ورذاذ بصاقي يتناثر على وجهه:
- هل يعني هذا أنك قد تفعل هذا بابنتنا؟ لن أسمح لكَ بأن تعبث بحياة ابنتي ولن أتركك تقترب منها؟ لا يمكنك أن تتنبّأ بما يمكن أن أفعله بك إذا لمستها بسوء؟
تراجع خطوة إلى الوراء وهو يقول:
- إنّك تخلطين بين الرّواية والواقع، بين الخيال والحقيقة، عودي إلى رشدك واهتمّي ببيتنا أكثر وكفّي عن عالم الجنون هذا الذي تسمّينه كتابة!
- الجنون هو ما يقع في تونس الآن، وأنا عليّ أن أحمي طفلتي من مثل هذه الجرائم. هل فعلا تفكّر مثل سيف؟
- هذا ليس مطروحا الآن، لكنْ إن كانت هي الطّريقة الوحيدة المناسبة لصونها حينذاك سنتحدّث في الموضوع.
صرختُ:
- ماذا؟ نتحدّث عن ختان طفلتنا؟ هل فقدتَ صوابكَ؟ هل يعقل أن أرفض الفكرة في رواية وأجدها في بيتي؟
تقدّمتُ منه وأنا في حالة رعب وصرختُ، ملوّحة بيدين مرتعشتين:
- لا أصدق أنّكَ يمكن أن تفعل هذا بطفلتنا؟ هل جننتَ يا رجل؟
برقت في ذهني أحداث الرّواية فصرختُ به:
- لن أكون شريكة في الجريمة مثل ليلى، إن فعلت ذلك بطفلتي قتلتُك!
اقترب منّي قليلا، محاولا تهدئتي:
- إنّها مجرّد رواية لم تحدث في الواقع بعد، الأَولى أن تهتمّي بشؤون بيتك وتتركي الكتابة وكلّ هذه الأشياء التّافهة ما دامت تنغّص عليك هدوءك.
صرختُ، وأنا أدور في مكاني:
- من قال إنّها لم تقع؟ إنّها تحدث في أذهانهم ويبرّرونها، وهذا يعني أنّها يمكن أن تحدث في الواقع أيضا، ومهمّتي أن أواجه مثل هذه الجرائم حتّى إن كانت باسم الدّين.
- ليس عليك فعل شيء، ما يحدث الآن في البلاد لا أحد يستطع ردّه، الأفضل أن تتركي الكتابة وتهتمّي ببيتك.
- لماذا تريد أن تختزل وجودي في مشاغل بيتي الصّغير؟ أنا كاتبة ومن واجبي أن أهتمّ بما يجري خارج بيتي.
- لا تستطيعين تغيير شيء، لا تهدري طاقتك في ما لا ينفع، لا جدوى من الكتابة اليوم، وموهبتك لا قيمة لها في مجتمعنا، صدقّيني بيتكِ أولى بكِ.
آلمني أن يتحوّل التّصادم الفكري الشّديد بيننا إلى تعارض كبير في الحياة. يعرف جيدا أنّه ينتصر عليّ كلّما بخس موهبتي الأدبية وحشرني في البيت لتجرّني مشاغل الحياة اليومية إلى حيث لا أريد. وتذَكّرتُ كم أنّ هذه المشاغل تهدّد فعلا موهبتي بالضّمور، أشعر بأنّني عاجزة عن التّفكير كلّما حُشرت في

مهمّتَـيْ الطّـبخ والغسـيل. وجـدت أنّـه مـن غيـر المجـدي أن نواصـل جـدلا عقيمـا لا يؤدّي إلى نتيجة.
- أنت لا تفهمني.
اكتفيـت بهـذه الجملـة دون أن أنظـر إليـه، وكـأنّي أستسـلم فجـأة لحظّـي البـائس الـذي رمى بي عند هذا الزّوج الغبي.

***

كـان الـزّوج ينظـر إليهـا كأنّهـا كـائن غريـب. يعـرف جيـدا أنّ الكُتّـاب علـى حافّـة الاكتئاب دائما، لكنّه لا يصدق أنّهم يقتربون من الجنون أيضا.!
تمتم مشفقا "لا حول ولا قوّة إلا بالله"!
تنظـر الزّوجـة فـي الفـراغ فتصـدمها هـذه المسـافة الشاسـعة التـي تفصـل بينهـا وبـين الواقـع. تشـعر بالغربـة فـي بيتهـا وبالوِحـدة فـي الـبلاد، ولا شـيء يمكـن أن يعيـدها إلى ذاتها سوى الكتابة.

***

نَظرتُ إليه وأنا أحاول أن أجمع ما تبعثر منّي.!
لا جدوى من الحديث معه، فلن يفهم ما أشعر به.

(كـم هـي شـاقّة مهمّـة المـرأة الكاتبـة، تعـذّبها أفكارهـا وتسـتنزفها تفاصـيلُ الحيـاةِ اليوميـةِ الصـغيرةُ وتتآكلهـا مشـاغل البيـت وتهـدّها متطلّبـات زوج أنـاني وترهقهـا رعاية طفلتها الوحيدة، ثم تضنيها هواجس إبداعية وتعييها أحلامها الأدبية).

لا أدري كـم مـن الوقـت مـرّ، لكنّـه بـدا لـي طويـل، وكـان يجـب أن أقطـع هـذا الصّمت البارد الذي يخيم على البيت. ارتفع صوتي مرهَقا:
- هل أعدّ لكَ العشاء الآن؟
أجاب بإيماءة من رأسه "نعم".

(عـوض أن تـذهب إلـى المطـبخ دخلـت غرفـة النـوم، وبـدل غرفـة الطّعـام اتّجـه إلـى الشّرفة المطلّة على الشّارع...
كان نشيجها يتسلّل من الغرفة ويصل إلى الشّرفة متقطّعا).

31

أَتذَكّرُ ذلك اليوم.!
كان حزينا بما يكفي لتتوقّف طفولتي وأنزوي في ركن مظلم لا ينتبه إليه أحد. كان يوما رهيبا لا أذكر تفاصيله بدقّة ولا تسعفني اللغة بالكلمات المناسبة وأنا أكتبه الآن، لكنّي أذكر جيدا ذلك المقصّ الكبير الذي ولج الفضاء المنحصر بين فخذي وقد شُدّتا بقوّة إلى الخلف. أذكر تلك اللّسعة التي انخلع لها قلبي. كنت كالعصفور الذي يريد التملّص من قبضتَيْ أبي الحديديتين ويطير بعيدا.

حارقة جدّا تلك اللّسعة، كأنّ المقصّ جزّ طرفا من روحي.

أتَذكّرُ أنّي كنت أصيح بشدّة، أتلوّى وأهمّ بأن أطير لكنّ أبي قطع جناحَي وسلب قدرتي على التّحليق. بعينيّ، اللّتين تفيضان دمعا، رأيتُ الغرفة شبه مظلمة والباب مغلقا وكذلك النّافذة. لطمتُ رأسي على الوسادة. حاولت التملّص من القبضتين الحديديتين. أحببت أن أطير، أردت أن أطير، تمنّيت أن أطير!
لا منفذ ولا حتّى شقوق النافذة الصّغيرة المغلقة يمكنني أن أتسرّب منها وأرمي نفسي في الفضاء الفسيح وأطير.

هناك أيام لا تُنسى لبهجتها الباذخة أو لأوجاعها الحارقة.

بلغتُ التاسعة عشرة الآن، ولا أنسى ذلك اليوم ولا أنسى تلك اللحظة!
تلك اللّحظة اختزلت كلّ عمري في لسعة مقص! في ما سبق تلك اللّحظة كنتُ طِفلة وفي ما تلاها صرت طِفلة إلّا قطعة، إلّا جزءا صغيرا لم أدرِ ما هو. اقتُطع منّي شيءٌ لا أعرفه لكنّي أصبحت أشعر بأنّ شيئا ينقصني وظلّ إحساسي بالنّقصان يلازمني. ما حدث في تلك الغرفة كان غامضا وموجعا.
ما فعله بي أبي وصاحبه كان كبيرا على عقلي الصغير...

أهكذا يفعل الآباء ببناتهنّ؟
أيستقوي الأب على طفولة ابنته بغريب يمدّ مقصّا كبيرا يتوغّل بين فخذيها؟
هل كان يجب أن تكون الغرفة شبه مظلمة والباب موصد والنافذة مغلقة بإحكام، كعادتها، لتنجح الجريمة؟
لا أدرِي ما الذي حدث يومها، لكنّ شيئا في عقلي يقول لي إنّ ما حدث كارثة لأنّه آلمني كثيرا..كانت الدّماء الغزيرة تندفع من ثقب في جسدي حتّى لوّثت يَدَيْ ذلك الغريب ومقصّه واللّحاف.
ما حدث كان جرحا في طفولتي وفي ذاكرتي وفي روحي؛ كأنّ المقصّ ولج قفصي الصّدري واقتطع منّي شيئا ثمينا إلى الأبد.!

أتـذكّر أنّنـي تألّمـت بشـدة، بكيـت بحُرقـة، صـرخت بقـوّة ولـم ينقـذني أبـي مـن وحشـية الغريـب، الـذي انقـضّ علـي بمقصّـه. لـم يمنـع عنّـي أبـي لسـعة المقـصّ، التـي مـا زلـتُ أشـعر بهـا إلـى الآن علـى طـرف ذاكرتـي. ولـم أسـتطع حتّـى بعـد أن كبـرتُ أن أغفر له ذلك.

كانـت الغرفـة المغلقـة تعـجّ بصـراخي وكنـت أتلـوّى مـن شـدّة الألـم. أمـدّ رأسـي المـرتعش لأطـلّ علـى نصـفي الأسـفل، هنـاك حيـث لسـعني المقـصّ. أرى دمـائي الغزيـرة القانيـة قـد لطّخـت فخـذيّ واللّحـاف الـذي كـان تحتـي، فـأمتلأت رعبـا وأفـرغ بشـدة كـلّ مـا فـي صـدري مـن صـراخ. تيبّسـت يـداي وبـرزت عـروق رقبتـي وازداد صـراخي. كنـت أنـادي أمّـي التـي خـذلتني ولـم تنجـدني. كنـت أنـادي أبـي الـذي لـم يـرأف بحـالي. كنـت أنـادي ربّـي الـذي خـذلني وأنـا طفلـة ولـم ينقـذني مـن قبضتَي أبي ومقصّ الغريب.

تلك اللّحظة اللاّسعة لا أنسى حرارتها.

ذلك اليوم الحزين لا أنسى مرارته.

الآن، ينكمش قلبي وتنزّ ذاكرتي من شدّة الألم.!

حانـت منّـي التفاتـة فـإذا بالغريـب الـذي أتـى بـه والـدي يُعـدّ ضـمادة. كنـت أهـزّ نصـفي الأسـفل رافضـة أن يلمسـني ثانيـة. كنـت فزعـة منـه، فـلا أتركـه يُعمـل فـيّ الضّـمادة كمـا أعمـل منـذ قليـل مقصّـه. فـي تلـك اللّحظـة دخلـت أمّـي الغرفـة وصُعِقَتْ.!

كانـت تنظـر إلـي مـأخوذة ومرتعبـة، رغـم ذلـك لـم تفعـل لـي شـيئا. أشـعر بمـرارة فـي حلقـي عنـدما أتـذكّر أن أمّـي لـم تخلّصـني مـن قبضـتيْ أبـي ولـم تبعـد الغريـب عنّـي. انتظـرت أن تنقـذني لكنّهـا لـم تفعـل. كـان عنـدي أمـل كبيـر أن ينقـذني ربّـي، غيـر أنّـه لم يفعل أيضا.!

لم ينقذني أحد وشعرت بإحباط شديد.!

كنـتُ فـي السّادسـة مـن عمـري تقريبـا، وهـا قـد مضـى زمـنٌ ولسـعة المقـصّ تلازمنـي، لـم أقـدر علـى النّسـيان. لـم تُمـحَ تلـك اللّحظـات الجارحـة الموغلـة فـي الإيلام. تلك اللّحظات الحارقة ظلّت توجعني وما استطعت محو تفاصيلها.

منـذ تلـك الحادثـة، أصـبحت أكـره الرّبيـع، فـلا أطيقـه وأكـره أيـامي، فـلا أحياهـا وأكـره جسـدي، فـلا أُقبـل عليـه وأتفـادى النّظـر فـي عينـيْ أبـي وأحـبّ أن أصـرخ فـي وجه أمّي وأتمنّى أن يبرّر لي الله صمته عندما تركهما يفعلان بي ذلك.!

(تتوقـف نـور عـن الكتابـة، تلقـي رأسـها علـى الطاولـة وتبكـي، الـدموع المنسـابة بغـزارة تركـت بقعـة واسـعة فـي مسـاحة بيضـاء مـن الـورق كـأن الـدموع تكتـب أيضا ما تخلّفت نور عن كتابته بالقلم).

لأسباب غير واضحة، فكّرت السّاردة في حذف هذا الفصل ، ترددت قليلا ثم أبقت عليه.!

32

مـرّت سـنوات عديـدة علـى ذلـك الرّبيـع الأَسْـوَد، علـى ذلـك اليـوم الحـزين، علـى لسـعة المقـصّ الحارقـة. لا أسـتطيع نسـيان مـا حـدث ولا أسـتطيع النّظـر فـي وجـه أبـي. أحـبُّ أن أرسـل نظراتـي الثّاقبـة إلـى عينيـه فأنفـذ إلـى تلـك الفكـرة المـدمّرة التـي جعلتـه يـأتي بالغريـب إلـى بيتنـا وفـي يـده مقـصّ كبيـر يُولِجـه بـين فخـذَي. أحـبّ أن أدخـل عقلـه وأفتّـت تلـك الفكـرة، لكنّنـي لا أقـدر. لعـلّ أبـي لاحـظ أنّـي لا أطيـل النظـر إليه. كلّ مواجهاتنا عابرة، ولعلّه حَسِبَ أنّي أتهيبه. يا لسخرية القدر!

أدرك جيـدا الآن أن طفـولتي مـرّت حزينـة، مـا حـدث جعلنـي حزينـة جـدا. ضـحكاتي خاليـة مـن البهجـة، ثمّـة مـا يجعـل ضـحكاتي بـلا ألـق ونظراتـي بـلا وميض ساحر.
كنـتُ، ككـلّ الأطفـال، أحـبّ اللّعـب، إلّا أنّ شـيئا مـا كـان يجعلنـي أكـبح انطلاقـي فـلا أسـتمتع. صـرتُ أحـبّ الانـزواء، لا أطيـق وجـوه الغربـاء وأشـعر فـي كـلّ لحظـة بأنّ ذلك الغريب بمقصّه الكبير سيطلّ.
فـي السادسـة مـن عمـري، أصـبحت طفلـة بـلا قطعـة مـن جسـدي. شـيء مـا جعلنـي أشـعر بـأنّي لسـتُ مثـل الأطفـال. شـيء مـا يجعلنـي أشـعر بـأنّي أقَـلُّ مـن أترابـي وبـأنّي لسـت مثـل بقيـة البنـات. لـم أدرِ مـا هـو الشّـيء الـذي اقتطـع منّـي ولـم يسـتطع عقلـي الصّـغير وقتهـا أن يفهـم لـمَ يجـب أن يُقتطـع ذلـك الجـزء مـن جسـدي. كـلّ مـا ثبـت فـي ذهنـي هـو أنّنـي أصـبحتُ طفلـة ناقصـة، ليسـكنني الشـعور بالنّقصـان بعـد ذلك إلى الأبد.!
كم كان هذا يعذّبني!
لـم أكـن أدري لِـمَ يجـب أن أكـون ناقصـة. وانتظـرت حتّـى كبـرتُ قلـيلا لتقـول لـي أمي إنّ ما اقتطع منّي يجعلني أفضل من الأخريات.

ما معنى أن أكون أفضل؟
يبـدو أنّ أمـي تفهـم ذلـك وتقـول إنّـي سـأكون أكثـر الفتيـات عفّـة وأشـدّهنّ شـرفاً. لـم أسـتطع وقتـذاك أن أفهـم مـا علاقـة بتـر جـزء منّـي بـأن أكـون أكثـرَ عفّـة وأشـدّ شـرفا. كنـت أتمنّـى لـو سـألت خـالتي ثريـا، لكنـي لـم أرهـا منـذ زمـن. لـم يكـن أبـي يريـد أن تزورنا، وهكذا انقطع خيط ربّما كان سينقذني من حيرتي.
راودتنـي أسـئلة كثيـرة لـم تكـن إجابـات أمـي عنهـا تقنعنـي، و لـم يخـفّ شـعوري بالنّقصان.
لماذا يرتبط الشّرف بالجسد؟
لم تخبرني واحدة من أترابي بأنّه اقتُطِع منها جزء لتكون شريفة.
ألا يحـبّ والـدها أن تكـون شـريفة؟ هـل أبـي وحـده هـو الـذي يريـدني كـذلك؟ لمـاذا تكـون الأخـلاق عنـده بـإيلاج الغريـب مقصـه بـين فخـذي؟ مـا علاقـة الأخـلاق بالمقصّ؟

أذكر السنوات تمرّ فتبعدني عن طفولتي لكنّها لا تبعدني عن ذلك الربيع الأسْوَد، عن ذلك اليوم الحزين، عن لسعة المقصّ الحارقة. كانت السّنوات تمرّ دون أن تمحو ذكرياتي الحزينة. أصبحتُ في الثالثة عشرة تقريبا، طالت قامتي وتكوّر لي نهدان جميلان ونبتت لي شُعَيرات في أماكن خفيّة ولم أتخطّ بعد تلك اللحظة. كنت أرتجف خوفا من جسدي. لم ترقني تلك التحوّلات، أحببت أن أظلّ طفلة، وإن ناقصة.

في خلوتي كان فضولي يدفعني إلى تحسّس نهدَي. كنت أعجب لشكلهما وكان سيروقني تكويرهما المتناسق لولا أنّ شعورا يفاجئني فينبعث صوت من داخلي يقول بحدّة:

- عيب ما تفعلين، أزيحي يديك من هناك؟

بسرعة، أستجيب لهذا الصوت الخفي الذي كرهته كثيرا ولم أكن أدر وقتها كيف أتخلّص منه. صوت يشبه في أوامره الزّجرية صوت أبي. وصدقا، لم أكن أحبّ صوت أبي، كان يبدو فظّا أكثر ممّا يجب. يبدو هذا الصّوت صاعدا من بطني ويشبه في تعليماته الأخلاقية صوت أمّي، ولم أكن أطيق أمّي. كانت ضعيفة جدّا أمام أبي، منصاعة بلا مبرّر أمام سلطته المطلقة. تبدو حزينة دائما ولا أفهم سرّ حزنها. في المقابل تعجبني خالتي ثريا. أحبّها كثيرا، رغم أنّها لم تعد تزورنا. كان تعلّقي بها شديدا وآلمني كثيرا غيابها، شعرت بأنّ جزءا آخر اقتطعه أبي منّي.

لماذا يفعل بي كلّ هذا؟

عندما غابت عنّا خالتي ثريا شعرت بالعزلة وبالفراغ وبالخوف أكثر. لم يتبقَ لي من الأشياء التي أحبّها غير وحدتي. يعنّ لي في وحدتي أن أتحسّس جسدي، الذي بدأ يتمرّد عليّ متّخذا شكلا آخر جعلني أقطع مع طفولتي التي سُرقت منّي، فصرت حزينة أكثر.

بفضول، أتحسّس تلك الشّعيرات الغريبة عنّي. أشعر بتقزّز، أحشر المرآة بين فخذي وأطلّ على هذا الشّيء الغريب. أتلمّس في أعلاه ندبة غائرة فينقبض قلبي بحدّة. من هنا اقتطعوا شيئا ما قالوا إنّه سيجعلني شريفة. !

وأسأل الآن، لماذا اختار الشّرف أن يسكن هذا المكان السفلي؟ كان أولى به أن يختار مكانا أرفع لا يقترب فيه من مجرى البول!

لماذا لا يسكن الشرف الرّأس، مثلا، فيأخذ شكل تفكير نبيل، أو يسكن العين، فيكون صورة جميلة مثلا، أو يسكن الفم، فيكون كلاما طيبا؟

كان جسدي يتفتّح رغما عنّي وأسئلتي لا تتوقّف.!

33

لـــم أســـتطع أن أردّ الجريمـــة عنـــي، لكنـــي أحـــاول الآن أن أكتبهـــا، أشـــعر أن الكتابـــة تطهرنـــي، أتخلـــص أثناءهـــا مـــن ضـــعفي ومـــن تشـــوهاتي غيـــر أنهـــا لا تخلصـــني مـــن البقـــع الســـوداء التـــي لطّخـــت ذاكرتـــي وأعجـــز عـــن إزالتهـــا. مُجبـــرة علـــى تحمّـــل نفســـي، بالشّـــجن السّـــاكن فـــي صـــوتي، بملامحـــي الحزينـــة، بطفـــولتي النّاقصة، وأيضا، بصباي الذي أطلّ عليّ مكسورا.

أذكـــر جيـــدا، وأنـــا فـــي الثالثـــة عشـــرة مـــن عمـــري أو يزيـــد، ذات يـــوم اســـتيقظت بـــاكرا. كنـــتُ فـــي فراشـــي أتكاســـل ولا أجـــد فـــي أيـــامي أي حـــوافز تحثّنـــي علـــى الانطـــلاق ولا أي مثيـــر يـــدفعني إلـــى الإقبـــال علـــى الحيـــاة. كـــلّ أيـــامي موزّعـــة بـــين البيـــت والكـــولاج. رتابـــة اعتـــدتها ولـــم تعـــد تثيـــر فـــيّ أيـــة رغبـــة فـــي الاســـتمرار، تبـــدو لـــي حيـــاتي باهتـــة جـــدا ولا تســـتحق أن تُعـــاش. فـــي ذاك الصّـــباح شـــعرت بلزوجـــة بـــين فخـــذي فاندهشـــت. تســـرّبت يـــدي بـــبطء إلـــى ذلـــك المكـــان، تحسّســـت بأنـــاملي ذلـــك السّائل المقزّز اللّزج. رفعت أناملي فإذا هو دم أحمر قانٍ وصُعقت!
يـــا إلهـــي، هـــل أتـــى أبـــي بـــذلك الغريـــب ثانيـــة، وفـــي غفلـــة منّـــي أَوْلَـــجَ مقصّـــه بـــين فخذي؟
كـــان مقـــصّ الغريـــب أوّل مـــا وخزنـــي. لـــم يكـــن يعنينـــي أن أتـــذكّر أســـتاذ العلـــوم يفسّـــر لنـــا الحـــيض بملامـــح جامـــدة وصـــوت صـــارم تتخلّلـــه وشوشـــات التّلميـــذات التـــي يخنقهـــا الخجـــل. لـــم يكـــن يعنينـــي - أيضـــا- أن أهـــتمّ بأســـئلةِ التّلاميـــذ الـــذّكور، الـــذين يفتعلـــون الفضـــول ويطرحـــون أســـئلة مـــاكرة فتنتشـــر الهمهمـــات الضـــاحكة فـــي الفصـــل. كـــلّ مـــا وَخَـــزَ ذاكرتـــي فـــي تلـــك اللّحظـــة هـــو صـــورة الغريـــب والمئـــزر الأبـــيض والحقيبـــة الطبيـــة الصّـــغيرة والمقـــصّ الملطّـــخ بالـــدّماء وصـــرخاتي المريعـــة وخذلان أمّي وأبي وربّي!
ذلـــك الصـــباح الـــذي زارنـــي فيـــه الحـــيض لأول مـــرة نســـيت كـــلّ مـــا قـــرأتُ عنـــه وتـــيقّظ فيّ ما عشتُ.!
هل قدّر لي أن يرعبني المقصّ أبدا؟
يا إلهي، أي كابوس يسكنني؟

لـــم أكـــن أعـــرف مـــا أفعـــل، أو بـــالأحرى لـــم أســـتطع فعـــل شـــيء، كـــأنّ هنـــاك مـــا يكبّلنـــي. تكـــوّرتُ فـــي فراشـــي كقطّـــة هزيلـــة ســـكنها الخـــوف وارتسَـــمَت علـــى ملامحـــي وعينـــيّ وحركـــات يـــدي غيـــوم مـــن الحـــزن والحيـــرة والقلـــق. شـــعرتْ أمّـــي بتـــأخرّي فـــي الاســـتيقاظ ووقـــت الصّـــلاة يوشـــك أن يفـــوتني، فقـــد غـــادر أبـــي إلـــى الجـــامع للالتحـــاق بصـــلاة الفجـــر منـــذ زمـــن. ظلّـــت أمّـــي تستنهضـــني وأنـــا أتلكّـــأ علـــى غيـــر عادتي.

بدأ الصباح يطلّ على المدينة ومازال سواد اللّيل يسكن أعماقي الحزينة.
مازلت متكوّرة في فراشي وذلك السائل اللّزج يلطّخ فخذي. لم أعرف أين أخبّئ أصابعي عندما أطلّت أمّي وقالت:

- هيا يا صغيرتي، ستفوتك صلاة الفجر، ثمّ يجب أن تراجعي دروسك قبل ذهابك إلى الكولاج.

لم أردّ عليها. لم تكن لدي كلمات أقولها ولا قدرة على تحمّل أسئلتها، فقط انفجرت باكية. أذكر أنّها اندهشت واقتربت منّي متسائلة:

- ما بك، ما الذي حدث؟

لم أجبها، انخرطت في البكاء وأنا أتكوّر، وعندما اقتربت منّي لتحضنني وقد ملكتها الدهشة، مددت لها يدا مرتجفة وأصابع ملوّثة بالدّم. نظرت إلى يدي الممدودة ونقلت بصرها بسرعة إلى أصابعي. تغيرت ملامحها ثمّ صارت حيرتُها ضحكة مدوية:

- أخيييييرا، لا بأس يا ابنتي، لا تخافي.!

كنت ما أزال متكوّرة وقد تلبّستني الحيرة، لم أقو على سؤالها.
كنت أريد أن أسألها، مثل كلّ مرّة، لماذا أتى أبي بالغريب.؟
لم أنسَ ذلك اليوم الحزين الذي يطلّ علي كلّما انفردت بجسدي. لماذا يقف الرّجل الغريب بمئزره الأبيض حاجزا بيني وبين ضحكاتي.؟
كانت أسئلتي تتزاحم في حلقي ولم تكن أجوبة أمّي تقنعني.

- أنتِ لم تعودي طفلة، لقد صرتِ الآن صبية.

لم يكن يعنيني ما تقول لي، فقط كنت أحبّ أن أفهم لماذا أشعر بأنّ لكلّ شيء في حياتي علاقة بمقصّ الغريب؟
مدّت لي أمّي فوطة في حجم الكفّ وأرتني كيف أثبّتها على كلسوني ولم تحدّثني أكثر. لم نعتد الحوار في بيتنا. لا أذكر أنّ أمّي - الواسطة بيني وبين جسدي وبيني وبين العالَم - استطاعت أن تجيبني عن كلّ أسئلتي. هناك حجاب أسود يُسدل على مثل هذه المواضيع.
كأنّ الحجاب قدَري، يغطّي جسدي ويحجب عنّي الأجوبة التي قد تشفيني.

هل الجسد عيب.؟

ألهذا تنصبّ الشّتائم دائما على الأنصاف السفلى للأمّهات والأخوات والخالات؟ ألانه عار تتكتّم أمي عن الحديث عنه وتخفيه بمثل تلك الجلابيب الفضفاضة الواسعة وتزيد فتسدل على وجهها ستارا شفّافا من القماش، مكتفية بثقبين تطلّ منهما عيناها، كأنّ الحياة لا تستحقّ أن ننظر إليها إلّا من ثقبين صغيرين؟!
بعد حادثة المقصّ، التي أحدثت ندبا في جسدي وعقلي، كرهت ذلك الشّيء المشوّه بين فخذيّ وكرهت جسدي كله.
حذّرتني أمي يومها:

- هـذه الأيـام لـن تقربـي الصّـلاة ولـن تقرئـي القـرآن الكـريم لأنّـك لـم تعـودي طاهرة، انتظري نهاية أيام حيضك ثم اغتسلي.

أغلقـت أمّـي بـاب غرفتـي خلفهـا وبقيـت وحـدي مـع جسـدي المـدنّس وقلقـي الـذي ينخرني من الدّاخل.

أتوقـف عـن الكتابـة قلـيلا، أتلهّـى بذبابـة تحـوم حـولي فألاحقهـا بحركـة مـن يـدي وتكون اللحظة مناسبة لأمرر كفي على خدي أمسح دمعة طلت من عيني.

كـأنّ النّقصـان قـدَري: فـي طفـولتي تنقصـني تلـك القطعـة الصّـغيرة التـي اقتطعهـا منّـي مقـصّ الغريـب الـذي اسـتقدمه أبـي، وفـي صـباي تنقصـني الطّهـارة بهـذا الـنّجس الـذي يصـيبني واسـمه الحـيض، فـلا أسـتطيع أن أقتـرب مـن الله وأخبره بأحزاني وأسئلتي، التي لا أجد لها أجوبة.

كنـتُ أحـبّ أن أصـلّي فأحـدثُ الله فـي صـلاتي وأبثّـه شـكواي وضـعفي. كنـت، فـي الحقيقـة، أحـبّ ربّـي لأنّنـي أظـن أنّـه لطيـف لا يـؤذي البنـات الصّـغيرات وأنّـه طاهر لن يخلق في عباده نجاسة وأنّه طيب لا يؤذي أصدقاءه الأطفال.

كنت أحبّ أن أسأله لماذا خذلني؟ لماذا ترك أبي يفعل ذلك بي؟

لماذا لم يمنع عنّي مقصّ الغريب؟

ومازلت لا أدري لمَ يعذّبني دائما بأسئلتي التي لا أجد لها أجوبة ؟

عـدتُ - سـاعتها - إلـى فراشـي، تكـوّرتُ ثانيـة علـى حيرتـي وخـوفي وانخرطـتُ فـي نشـيج خفـيض. شـعرت أنّ جسـدي الـذي بـدأ يتغيـر تـدريجيا يتخلّـى عنّـي هـو الآخر. أحزنني الأمر ولم أجد لي حلّا سوى التوغّل في عزلتي.

ولم أكن أحبّ أن يشاركني أحد وحدتي.

بعـد يـوم مـن مباغتـة الحـيض لـي، تسـلّلت أمّـي إلـى غرفتـي، مبتسـمة وبيـدها جلابيب داكنة قالت لي وهي تبسطها أمامي:

- هـذه جلابيـب اشـتراها لـك والـدكِ، مـن اليـوم يجـب أن تسـتري نفسـك بهـذه الأثواب.

تفاجأتُ:

- أنا لم أطلب جلبابا.

أضافت أمّي، بصوت أرادت أن يبدو ليّنا وهي تلكزني والابتسامة لا تفارقها:

- أنـتِ كبـرتِ الآن، والمـرأة عـورة، يقـول الله عـزّ وجـلّ "وَلَا تَبَـرَّجْنَ تَبَـرُّجَ الْجَاهِلِيةِ الْأُولَى"، يجب أن تلبسي هذا!

نظـرتُ - يومهـا - إلـى الجلابيـب، كانـت سـوداء. لـم يكـن مـن عـادتي أن أواجـه أبـي بالأسئلة، كأنّي ورثتُ ضعف أمّي، كأنّها أرضعتني استسلامها.

هل تُراها الصّفات تورَّث، كما الملامح؟

كانـت تلـك الجلابيـب الواسـعة الفضفاضـة تؤكّـد ممّـا لا شـكّ فيـه أنّ تغيـرات جسـدي جمـوح بيولـوجي يجـب كبحـه، وأنّ نهـديّ المكـوّرين والمسـتنفرين عـار يجـب

حجبه وأنّني عورة يجب سترها. الألوان السوداء دليل على أنّ حياتي لا يليق بها غير الحِداد، ما دمتُ قد ولدت أنثى وأنّ صباي المتفتّح عنوة عنّي يجب طمره تحت هذه الجلابيب الفضفاضة. كأنّ وجودي في الحياة خطأ ويجب أن أعلن الحِداد عليه بهذا السّواد!
أخذتُ الجلابيب من يديها ونظرت إليها.
ما زالت تبتسم.!
كالعادة كانت ابتسامتها بلا ألق، تماما كنظراتها، كأنّه لا علاقة لأمّي بالحياة.
كأنّها جثّة تتنفّس ولا تتقن غير الصّلاة وشؤون البيت والخضوع لأبي.!

تقرأ الساردة مذكرات نور الموجعة وفي الوقت نفسه تودالتوقف عنها حتّى لا تتسرب إليها انفعالات الفتاة فتحبطها. لا تفهم كيف أنها فعلا مشدودة إلى هذه المذكرات من جهة و تريد أن تتوقف عن قراءتها من جهة أخرى.
بدا لها هذا البوح كأنه نواح.!
ألقت الساردة الأوراق على الطاولة بعنف، لم تكن لها طريقة للتّخفيف من توتّرها إلّا التعلّل بحاجتها إلى قهوة سوداء لم يستغرق إعدادها وقتا طويلا قبل أن تعود إلى مكتبها.
كانت الأوراق ترتعش بين أصابعها وهي تقرأ.!

34

في التاسعة عشرة الآن، مختبئة في جلابيبي السوداء والخُمُر الواسعة التي تبتلع وحدها نصفي الأعلى وتنسدل على نصفي الأسفل، أمشي كأنّي عمود إنارة معطوب وأجلس كأنّي كيس زبالة أسود ملقى على قارعة الطّريق. كانت الدّراسة نافذتي الوحيدة المشرّعة على الحياة، أرى العالم من نافذة اللّغات التي أدرس. أشعر بأنّها تبعدني عن لسعة المقصّ الحارقة، كما أشعر بأنّ الدراسة تلهيني عن طفولتي النّاقصة وصباي الحزين.

ينشغل زملائي التّلاميذ بحياتهم التي تضجّ بأغاني الراب وبالموسيقى الغربية الصاخبة التي تختلط بالقهقهات العالية والسّراويل الضيقة والنكات البذيئة ولهفتهم على الأعداد المرتفعة في الامتحانات، التي يحصلون عليها باجتهادهم أحيانا وبتوسّل الأساتذة وتملّقهم أحيانا أخرى، ومرّات متباعدة بوريقات صغيرة جدّا ينسخون فيها الدّروس ويدسّونها يوم الإمتحان في كفوفهم.

ينشغل الناس من حولي بحياتهم الرّتيبة، التي تخلخلها أحيانا تهديدات "شباب الإسلام" المتحصّنين بالجبال والغابات البعيدة بعد أن شُدِّدَ عليهم الخناق في المدن، فصاروا يذكّروننا بوجودهم من حين إلى آخر بتفجيرات ينفذونها، تسرق أرواحا من هنا وهناك. يشتدّ اللّغط بعد كلّ عملية إرهابية، ثم تُنسى.
كذا كنت أرى الناس حولي وأنا المنشغلة بحزني والحياة تمرّ قربي ولا تعبأ بي.

أذكر في سنتي الأخيرة في الكولاج، اقتربتُ مرات عديدة من ضحكات زميلاتي ودنوت من حكاياتهنّ الصّغيرة. تلصّصت على طفولتهنّ. حاولت أن أتثبّت إن كان قد مزّقها مقصّ كبير ولج تلك الفضاء الصغير بين أفخاذهنّ واقتطع منهنّ ما يجعلهنّ في مراتب الشّرف والعفّة؟
مرّات عديدة كنت أربّت على وجعي وأقول لي: آباؤهنّ يريدونهنّ شريفات - أيضا- ومن المؤكّد أنّهنّ عشن تلك التّجربة القاسية مع غريب يحمل مقصّا ويأتي قُبَيل صلاة المغرب. لكنّ شيئا لا أفهمه يجعلني أحدس أنّ مقصّ الغريب لم يلج ذلك الفضاء الصّغير بين أفخاذهنّ. كنت أشعر بأنّهن لم يعشن تجربتي المُرّة و لم يذقن حزني القاسي.

لا أعرف كيف أفسّر هذا الحَدس الذي يقول لي إنّ طفولتهن ليست ناقصة، ربّما لأنّني ألمح بريق الحياة في نظراتهنّ أو لأنّ قهقهاتهنّ مدوية. ولم أظفر بما يخفّف حيرتي حتى وصلت السّنة التاسعة من التّعليم الأساسي.

ذات صباح أذكره جيدا، في فترة استراحة بين حصّتين، لفت انتباهي مصادفة همس مجموعة من الزّميلات تخللته ضحكات منفلتة، فاقتربتُ بهدوء وقلتُ مبتسمة:

- السّلام عليكنّ ورحمة الله وبركاته.

ردّت واحدة اسمها رحاب:

- سلام.

ثم أضافت بابتسامة عريضة:

- أخشى ألّا يروقك حديثُنا؟

قلت معلنة فضولي:

- بل يروقني حديثكنّ، عن أي شيء تتهامسن؟

أجابت بضحكة ماكرة:

- عن دنيا جميلة!

وأعقبت أخرى وهي تغمز:

- عن فيلم fifty shades of grey!

لم أفهم ماذا تقول، ظللت أنظر إليها ببلاهة فقهقهت الفتيات ضحكا مني.

كنت أبدو مثيرة للشفقة فقد هتفت إحداهن:

- انها تحدثك عن فيلم أمريكي يعجّ باللقطات الساخنة.

ابتسمت بهدوء وقلتُ أستحثّها على البوح، متمنّية ألّا يخيب ظنّي هذه المرّة أيضا:

- أنا لا أفهم كيف تفكّرن هكذا؟ من المفترَض أن تكنّ شريفات..

أجابت رحاب بسؤال (وقد اتّكأت بمرفقها على كتف إحدى زميلاتنا) وغمزت:

- ما معنى ذلك؟

تردّدتُ قليلا، ثمّ استجمعتُ كلّ قواي وألقيت كلامي دفعة واحدة:

- المفروض أن تكنّ مختونات فلا تسعين إلى مشاهدة أفلام مثيرة!

كأنّ قنبلة انفجرت!

صُعِقْنَ وخيم الصّمت الثّقيل حتّى حسبته دهرا. سَحبتْ رحاب مرفقها واستقامت في وقفتها، ثمّ اخترقت الصّمت الصّاعق الذي خيم وسألت:

- ما معنى مختونات؟

وتزاحمت أسئلة البنات حولي:

- هل تتحدّثين عن ختان البنات؟

- هل نملك قضيبا حتّى نُختن؟

- هل أنت مختونة؟

- هل قالوا لك انظري إلى العصفور في السقف، ثم قطعوه لكِ؟

واندفع صوت رحاب ساخرا:

- دقيقة، أنزل تبّاني لأتثبّت إن كنت مختونة أم لا ؟

تداخلت أسئلة الفتيات وقهقهاتهنّ المنفجرة. شعرت بحرارة تسري في كامل جسدي وتصعد إلى وجنتي. شعرت بأنّي أتلاشى عندما اخترقني صوت رحاب سائلة:

- من أي زمن أتيتِ يا نور؟ هل فعلا تفكّرين هكذا؟
شعرت بأنّي تورّطت. ورغم ذلك كان عليّ أن أتكلّم، فهذه فرصتي التي ستحرّرني من قلقي وتزيح حيرتي الجاثمة على صدري في الآن ذاته:
- هل يعني هذا أنّكنّ غير مختونات؟
انفجرت القهقهات من جديد، كأنّها جوقة. انتبهن إلى أنهنّ أمام واحدة لا تشبههنّ، جاءت من زمن غريب وبفكر غريب وأسئلة غريبة. انهالت عليّ تعليقاتهنّ السّاخرة بما لا أستطيع تذكّره.

عدتُ - يومها - إلى مكاني، عدتُ إلى تلك الوحدة التي تعذّبني، إلى العزلة التي أدمتني. عدت وقد تأكّدت – ساعتها - ممّا كنت أخشى. لقد جاء أبي بالفكرة من رأس نَخَرَه السوس لأحد الدّعاة البائسين. !
إلى الآن لم يقبل النّاس تلك الفكرة الصّدئة في بلادي وظللت وحدي مسخاً يُطلّ من زمن قديم بندبة بين فخذي وجرح في الرّوح لا يندمل.
لقد صدق حدسي. لم تعش أي من الفتيات تلك التّجربة القاسية، لا طفلة غيري في تونس استقدم أبوها غريبا يرتدي ميدعة بيضاء وبيده بعض أدوات طبّية ومقصّ أولجه في الفضاء الصّغير بين فخذيها ثمّ اقتطع جزءا منها إلى الأبد. لا طفلة غيري كانت فأر تجارب اختبرت فيها نظرية فاسدة ودفعت وحدها الضّريبة.
تكوّرت – يومها - في مكاني في الفصل، ولم يكن لأي أحد أن يلحظ أنّي في هدوئي العميق تأكلني النّار من الدّاخل وتأتي على أسئلتي فتزيدها اشتعالا.
عند عودتي إلى البيت صفقتُ الباب خلفي وصرختُ:
- أمّي، أمّي، أمّي...
اقتفيت أثر صوتها يجيبني "أنا هنا"، فإذا هي في غرفة النّوم، ترتق فتوق بعض الأثواب. صرختُ:
- لماذا فعلتما بي ذلك؟
رفَعَتْ بصرها مذهولة لكنّها سرعان ما أدركت علّة وجعي:
- عزيزتي، أبوك من أراد ذلك. إنّه مَكْرَمة للفتاة وحفظ لشرف العائلة.
قاطعتها، وقد غلبتني الدّموع:
- هذا غير صحيح، لم أجد في العلوم ما تقولين ولم تتعرّض أية واحدة من زميلاتي لما ذكرتِ.
غَصَّ صوتي بعد أن جعلته دموعي المنهمرة متعثّرا:
- من أين أتيتما بهذه التخاريف؟ لماذا فعلتما بي ذلك ؟
أربكتها أسئلتي فردّت، بصوت غاضب:
- ما هذا؟ إياك أن تنعتي شريعة الله وسُنّة رسوله الكريم بالتّخاريف. إنّ ما تقولينه كفر، عودي إلى رشدك واتركي هذه الهلوسات.

أذكر اني كنت أقف أمامها مثل لوح بارد أحملق في عينيها ببلاهة، يبدو أنها لم تتحمّل مني ذلك فأتت بصفعة مدوّية لم أدرِ كيف نزلت على خدّي

فارتفعت حرارة وجهي. لم تكفها صفعة واحدة فرفعت كفّها ثانية. بسرعة، تراجعتُ خطوة، ثمّ استدرتُ واندفعتُ إلى غرفتي وأغلقتها عليّ. ارتميت على سريري وقد أخذني بكاء شديد غاص بي في بحيرة من الدموع.

بكيتُ طفولتي النّاقصة وصباي المبتور وعمري الضّائع وصفعة حارقة. بكيتُ وحدتي الحزينة وضعفي وانكساري الشديدين. واصلتُ البكاء إلى أن خيل إليّ أنّي أسمع طرقاتها على الباب وصوتها يتوسّل إليّ أن أفتح. لكنّني لم أتوقّف عن البكاء إلى أن غفوت ورحلتُ بعيدا.!

عندما استيقظتُ كنت كجثّة ملقاة بإهمال. شعرت بجسدي ورأسي ثقيلين وكانت عيناي متورّمتين.

تلك الليلة بتّ دون عَشاء، ولأوّل مرّة، لم أصلّ العِشاء أيضا!

أسأل الآن:

- هل وُجدت الأديان لتجعل النّاس تعساء؟

35

ما إن سمع سيف الخبر حتّى تملّكته الحيرة. لا يحبّ أجواء الأعراس عادة، ينكر فيها كلّ تلك الفوضى وأغاني الميوعة التي تتراقص عليها الأجساد، وخاصّة إيقاعات المزود الشعبية التي ينتشي بها المدعوّون، والعياذ بالله. في الماضي كانت تبدو له تلك الأغاني رائعة يطرب لها كثيرا، بل يحدث أن يتنقّل مع أترابه من حي إلى آخر يقتفون أثر صوت المِزود حتّى يصلوا الحفل فينتشون بغنائه ويرقصون على إيقاعاته، وإن لم يدعُهم أحد. يحدث في لحظة منفلتة أن ينقلب الفرح إلى ساحة معركة، فتتطاير الشّتائم وقوارير الجعة وتتهشّم الكراسي ويعلو الصّراخ ولا تعود تعرف مَن ضدّ من، وفي الغالب لا يعود الهدوء إلّا إذا توقّفت سيارة شرطة أمام البيت الذي يقام فيه العرس.

زمن الشّباب كانت لسيف وأصحابه مغامرات وطرائف في سهرات الأعراس يبتسم لها الآن ثمّ يستعيذ من الشّيطان ويطلب المغفرة.
الآن، وبعد تلك السّنون ورغم لحيته التي خالطها الشّيب وهالة الورع والتّقوى التي أضفاها على نفسه، لا يمكنه أن ينكر أنّ أغاني المزود كانت المفضّلة لديه وأنّه مازال يجد فيها متعة وإن أنكرها في الظّاهر وتماسك، خوفا من أن تنقر رجله طرف الكرسي ترنّما مع إيقاعات الدربوكة في أغنية شعبية تأتيه من جهة ما في السّوق ويردّ عليها لسانه بالدّعاء، طالبا من ربّه أن يحفظه من شرّ الوسواس الخنّاس.

عرف سيف، من "ولد حدّة"، أنّ لبنى ستقيم حفل ختان ابنها في حيهم ذلك المساء. وبحكم الجوار فإنّها تدعوهم جميعا. سكن التردّد سيفا منذ سمع الخبر.
يا إلهي، إنّها هنا وثمّة مناسبة ليلتقيها.
لا يمكن أن يضيع هذه الفرصة الثّمينة فلا يراها. كبح رغبته قليلا واستعاذ من الشّيطان الرّجيم. إنّها الآن زوجة غيره وأمّ طفلين ولا يحقّ له أن يفكر فيها. لا بأس، إنّه ليس شابّا صغيرا ويستطيع التحكّم في رغباته.
ولّت تلك الأيام ولا مبرّر ليستعيد ماضيا رحل وحبّا انتهى. هل انتهى حبّه فعلا؟ إذن ماذا يسمّي دقّات قلبه المتزايدة كلّما ذكرها؟ كيف يفسّر هذا الحنين الذي يستيقظ كلّما خطرت بباله؟
تمتم سيف:
-"وإنّا لمّا سمعنا الهدى آمنّا به فمن يؤمن بربّه فلا يخاف بخسا ولا رهقا"، صدق الله العظيم.

يطمئن قلبه ويبتلع ريقه. يعرف أنّ الله سيساعده على هزم هذه المشاعر التي ينكرها على نفسه. يجب أن يتخلّص فعلا من كلّ ما يذكّره بها. لقد أجرمت في حقّه وهجرته ورضيت بأن تخرّب قلبه وتدمّر حياته من أجل نظّارات

شمسية ثمينة وسيارة فخمة يقودها أحدهم. الفقر مارد، ومن حقّ كلّ شخص أن يطمح إلى الأفضل. هل كان من الممكن أن يحقّق لها النّزر اليسير ممّا حلمت به؟ هو نفسه كان يحلم بسيارة فخمة ونظّارات أنيقة وبيت جميل ومال كثير مردّدا: "المال زينة الحياة".
تبّا لها، لمَ لمْ تأخذ معها هذا العشق الذي عشّش في قلبه؟ لمَ لم تستلّ الشّوق وهي تهجره؟
"عليها اللّعنة، فعلا.. إنّها لا تستحقّ أن أشغل نفسي بها".
يبدو عليه الاشمئزاز وهو يتذكّرها. يعاوده يقين بأنّه سيكرهها، لكنّ مارد العشق سرعان ما يستيقظ في قلبه ويوسوس له:

- كان يمكن أن تكون زوجتي وذاك الصبي طفلي، لكنّني لن أفسد حياة أحد إذا رأيتها، ما الذّنب الذي تراني أقترفه إذا التقيتها؟ يا إلهي، كلّ ما أريده هو أن أراها، أن يرتوي القلب من ابتسامتها فقط.

كلّما اقترب المساء ودنا موعد الحفل زاد تردّده وتضاعفت حيرته. ودّ أن يجد حلّا. وبعد أن طوّحت به الغيرة والشكّ وتنازعته الرّغبة والحنين والشوق، قرّر أن ينتصر للحكمة فيسكت صراع العقل والقلب الذي اشتدّ عليه.

عاد إلى بيته باكرا هادئا مطمئنا، بعد أن وصل إلى القرار السّليم. الآن يبدو أفضل حالا. استحمّ وشذّب لحيته واستلقى على أريكة في الصّالة. لم يكن يريد التحدّث إلى زوجته ولا السّؤال عن نور. لا بأس في استراحة من أعباء الحياة، قرار حكيم يجعله سعيدا كطفل لأنّه انتصر فيه لنفسه.

عند المساء غادر بيته، وبدون تردّد طرق باب بيتها. جارهم ولبّى دعوتهم، فجاء لتقديم التّهاني ومشاركتهم فرحهم، أليس هذا طبيعيا.؟
الآن سيرى لبنى.!

36

أحببتُ غرفتي كثيرا.
كانت تختزل العالم، أتجوّل داخلها بين مدن عديدة وعواصم مختلفة لم أعرفها إلّا في الصّور. في غرفتي أعبر الحدود وأتفسّح في شوارع كثيرة، أتمشّى على جسور وأصعد جبالا وأعبر أنهارا. في غرفتي ألتقي أصدقاء كثرا وأناقش أفكارا في الكتب وأقهقه لنكات ظريفة وأخرى بذيئة.
انزعجت أمّي من بقائي المطوّل في غرفتي، سألتني عمّا يعجبني فيها وقد بدت خالية إلّا من سرير وخزانة ومكتب ونافذة لا تفتح أبدا. أحيانا، كنت أتساءل مثلها ما الذي يشدّني إلى غرفتي؟ ما الذي يسكن جدرانها البيضاء التي تعلن الفراغ الفسيح؟
وما جدوى نافذةٍ لا تُفتح؟

عندما انفتحتُ على الكتب الأدبية واكتشفت الرّوايات أصبحتْ غرفتي عالما يضجّ بالحياة، لذلك اخترت لنافذتي ستائر وردية كانت كبستان مزروع في الحائط. قرب سريري علّقت مقولات نيتشه وأفلاطون وحِكَما مجهولة وألصقت صور مشاهير الفنّانين. على الجدار الأملس والأبيض مثل كفن ألصقت جدول أحلام فيه الرّوايات التي سأقرأ واللّغات التي سأتعلّم والعواصم التي سأزور. سأعزف يوما الموسيقى وسأتعلّم رقصة "التيك تونيك" التي تجيدها رحاب وتجعل كل زميلات الفصل منبهرات بها، وسأكتب يوما رواية عن حياتي التي عشتُ ولم أحيَ.

في الحقيقة، لم يكن ترتيب الأحلام مهمّا طالما أنّي سأحقّقها جميعها يوما ما، لا أعرف كيف لكنّها ستتحقّق يوما. على مدخل الغرفة الأيمن، الجهة التي تقابلني تماما عندما أرتمي على سريري وأضع رأسي على المخدّة، علّقتُ صورة كبيرة لجوني ديب الذي أغرمت به زميلاتها ويتحدثن عنه كثيرا.
أحببت ملامحه الهادئة وشعره المتهدّل على كتفيه. كان جوني في الصّورة ينظر مليا إلى عين الكاميرا فيبدو كأنّه يبادل النّاظر إليه النّظرَ. في الحقيقة كان براد بيت يعجبني كثيرا، لكنّي أحببت جوني ديب أكثر حين عرفت أنّ له ابنة في عمري وحسدت ابنته أن يكون لها هذا الأب الذي تتمنّاه النساء وتعشقه الصّبايا.
من المؤكد أنّ جوني ديب يحسن تقبيل النّساء ومداعبتهنّ، ومن المؤكّد أنّه يحسن أكثر معاملة ابنته، حتما هو يلبّي لها ما تطلبه من هدايا وينفق عليها أثناء السّفر ويشتري لها روايات كثيرة ويسمح لها باستقبال أصدقائها في بيتها وترتمي في أحضانه كلّما ضاقت بها الحياة، التي لا تضيق عادة بأمثالها.
ماذا لو كان جوني ديب أبي أيضا؟ ماذا سيخسر القدر لو اختار لي أن أكون ابنته الثّانية أو حتّى قطته؟

أستغفر الله.!

***

ينفق المشاهير على قططهم أموالا كثيرة ويدلّلونها جيدا. ما العيب في أن يتمنّى المرء أن يتحوّل إلى قطّ أو كلب في بيت أحد المشاهير؟ ألن تكون حياته أفضل؟
لكن لا بأس، يمكن لخيالها أن يصنع لها عوالم رحبة ويأتي لها بأصدقاء كثر ويخترع لها أبا مثل جوني ديب.

تعود من المدرسة مرهقة فتفتح باب بيتها وتتفقّد ببصرها بستان الورد المزهر على السّتائر ومعلّقات الحكم والأقوال المأثورة وجدول أحلامها وحبيبها جوني ديب.
في الحقيقة، لم يكن ثمّة ستائر ملوّنة ولا معلّقات لِحكم ولا صور مشاهير ولا جدول أحلام، لكنّ نورا لم تكن تصدق أنّ جدران غرفتها بيضاء مملّة مثل كفن وأنّ النّافذة لا تفتح أبدا. يمكن أن تقسم إنّ غرفتها مزينة كما يحلو لفتاة في عمرها.!
لهذا هي تحبّها كثيرا.!

37

تقدّم كريم، أخ لبنى الأصغر، من سيف فاتحا ذراعيه مرحّبا:
- أهلا وسهلا بك يا رجل، حضورك يسعدنا جميعا، تفضّل.
لحق به أبوها، عمّ عمر، مبتسما:
- مرحبا بك يا سيف، شكرا على الحضور يا ولدي.
ابتسم سيف لهذا الاستقبال اللّطيف، لكّنه يريد أن يرى لبنى.. هل تغيرت؟
هل تحنّ إليه؟ هل ترنو إلى رؤيته؟
قطع عليه تساؤلاته صوت عم عمر:
- أتـدري، جئـت فـي وقتـك يـا سـيف، الآن وصـل الطبيـب أيضـا.. (وأضـاف) تعال من هنا..
رافقه سيف مرتبكا. كان يحبّ أن تستقبله لبنى، أن تترك كلّ ضيوفها جانبا، أن تنسى طفلها وتهمل زوجها وترمي كلّ العالم خلفها وتهتمّ به قليلا.. يحتاج إلى أن يراها هي فقط، لكنّ حظّه البائس يجعل أباها وأخاها هما من يستقبلانه ويأخذانه إلى حيث الطفل.

تبع سيف عم عمر وهو يتمنّى أن تحدُث معجزة فتلحق بهما لبنى. لكنّ المعجزة حدثت عندما وجدها قرب طفلها فاهتزّ قلبه وارتبكت نظراته وخاف أن يفضحه الشّوق. لم يعرف ماذا يفعل، هل يحضنها ويقول إنّه اشتاق إليها كثيرا؟ هل يبكي مثل طفل يتيم وتائه ويقول إنّه لا يزال يهيم بها؟
هل يضحك ويغنّي ويرقص مثل ولد شقي ويقول إنّه سعيد برؤيتها؟ لم يفعل أي شيء من هذا، ظلّ ساكنا مثل قطعة خشب في حين تقدّمت هي نحوه بابتسامة عريضة ومدّت كفها تسلّم عليه. من عاداته ألّا يصافح النّساء. كان يجب أن يعتذر بلباقة لكنّها لم تمنحه الوقت ليفكر. مدّ كفّه العريضة تحضن كفّها الصّغيرة فسرت رعدة لذيذة في يده وشعر بخدر في كلّ ذراعه وازداد خفقان قلبه:
- مرحبا سيف، شكرا لأنّك أتيت.. أنا سعيدة بحضورك.
ردّ، بصوت هادئ كأنّه لشخص آخر:
- العفو، أفراحكم أفراحنا.. مبارك إن شاء الله.
رفع سيف بصره إلى لبنى. إنّها هي، بكلّ ملامحها الجميلة المحبّبة إلى قلبه. شعر بها تغوص عميقا في وجدانه وتمنّى أن يضمّها إليه. أشارت إلى صبية تقف في الشّرفة:
- ليندا، ليندا.. تعالي.
اقتربت طفلة في العشر سنوات تقريبا، بضفيرتين صغيرتين ، قالت له لبنى:
- هذه ليندا.. طفلتي.
ابتسم سيف للطفلة وهو يقول "تبارك الله"، وهمس لنفسه كان يمكن أن تكون طفلتي، ثمّ تذكّر نورا. هل كانت لبنى ستقبل أن يختن ليندا لو كانت طفلتهما.؟

ككلّ مرّة، يجد نفسه مرتبكا يحمد الله على نعمة الإسلام. ابتسم للبنى وهو يقول:

- ما شاء الله.. حفظها الله من كلّ سوء.

أشارت لبنى إلى رجل يقف قرب النّافذة يتحدّث مع آخر وقالت:

- ذاك زوجي.

نادته:

- محمد، تعال سلّم على سيف.

بدا صوتها لسيف كأنّه موسيقى وسط نشاز حتّى وهي تنادي زوجها. رفع رأسه ليرى غريمه الذي يتمنّى أن يتبخّر. أيام المدرسة الابتدائية كان محمّد يخشى ركلات سيف المتنمّر على الجميع، وكثيرا ما كان محمّد يستنجد بحارس المدرسة ليمنع عنه الرّكلات. ها قد أصبح رجلا سطا على قلبه واستلّ وردته. غلبه محمد بسيارة فخمة ونظّارات شمسية أنيقة وأوراق إقامة في إيطاليا. كان ذلك كفيلا بأن يدمّره، كان محمد بلا نظّارات شمسية حين تقدّم يصافح سيفا فلماذا لا تعود له لبنى إذن؟

لماذا تركته من أجل هذا الشّيء الذي لا يصلح لشيء؟

مدّ سيف يده مصافحا دون أن ينظر إلى عيني غريمه:

- مبارك..

بسرعة، حوّل سيف بصره إلى كريم، المارّ بجواره، حتّى لا يفضحه ارتباكه وسأله:

- أين الطبيب؟ يبدو الوقت مناسبا.

ضحك كريم كأنّه شعر بورطة سيف وقال:

- سأناديه فورا.

قريبا من سيف كانت السّاردة تقضم قطعة بقلاوة وتمضغها ببطء وهي تستلذّ حلاوتها المدهشة، تنظر إلى سيف ولا تعرف هل تشفق عليه أم تتشفّى فيه!

***

اقترب الطبيب بميدعته البيضاء. وللحظة، تذكّر سيف ذلك الممرّض الذي أتى به لابنته. بدأ قلبه يخفق بسرعة، يحاول دائما أن يتناسى ذلك اليوم الرّهيب الذي دعا فيه الممرّض ليختن ابنته. اختلطت المشاعر في ذهن سيف وشعر بأنّ تلك اللّحظات تدلق مرّة واحدة في ذاكرته. يحبّ دائما أن يتناسى تلك اللّحظات القاسية، لكنّها الآن تحضر دفعة واحدة ولا يدري ماذا يفعل.

اقترب من ابن لبنى. كان في السّادسة من عمره، تقريبا العمر نفسه الذي ختن فيه طفلته. أخذت أمّه من حجره لعبة سيارة فخمة كتلك التي أغرت لبنى ودفعتها إلى هجره. بكى الطّفل شاعرا بالخطر المحدق به وسط كوكبة من الكبار. شدّ كريم يديه وطلب من سيف أن يشدّ رجليه، في حين اقترب الطّبيب مخفيا المقصّ خلف ظهره. قال للطّفل ملاطفا:

- انظر إلى ذاك العصفور في السقف..

اشتدّ صراخ الطّفل وتردّد صدى صوته في ذاكرة سيف مذكّرا بصراخ ابنته. لقد فعلها بابنته ظانّا أنّه يحيي سنّة ستنتشر في تونس. رغب الطّفل في التملّص من قبضة يديه فبعثر له أفكاره وذكرياته وراقه أن يخلّصه ذاك من أسئلته. كان سيشعر بسعادة غامرة لو كان هذا الطّفل طفله من لبنى.

آمن بأنّ دولة الإسلام ستقام بوصول الإسلاميين إلى الحكم وبأنّها خلافة على منهاج النبوّة ستستمرّ حتّى يرث الله الأرض وما عليها. ولم يخف حماسه الشّديد في تلك الفترة وهو يتابع فيديوهات وجدي غُنيم وغيره من الدّعاة يتحدّثون عن ختان البنات وضرورة كبح غريزتهنّ وحفظ شرف الرّجال. لكنّ عودة العلمانيين بشدة إلى السّلطة فرّقت شمل الكثير من الشّباب في الجبال والبلدان المجاورة ليقاتلوا من أجل راية التوحيد ونصرة الإسلام، وإن كره الكارهون.

عاد الطّفل للصراخ، أمسكه سيف بشدّة حتّى لا يفلت رجليه ومقصّ الطّبيب يتقدّم ببطء نحو ذلك الفراغ الصّغير بين فخذي الطّفل. طفلته أيضا كانت تصرخ وهو يشدّ رجليها بقوّة والمقصّ يتقدّم ببطء وقلبه يرتجف. لم يسمع أنّ غيره فعل ذلك بطفلته ولم يكن يهمّه، ستكون يوما دولة الخلافة وسيطبّق الجميع تعاليمها وسننها.

غير نادم على حماسه الشّديد وهو يتابع خطبة وجدي غنيم في قبّة المنزه وانبهاره بالحلقات الدعوية في كلّ مكان وحلمه براية التّوحيد ترفرف مكان علم البلاد التونسية. لذلك لا يمكن أن يلوم نفسه ولا يحقّ لغيره أن يلومه. أيقظه مرفق كريم يلكزه قائلا للطّفل:

- أُنظر إلى السّقف، أُنظر إلى السّقف الآن..

في اللّحظة التي لسع فيها المقصّ قضيبَ الطّفلِ الصغيرَ كان صراخ طفلته شديدا، عاليا، تكاد ترتجّ له جدران البيت، فشعر بقلبه يغوص في بطنه. اعتاد ألّا يفكر في هذا الموضوع، لكنّ اللّحظةَ ترغمه على مواجهة ما فعل، غيرَ نادم، بطفلته. لا ينكر أنّ ما وقع أحدث فجوة في علاقته بطفلته، لكنّه يظهر

غير ذلك بفرض مزيد من الهيمنة في البيت حتّى لا يترك سؤالا طائشا أو ملحوظة ماكرة أو نظرة لوم تمرّ فتفسد عليه اطمئنانه. مازال صراخ الطّفل شديدا والطبيب يضع الضمّادة برفق وابتسامة هادئة على شفتيه.

من الثّابت أنّ هذا الطبيب قد اعتاد ختن الأطفال، لكنْ هل تراه ختن طفلة.؟
فكّر سيف أن يسأله، لكنّه تراجع، فما من مبرّر لأن يفتح جرحا غائرا في ذاكرته ولا لزوم لأن ينعته غيره بالتخلّف والجهل، والأهم من كل ذلك أنه غير نادم!
اللعنة على العلمانيين الذين أجهضوا حلمه ومنعوا سُنن الإسلام من الانتشار في تونس.
- انتهى كلّ شيء الآن.
هكذا قال كريم وهو يفكّ قبضتيه عن يدي الطّفل ويقول:
- الآن، هاتوا الحلويات.
دخلت لبنى وفي يدها إناء من الخزف المزيّن ورمته في شرفة البيت فتكسّر وتناثرت قطع الحلوى والشوكولاطة التي كانت تملؤه وامتدّت أيدي الأطفال في كلّ الجهات تلتقطها.
رفع سيف بصره ليرى لبنى قريبة جدّا منه. كان الجميع منشغلين ولا أحد انتبه إليه وهو يحضنها بعينيه ويقبّلها بنظراته ويتنفّس ببطء في أذنها. عندما نظرت إليه مبتسمة رقص قلبه فرحاً. شعر بأنّها مثله في شوق إليه وبأنّه لا يزال يسكنها أو هكذا فسّر نظرتها إليه. وغمرته سعادة كبيرة.
قالت لبنى:
- لا تغادر يا سيف، يجب أن تتناول بعض الحلويات.
دسّ مقدارا من المال تحت وسادة الطّفل وهو يقول:
- لا بأس، لا تشغلي بالك بي.
وأضاف يقول لنفسه "لقد أخذتُ ما هو أفضل من الحلويات، أخذتُ معي نظرتها العاشقة وابتسامتها الدافئة ووجهها الجميل وهذا يكفيني".
واستغفر الله. !

38

قرّرت أن يكون ذلك اليوم استثنائيا في حياتي..
لم يكن لنا في البيت عيد غير الأعياد الدينية وما كان هذا يهمّني. اشتريت قطعة مرطّبات كبيرة وعلبة عصير ونويت (كأنّي في صلاة) أنّه عيد ميلادي الخامس عشر. تمنيت لنفسي أحلام عديدة ظلت هي نفسها حتى الآن و أنا في التاسعة عشر: أن أنجح في دراستي وأطالع روايات مختلفة وأسافر إلى بلدان عديدة وألتقي أصدقاء كثرا، كما أحلم أن أكتب كتابا عني لذلك أسجل الآن هذه المذكرات لتكون مادة أولية أشتغل عليها لاحقا، ثمّ أهديتُني مرآة صغيرة في حجم الكفّ، كنت سعيدة جدّا. هكذا احتفلت وحدي بعيد ميلادي.!

في بيتنا مرآة صغيرة معلّقة في الحمّام يشذّب عليها والدي لحيته ونتبادل النّظر فيها أنا وأمّي لحظات حين نعدّل حجابينا ونحن نهمّ بمغادرة البيت. كنتُ أرغب في أن تكون لي مرآة خاصّة بي، وعندما طلبت من أمّي أن تشتري لي واحدة نهرتني قائلة:
- كثرة النّظر في المرآة قد تؤدّي إلى حالات المسّ، والعياذ بالله.
لم أستوعب، فأضافت:
- إنّه يعرّض لعشقِ الجنّ الإنسَ.
لم أفهم. ظللت أحدّق فيها بغباء، فصرخت وهي تغادر غرفتي:
- المرآة تسبّب الجنون أو الموت!
ولم أفهم أيضا.!

المهمّ، اشتريت لنفسي مرآة وعدَدتُ ذلك أوّل تحدٍّ لعائلتي. أحتاج أن أرى وجهي وتفاصيله. أحبّ أن أتثبّت في ملامحي وأنظر إلى هاتين العينين الواسعتين وأدقّق النّظر في البؤبؤ لتطلّ صورتي عليّ. قالت أمّي إنّه عندما ندقّق النّظر في العينين نرى القرين لكنّني أمعنت النّظر ولم أر غير وجهي. كم يعجبني. أكثر ما يعجبني هو أنفي، دقيق كأنّه صنع على قياسي. وأشدّ ما يثيرني هو الخال الذي يرتسم أعلى شفتي، كأنّه يحرس فمي من قبلة منتظرة. أنظر إلى حجابي فيبدو لي أنّه يجعل كلّ ما في وجهي بارزا، فلا شيء يمكن أن نراه غير العينين والأنف والفم. في غرفتي أسدل شعري وأوجّه لي المرآة من زوايا مختلفة، أقرّبها من أذنَي الكبيرتين وأحمد الله أنّي أرتدي الحِجاب فلا يُكشف عيبهما.!
كانت المرآة في حجم كفّ، أضعها بسهولة في حقيبتي المدرسية وأدسّها تحت المخدّة، وعندما أختلي بنفسي أسحبها بهدوء وأتطلّع إلى وجهي. كنت أحيانا أحدّث مرآتي كما لو كنتُ أحادث أخرى، ألومني مرّة وأبتسم لي مرّات، أغضب منّي حينا وأطري عليّ أحيانا. ويحدث أن أسخر منّي، فأغيّر ملامحي لأبدو مثل مهرّج أحمق.

عندما كشفت أمي سرّي الصّغير قالت لي بارتياب:
- لمَ المرآة ولنا واحدة في الحمّام؟
قلت، وأنا أنظر في مرآتي:
- أحبّ أن تكون لي واحدة خاصّة بي.
قالت محذّرة:
- لا تطيلي النّظر في المرآة، خاصّة في اللّيل، الذين أداموا النّظر فيها ليلا أصيبوا بالجنون، ومنهم من ماتوا!
لم أردّ عليها ولم أفهم إلى الآن كيف أنّ النّظر في قطعة زجاج عاكسة للصور يجعل المرء مجنونا أو قتيلا. هل سينسلّ من المرآة مارد يصيب النّاس بالجنون، أم سيطلع منها إرهابي في يده كلاشينكوف؟

بعد أن ألِفتها، صارت المرآة أنيستي في وحدتي وصديقتي في الحياة. كانت تنقصني مرآة كبيرة، في طولي مثلا، حتّى تتسنّى لي رؤية قامتي كلّها. ولم يكن هذا ليتيسّر لي إلّا وأنا في الطّريق إلى الإعدادية. كنت أتباطأ أمام بعض المحلّات التي لها واجهة بلورية سميكة تعكس صور العابرين، كالصّيدلية مثلا، فأبدو كأنّني أتأمّل صورة المرأة التي تظهر شبه عارية وهي تروّج لأحد مراهم التجميل يلين البشرة أو يمنحها سُمرة محبّبة. في الحقيقة، كنت أتأمّل صورتي المنعكسة على صورتها.. صحيح أنّ المرأة في الصّورة جميلة وفاتنة لكنّني رغم هذا كنت أتأمّل قامتي المستقيمة المائلة قليلا إلى الطّول. تقول أمي إنّ ملامحي الجسدية تشبه خالتي ثريا.

يروقني كثيرا أن أشبه ثريا وأعتبر هذا مديحا من أمي لم تقصده.!

صرت كلّما عدت إلى البيت أخرجت مرآتي وحدّثتها بما مرّ بي من تفاصيل مفرحة أو حزينة. ويعنّ لي، أحيانا، أن أقلّد أستاذة الفرنسية أو أستاذ التّاريخ أو أحد زملائي في القسم. ومرّات عديدة كنت أحبّ أن أدخل الحمّام وأغلق على نفسي الباب ثم أسحب المرآة من تحت ثيابي وأضعها بين فخذي وأتلمّس تلك النّدبة الغائرة. من هنا قَطَعَ مقصّ الغريب شيئا منّي وجعلني أكره الحياة. كنتُ أتحسّس تلك النّدبة كأنّني أمرّر إصبعي على مقصّ الغريب فأشعر بألم عميق وأبكي في صمت.!

39

- أسرعي.. أسرعي!

قطع صوت سيف سكون الغرفة وهو يستنهض ليلى بلطف غريب منه لتسرع في جمع الأكداس الصّغيرة من الحلالم*(1) التي كانت قد نثرتها لتجفيفها على لحاف كبير. برعت ليلى في إعداد الحلالم وصار لها زبائنها من أصحاب المحلّات الذين يبيع لهم سيف ما تُعدّ زوجته منذ أن استفحلت الأزمة في البلاد وضاقت الأحوال على النّاس.

كانت نور تجلس في الصّالون منشغلة بقراءة رواية "حليمة"*(2) المبرمجة في حصص المطالعة في السنة الأخيرة من الإعدادية. شوّش صوت والدها على تركيزها لكنّها سرعان ما عادت تتتبّع سيرة حليمة، التي تقطع الشّوارع والسّاحات لمساعدة وطنها الذي احتلّه الفرنسيون، ولا يربك هدوءها سوى خطوات أمّها وهي تقطع المسافة الصّغيرة ذهابا وإيابا بين المطبخ والمَنْشَرْ*(3). أَلِفَتْ حليمة أصوات "الثوّار"وهم يوصونها بالحذر دائما، وأَلِفَتْ أمّها صوت زوجها سيف، بأوامره التي لا تنتهي. تتحسّس حليمة الأسلحة المختلفة بقلب جسور وتتحسّس أمّها قطع الحلالم بقلب واجف.

علا صوت سيف، بلطف تنازعه الحدّة هذه المرّة، وهو يقول لليلى:

- قلت لك أسرعي، ستفوتني صلاة العصر.

جَمعت الأمّ كلّ أكداس الحلالم الصّغيرة في كيس واحد كبير ومدّته لزوجها دون أن تنبس بكلمة، احتضن سيف الكيس وهو يقول لها بتودّد لا يتجلى إلّا عندما يأخذ منها كيس الحلالم "بارك الله فيك"، وغادر البيت بخطى مسرعة.

تعرف نور أنّ ما توفّره أمّها من دخل مادي ليس كثيرا لكنّه ضروري لمساعدة العائلة على مواجهة نفقات الحياة، وتدرك أمّها أنّ زوجها يُحسن التصرّف في هذا الدّخل الإضافي فلا تسأله عن شيء. تعرف جيدا أنّه ينفقه على العائلة: يشتري به حاجيات البيت أو يدفعه أحيانا في فواتير الماء أو الكهرباء. لم يضايقها أبدا أنّ زوجها هو الذي يتولّى بيع الحلالم دون أن يُمَكّنها من ثمنه، حتّى إن كانت هي التي تبيعه ستصرفه على نفقات البيت أيضا. لا فرق بينهما إذن، ومكانتها محفوظة في بيتها كما تنصّ شريعة الله: امرأة تكمّل الرّجل.!

*(1) رواية "حليمة": للأديب التّونسي محمد العروسي المطوي (1920 -2005) مبرمجة في التّعليم الإعدادي.

* (2) الحلالم: قطع من العجين تتّخذ شكل أعواد صغيرة تطبخ حساءً.

* (3) المَنشر: اسم مكان باللهجة التونسية، عبارة عن بهو بلا سقف يفتح على غرف البيت موفّرا الضّوء والهواء.

عادت نور تتصفّح غلاف رواية "حليمة" وفيه صورة امرأة بملامح حادّة خلفها رجل يحمل سلاحا. تساءلت، وهي تخطّ بعض الملحوظات على الكرّاس:

- هل يعني هذا أنّ وراء كلّ امرأة عظيمة رجلا؟

قال لها أبوها مرّة:

- أرجو أن تكوني صالحة، مثل أمّك!

في ذلك اليوم كَتَبَتْ نور في مذكّراتها "أمّي امرأة صالحة في نظر أبي ربّما لأنّها ساعدته، بتواطئها، على تثبيت فخذي حتّى يتوغّل مقصّ الغريب في اتّجاه ذلك المكان ويقطع شيئا منه فلا أكون امرأة فاسدة". تحسّست نور قطرات دموع جفّت في شكل دوائر على صفحات الرّواية التي بصدد قراءتها. رفعت عينيها وصوّبت نظرها نحو أمّها. يعترف أبوها بأنّ أمها فعلا امرأة صالحة، فهل تراها سعيدة بذلك؟

لا تذكر أنّ أمّها اشتكت أمامها مرّة، وهذا قد يعني أنّها سعيدة، لكنّها كذلك لم تلمح عليها مظاهر السّعادة. لم تعتد منها قهقهات مدوية ولا حتّى ابتسامة تنمّ عن الرضا. تصدمها دائما ملامح أمّها المحايدة، خالية من المعنى، لا تعبّر عن الفرح ولا الحزن.

كم يزعجها الحياد.!

تظن نور أنّ الإنسان العاجز عن اتّخاذ موقف هو من يدّعي الحياد. كانت الأفكار تتداعى في ذهن البنت، في حين كانت أمّها مستغرقة في طي الثياب المكدّسة أمامها. لماذا تشغل نفسها بأمّها، الأَوْلَى أن تُتمّ قراءة الرواية التي ستسألها عنها أستاذة اللّغة العربية.؟

عادت نور إلى روايتها. اعتادت حليمة على المغامرة جزءا من حياتها، كما اعتادت أمّها على الرّتابة تسرق كلّ حياتها. لم تستطع نور التّركيز في الرّواية ولا تتبّع سيرة حليمة، فعادت لتتأمّل أمّها وهي منشغلة بطي الملابس بإتقان ووضعها في شكل أعمدة، لكلّ فرد من العائلة عموده الخاصّ.

تبدو أمّها امرأة صالحة فعلا، فقد قضت عمرها تبذل جهدا في طاعة زوجها وخدمة أسرتها دون تأفّف، وهذا يعني حقّا أنّها مثال يُحتذى، ربّما لا تحتاج نور إلى الدّراسة والحصول على شهادات عليا حتّى تصير امرأة صالحة مثلها.

عادت تقلّب البصر في الرّواية بين يديها. حليمة أيضا امرأة صالحة، غامرت بحياتها من أجل الوطن وساهمت في تحريره دون أن تدخل مدارس ولا كليات.

عادت نور إلى الصّفحة التي توقّفت فيها وخطرت ببالها خالتها ثريا. كم تشتاق إليها. ثريا أيضا امرأة صالحة لكنْ على طريقتها. ابتسمت نور وهي

تأتي على ذكر ثريا. لا يستطيع أبوها أن يعرف سرّ ابتسامتها الآن ولا أن يعرف رأيها في ثريا. صحيح أنّه منعها من زيارتهم، لكنّ نورا تلتقيها مرات متباعدة جدا في بيت جدّتها وتستمتع كثيرا بالحديث معها ويلذّ لها أن تتصفّح كتبها وتروقها طرقها في تسريح شعرها، التي لا تثبت فيها على حال: أحيانا تمشطه إلى الخلف وتشدّه كذيل حصان، وأحيانا تتركه ينساب بحرية، وأخرى تجعله منفوشا بطريقة مثيرة.

عادت تتابع قراءة الرواية، يسكنها شوق شديد إلى ثريا ولا تعرف ما ينتظرها.!

40

تمرّ حياة نور رتيبة، تنعشها الرّوايات قليلا، ثم تعود إلى وتيرتها المملّة ومقصّ الغريب يتربّص بها في كلّ حين ويعكّر صفوها. تودّ أن تنسى، لكنّ صراخها الحادّ وهي بين قبضتي أبيها يتردّد في جنبات ذاكرتها ويجعلها تنزّ دماء.

مرّات كثيرة تتمنّى لو كان من الممكن أن تعود إلى الماضي وتسلّ تلك الأيام نهائيا كما تسلّ أمّها نباتات فاسدة من أصيص النعناع. تتمنّى أن تضع ذاكرتها أمامها، وبالممحاة الزّرقاء التي لا تفارق مقلمتها، تمحو تلك اللّحظات الحارقة، فترتاح ويتلاشى صراخها الحادّ ووجه أبيها الصّارم وضعف أمّها ومقصّ الغريب.

تمنّت أن يبتكر العلم يوما شيئا يخلّص الإنسان من ذكرياته الحزينة.!

يحدث كثيرا أن تفتح كرّاسها في الفصل لتكتب، فتشعر بأنّ يدها مغلولة، كأنّ قبضة والدها المُحْكمة تشدّها فتمنعها من الحركة، تصرخ "اتركني، يا أبي!"غير أنّ صراخها لا يغادر حلقها ولا يسمعه سواها.

ترى في الشّارع أبا يمسك يد طفلته ليعبر بها الطّريق فتذكر مقصّ الغريب يعبر الفضاء الصّغير بين فخذيها وتشعر بأنّها تصرخ بحدّة ولا أحد ينجدها.

يحدث أن تكون في الصّلاة وفجأة تخترق ذهنها تلك اللّحظة الحارقة فتجد نفسها تسأل "ربّي، لماذا تركتهم يفعلون بي هذا؟ لِم لَم تدافع عنّي؟ لماذا لَمْ تجعل قبضة أبي تتراخى ومقصّ الغريب يسقط قبل أن يقطعني؟ لماذا تركتهم يأخذون حياة وهبتني إياها؟"..

أحيانا، تقرّر نور أن تنسى فعلا كلّ ما حدث. ستكون لها الشّجاعة لتمحو بنفسها كلّ تفاصيل الجريمة. لا يهمّ إن كان والداها يعلمان أنّهما حوّلاها إلى حطام لمّا فعلا بها ذلك أم لا. لا بأس، ستنسى نهائيا ما حدث. تقرّر ذلك وهي لا تعرف كيف ستنسى فيبقى قرارها معلّقا في سماء حيرتها.

تدخل فناء البيت فتعترضها نظرات أمّها المنكسرة وملامح أبيها الصّارمة التي تزعزع شيئا داخلها، ثمّ تدخل الصّالة فيصطدم بصرها بالكتب الصفراء. ما إن تدخل غرفتها، بجدرانها البيضاء كالكفن، حتّى تنهار وتشعر برغبة شديدة في الصّراخ. ترتمي على سريرها جثّة منهوبة مثل وطن مهجور ولا ينتبه أحد إلى نشيجها المكبوت.

بدأت منذ فترة تكتب مذكّراتها. العديد من زميلاتها يكتبن أشياء كثيرة يخفينها عن الأهل. يتحدّثن في كتاباتهنّ عمّا يحدث لهنّ من طرائف في الفصل، عن مشاكسات الفتيان لهنّ، عن أحلامهنّ السرية الكثيرة. اختارت

دفترا أخضر على غلافه صور فتيات في مثل عمرها بملابس خفيفة وابتسامات مشرقة وأخذت القلم لتكتب، لكنّها لم تفعل. لم تجد ما يستحقّ الذّكر وما يجب أن يُخفى عن عائلتها. كلّ حياتها رتيبة ومملّة وخالية من الحكايات المشوّقة والطّرائف المثيرة والأسرار اللّذيذة. فكّرت أن تكتب آلامها الكثيرة، أن تكتب بخطّ واضح عن لسعة المقصّ الحارقة. ربّما إذا كتبتها سترتاح. كلّ زميلاتها يكتبن عن آلامهنّ ويتحدّثن عمّا ينغّص حيواتهنّ.
إذن لتفعل ذلك ولن يلومها أحد.!
قالت لها رباب مرّة أنّ أشدّ ما ينغصّ عليها أيامها هو شؤون البيت، وخاصّة غسل الأواني، وقالت لها سحَر، مرّة، إنّ أشدّ ما يزعجها في بيتهم هو صوت التلفزيون المرتفع دوما وأخوها المشاغب الذي يسرق زلاّجتيها وينزل بهما إلى الشّارع.

أمّا هي فستكتب وتقول إنّ أكثر ما يزعجها قبضتا أبيها على فخذيها بشدّة حتّى يصل مقصّ الغريب بأمان، وأشدّ ما يرعبها هو لسعة المقصّ الحارقة. لكنّها ما إن تهمّ بالكتابة حتى يغصّ حلقها بالحروف وتجد نفسها في نشيج مرير، تبكي بشدّة وتصرّ بأسنانها وهي تهمس:
- يا الله، لماذا تخليت عني ولم تنجدني.؟

41

جلست نور في الصّالون، على غير عادتها، تتابع على التلفزيون أغنية "ع الجبين عصابة". أغنية شعبية جميلة يحبّها الكثيرون في تونس وتطرب لها كلّ الأجيال. دخلت ليلى وباغتت طفلتها.
أخذت ليلى تتمايل على أنغام الأغنية، ثم صار تمايلها رقصا. كان جسدها يتثنّى على إيقاع الموسيقى: حرّكت الكتفين، ثم نصفها السّفلي، بحركات رشيقة تتناغم مع ضربات الدفّ المبثوثة في الأغنية. ابتسمت نور وهي ترى أمّها في لحظة عفوية نادرة. عنّ لليلى أن تمدّ يدها وتجذب ابنتها إليها لتشاركها تلك اللّحظة المنفلتة. ضحكت نور ولم تتمنّع، فأصبح في الصّالون جسدان يرقصان، تتداخل ضحكاتهما وتتناثر البهجة من حولهما.

في لحظة منفلتة كان الاستمتاع جليا على وجهي الأمّ وابنتها. تحوّلت نور إلى نوتة موسيقية تسبح في الفضاء. كأنّها نسيت كلّ ذكرياتها الحزينة. نسيت صراخها ومقصّ الغريب. نسيت آلامها وطفولتها المبتورة وتحوّلت إلى قطعة موسيقية ترفرف في سماء الغرفة. فجأة، انبعث صوت الآذان من جامع الحي. تسمّر الجسدان، كأنّ ثعبانا لسع المرأتين. وامتدّت يد ليلى، في حركة خاطفة، وضغطت على الزرّ وأطفأت التلفزيون. كان صوت الآذان بمثابة لسعة أيقظت المرأتين من غفلتهما. امتقع وجه الأمّ واكفهرّ، كأنّها سَتُقَاد إلى المشنقة، ثم استغفرت ربّها واستعاذت من الشّيطان وقالت بارتباك جلي:
- ما الذي فعلناه يا عزيزتي؟ لقد أتينا مكروها، غفر الله لي ولكِ.
ابتسمت نور بهدوء:
- لا عليك يا ماما، لم نفعل ذلك أمام غرباء. لا بأس في قليل من المتعة البريئة، يقول الرّسول الكريم "روّحوا عن أنفسكم ساعة بعد ساعة فإنّ النفوس إذا كلّت عميت".
ردّت ليلى، بوجه مكفهرّ:
- لا أدري كيف فعلتُ هذا، كأنّ الموسيقى خدّرتني. فعلا، إنّها رجس من عمل الشّيطان، سئل عنها الشيخ ابن عثيمين في أحد لقاءاته فقال إنّ الّرقص ممنوع، والله أعلم. (أضافت بوجه ممتقع) سبحانك اللهمّ وبحمدك، نشهد أن لا إله إلّا أنت نستغفرك ونتوب إليك سأجدّد الغُسل.. ربّنا اغفر لنا.
قالت لها نور، بهدوء:
- لا داعي للاغتسال يا ماما، لا يستحقّ الأمر كلّ هذا.
لم تردّ عليها ليلى ودخلت غرفتها. كان يجب على نور أن تذهب للصّلاة، لكنّها عادت إلى مقعدها والتقطت يدها رواية محمود تيمور "سلوى في مهبّ الرّيح"التي برمجتها أستاذة اللّغة العربية في حصة المطالعة. كانت قد أنهت قراءة الرّواية وانتقلت إلى تلخيصها. سلوى هي الشخصية الرئيسية، امرأة

ضعيفة وموغلة في السلبية. تتلاعب بها الأقدار وترميها في تجارب عاطفية واجتماعية تحوّلها إلى ضحية. رفعت بصرها إلى غرفة أمّها، بدا لها كأنّها تسمع نشيجها، في أمّها شيء يشبه سلوى. تعرف نور كيف تتحدّث عن سلوى، لكن لا تحبّ أن تتحدّث عن أمّها، تبدو لها هي أيضا ضحية.!

عادت نور إلى أوراقها وهي تفكّر في ما وقع. هل يعقل أن تنتفض أمّها من مشهد الرقص بتلك الطريقة المرعبة؟ هل صحيح أنّ الله سينتقم منهما بسبب هذا اللّهو البريء؟
يجب أن تعود لتركّز أكثر في قصص محمود تيمور بعد أن خفتت الأسئلة. انغمست كليا في قراءة القصّة الثّانية "الشّفاه الغليظة". كانت الشخصيةُ الرئيسية فتاةً أخرى، نقيض شخصية سلوى، يخالط خبثُها ذكاءَها. استطاعت أن تجعل حياتها تسير وفق ما تريد، بل كانت تترك أثرا بالغا في كلّ من يحيط بها. وتعجّبت نور كيف أنّ السّارد يتنقّل بين الشّخوص المتناقضة بكلّ سلاسة فيجعل نورا تشفق حينا على سلوى، بشخصيتها الطيبة التي تحوّلها الأقدار إلى امرأة حزينة تماما كأمّها، وتنكر حينا آخر على صاحبة الشّفاه الغليظة مَكرها الذي جعلها تنجح في مواجهة أزماتها وتحويل سقطاتها انتصارات دون أن تغضب منها.
غمغمت نور كأنّها تطلب من عقلها أن يصمت.

بدأت نور تجد لذّة في قراءة الرّوايات والقصص، تدخل مع شخصياتها تجارب مختلفة وعوالم متناقضة، تفكّر معهم وتقهقه مثلهم وتغنّي أيضا، والأهمّ أنّها تجد نفسها دائما في مأمن من الرّقيب الذي يسكن أعماقها وقد يلسعها في أية لحظة فيحوّلها إلى كتلة من النّدم. كانت المطالعة أفضل الطّرق لتنشغلَ عن الصّمت الثّقيل الذي يجثم على بيتهم وتسهو عن جدران غرفتها البيضاء، التي تشبه الكفن، وتتناسى ذلك الجرح العميق الذي خلّفه لها مقصّ الغريب في الذّاكرة.
في تلك السّنة اقتطعت اشتراك سنوي في المكتبة العمومية القريبة من بيتها.

على غير عادتها ابتسمت السّاردة، مستمتعة بتعلّق نور بالمطالعة، يبدو أنّها وجدت روابط تجمعهما.!

42

في ذلك اليوم كانت نور مع صديقاتها، لا تطيق تذكّر ما حدث لها في ذلك المساء لكنْ لا يمكن أبدا أن تنساه، لذلك ستتكفّل الساردة بنقله للقارئ:

***

في العادة، عند ذهابها إلى المدرسة الإعدادية والعودة منها تمرّ نور بنهج صغير يؤدّي إلى حَمَّام* الحي. وقد اعتادت أن ترى، من حين إلى آخر، مواكب النّساء والفتيات في طريقهنّ للاغتسال، تصاحبهنّ الأغاني والزّغاريد ويتوسّطهن طفلٌ يعددنه للختان أو عروس يهيئنها لليلة العمر.
كان كلا المشهدين ينغرس في قلبها شوكا، فتتحاشى الاقتراب منه. لم تكن ذَكَرا لكنّها خُتِنت مثل الذّكور، لذلك تظن أنّها لن تصلح لأن تكون عروسا، وإن حدث ذلك فلن تحظى بمثل هذا الموكب وتذهب إلى الحمّام للاغتسال ما دام محرّما على النّساء في الإسلام. تستدلّ أمّها على هذا بحديث ابن عبّاس عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال "احذروا بيتا يقال له الحمّام"، لذلك ليست للحمّام إلّا صور غائمة في ذاكرة نور، إذ لم تدخله في حياتها إلّا مرّة واحدة عندما كانت صغيرة، ربّما في سنّ الخامسة، أخذتها إليه خالتها ثريا. عندما علم بالأمر أبوها يومذاك وقد خرج حديثا من السجن استشاط غضبا وهاج كالثّور، حتّى أنّه انهال على أمّها بالصّفعات. ولعلّه بسبب تلك الحادثة بدأ يتأكّد من أنّ ثريا خطر محدق بعائلته.

كانت نور رفقة زينب في طريق العودة إلى البيت - يحدث مرّات قليلة أن تمشي الفتاتان معا- وعادة تسيطر زينب على تلك الرّفقة، بشخصيتها المرحة وحكاياتها الخفيفة، التي تدور غالبا حول أجواء الفصل وطرائف الغشّ في الامتحانات وطبائع الأساتذة، ولا يخلو الأمر من اغتياب زميلاتها. وأحيانا أخرى الحديث عن أجواء بيوتهن، عن مناوشاتها التي لا تنتهي مع أختها الكبرى، عمّا تعدّه أمّها من طعام وعن تذمّرها حين يأتي دورها في غسل أواني الطعام. كانت تعدّ ذلك أتعس مهمّة تقوم بها، وإذا نجحت في التهرّب من هذه المهمّة، متعلّلة لأمّها بانشغالها بدروسها، فإنّ أختها تكون لها بالمرصاد وتفضح تبريراتها الزّائفة غالبا، وهذا أشدّ ما يوقع الأختين في مشادات متكرّرة.

---

*الحَمَّام: مكان عمومي للاغتسال.

تستمتع نور دائما بهذر زينب وتغبطها على حياتها التي تضجّ بالحكايات، تعتقد أنّها لا يمكن أن تملك مهارتها في الحكي، وهل في حياتها ما يستحقّ أن يُحكى أصلا؟
رغبت مرّات قليلة أن تتحدّث عن صراخها ومقصّ الغريب. تشعر بأنّها سترتاح إن ألقتْ بذلك الحمل الثّقيل الذي يهدّها، لكنّها لا تملك الجرأة الكافية، بل هي على يقين أنّ ذلك سيجعل حياتها أكثر تعقيدا، لأنّ كلّ تلاميذ الإعدادية وجيرانهم أيضا سيكشفون سرّها، لهذا لم يتجاوز تفاعل نور مع زينب التّعليقات البسيطة والإيماءات التلقائية. كانت زينب تكتفي منها بذلك، لأنّه يسمح لها بهامش كبير من السّيطرة على صحبتهما، وهو ما يروقها كثيرا.

في ذلك المساء التحقت نور وزينب بموكب نساء وفتيات يغنّين ويزغردن وقد توسطهنّ طفل يعتمر شاشية تونسية ولباسا تقليديا جميلا، إنّه حفل ختان. تسلّلت زينب إلى الحشد النسوي، جارّة صديقتها من يدها حتّى أصبحتا بين المحتفلات وأخذت زينب تغنّي وتزغرد معهنّ حينا وتقهقه حينا آخر والنّساء حولهما ضاحكات.
حاولت نور سحب يدها من كفّ صاحبتها في خجل وارتباك فازدادت قهقهات زينب. كانت ضربات الدفّ المصاحبة لأغاني النّساء تتردّد في جنبات صدرها كأنّها طعنات توجّه لقلبها. يزداد نبضه ويشتدّ خوفها وارتباكها، فتحاول سحب يدها من قبضة زينب ثانية لكنّها تشدّها بقوّة حتّى لا تغادر الموكب.
شعرت نور كأنّها تُجَرّ قسرا إلى ما لا تريد وأنّها تُدفع إلى ختانها ثانية. قبضة زينب تذكّرها بقبضة أبيها المُحكمة وهو يشدّها بقوّة ومقصّ الغريب يتوغّل في الفراغ الصّغير بين فخذيها ويدنو من ذلك الشّيء ليقطعه. ازدادت ضربات الدفّ وازداد قلبها خفقانا، حتّى عسر تنفّسها. علت الزّغاريد حولها وصار مقصّ الغريب يقترب أكثر. علا صراخها ولا أحد سمعه غيرها. وفي اللّحظة التي لسعها المقصّ غلب ذلك الصّراخ الحارّ فعلا على كلّ الأغاني والزّغاريد، علا كأنّه يدفع قبضتي أبيها بعيدا عنها، كأنّه يرمي مقصّ الغريب بعيدا، علا كأنّه يصعد إلى السّماء مستجيرا بالله وبعد ذلك لم تعد تشعر بشيء.

عندما استفاقت نور وجدت نفسها في فراشها. ابتسمت لها زينب وانطلق لسان أمّها حامدا شاكرا. بدأت زينب تذكّرها بما حدث وكيف كانتا معا وسط موكب حفل ختان حين انتابتها فجأة نوبة صراخ حادّ وتملّكتها حالة هستيرية رهيبة ولم يُتبين من كلامها سوى جملة تخرج متقطّعة "لا أحبّ الختان، لا أحبّ الختان، لا أحبّ الختان!"... ثمّ سقطت على الأرض مغشيا عليها. تحلّق حولها الجميع وحملتها زينب وبعض النّساء إلى بيتها القريب من هناك. كانت زينب تتحدّث بفزع والدّموع تنساب في صمت من عيني نور، في حين كانت ليلى تحوم حولهما وتتحاشى أن تلتقي عيناها بعيني طفلتها.

43

خرج سيف من البيت وهو يكاد ينفجر غضبا. لا يدري ماذا يفعل لليلى حتّى لا تعيد الكرّة؟

يجب أن يلقّنها درسا حتّى لا تستقبلها في بيته بعد اليوم. يعترف بأنّه يحقد على ثريا كثيرا، ليس لأنّها علمانية ومتبرّجة أو لأنّها خطر على بيته فقط، بل لأنّها تذكّره بلُبنى أيضا ويكاد يشهق عندما يلمحها من الخلف. نفس الشّعر الأحمر المنساب على كتفيها، نفس القامة الهيفاء التي كان يتحسّسها بكفّيه العريضتين، نفس الفخذين اللّذين ينحشران داخل سروال "الدجين"، كأنّها هي!

كم يخشى أن يناديها ويلتحق بها ليضمّها إلى صدره ويترك أنفه يشمّ رائحتها ويتنفّس في أذنها. كم يشتاق إلى صوتها ويشتهي أن يضمها إليه. لكنّها ثريا وليست لبنى ولا يريدها أن تعكّر مزاجه بهذه الذكريات العذبة (ويستغفر الله) ولا أن تشوّش عليه حياته بشوقه الغزير الذي يزيح الرّماد عن شعلة الحبّ التي تسكنه (يستعيذ من الشّيطان الرّجيم مرّة أخرى) ويصرّ بأسنانه، يجب أن يلقّن ليلى درسا!

دخل البيت اعترضته ضحكاتها فعرف أنّ ثريا هنا. اعتاد في بيته الهدوء ورائحة النّدّ، وعندما تأتي ثريا تخلخل المكان بضحكاتها وتهزّه برائحة عطرها. يعدّ سيف ذلك خطرا على أسرته، يخاف أن تنشز زوجته وأن تتمرّد عليه ابنته فتطلبان حياة أخرى لا يحبّها ولا يرضى عنها الله. اقترب من الصّالة، كان يجب أن يبدو متجهّما ولم يكن ذلك صعبا، فقد اعتاد التجهّم حتّى أصبح سمته الدالّة عليه واطمئن إلى ذلك لاعتقاده أنّ التجهّم يضفي عليه هالة تجعل الاقتراب منه بحساب. لا يدري متى صار متجهّما، ربّما منذ زمن بعيد، ربّما منذ هجرته لبنى أو منذ هداه الله إلى دينه الحنيف وتمتم "اللهم إنّي أسألك الهدى والتّقى والعفاف والغِنى".

يذكر جيدا أنّه لم يكن متجهّما يوما مع لبنى، بل كانت أساريره تنبسط ويشعر بأنّ كلّ ما فيه يبتسم.. دفع سيف باب الصّالة قائلا، بصوت خشن:

- السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

امتقع وجه ليلى وهي تردّ:

- وعليك السّلام ورحمة الله وبركاته.

في حين التفتت إليه ثريا مبتسمة وهي تقول:

- أهلا سيف..

ثمّ أضافت، كأنّها توجد تبريرا لوجودها في بيته:

- اشتقت إلى ليلى ونور فجئت لزيارتهما.

وصلت الرّسالة لسيف وعرف أنّها تأتي لزيارة ليلى ونور ولا تهتمّ به. اعتبر ذلك إهانة. بلع ريقه ثم قال، بصوت أراده هادئا:

- لا بأس، إنّهما بخير وبأفضل حال.

كان يجب أن يردّ الإهانة، ففضّل أن يتوجّه بالكلام إلى زوجته قائلا:

- في المرّة المقبلة لا تفتحي الباب لمن لا يحبّهم الله.

ثمّ أضاف:

- سأغادر الآن، عندما أعود أحبّ أن أجد الأكل جاهزا.

وأطبق الباب خلفه مغادرا.

شعر سيف بأنّه سدّد طعنة لثريا، إلّا أنّ غيظه لا يزال شديدا. تمنّى لو أضاف كلمات أخرى أوجعها بها. هذا لا يعني أنّه لا يرغب في أن تطول وقفته أمامها متوهّما أنّه يرى حبيبته، لكنْ لا بأس، أغلب الظنّ أنّ كلامه الجارح أبكاها حالما غادر، وهذا ما خفّف غيظه قليلا.

انفجرت ثريا ضحكا بمجرّد ما أطبق سيف الباب خلفه، فقد اعتادت ألّا تبالي به. وافتعلت ليلى الضّحك معها، وقلبها يزداد اضطرابا لأنّها تعرف أنّه سيقرّعها كعادته رغم أنّ زيارات أختها لها قليلة ومتباعدة.

عندما عاد سيف صرخ، كعادته، في وجه ليلى، ثمّ انبعثت الشّتائم ملتصقة ببصاقه المتناثر ولعن أختها وسبّ علمانيتها وعريها. عندما تمدّد في فراشه ليلا كانت ليلى منكمشة على نفسها، بجسد نحيل وشعر فوضوي تسلّل إليه الشّيب وثديين متهدّلين يذكّرانه بثديي شارلوت، كلبة السّوق.

استدار إلى الجهة الأخرى، متأفّفا، وأغمض عينيه يطلب النوم فجاءه الخيال بها جسدا محشورا في سروال ضيق كأنه قدّ على مقاسها وقميص أنيق وشعر حريري منساب على كتفيها. اقترب منها وضمّها إليه، فدغدغت رائحة عطرها كلّ حواسّه ومدّ أنفه يتحسّس عنقها ويبحث عن أرنبة أنفها يتنفّس فيها ويقبّلها. شعر بها ترتجف من حرارة أنفاسه ولمساته الرّقيقة وأرخيا العنان لشهوتهما فكانت ليلة حمراء..

عندما وقف تحت الدش صباحا كان يشعر بالانتشاء ولا يدري هل زوجته ليلى التي باتت اللّيل في أحضانه أم حبيبته لبنى؟

44

جلست نور على سريرها وفتحت كرّاسا كبيرا أسندته إلى ركبتيها. يظنّ من يراها أنّها منشغلة بمراجعة دروسها، في حين أنّها منغمسة في قراءة رواية تضعها داخل الكرّاس. اعتادت هذه الحيلة حتّى تتخلّص من تقريع والدها الذي يعدّ مطالعة الرّوايات مفسدة للأخلاق وتعدّها أمّها مضيعة للوقت.
كانت هذه الرّوايات أفضل طريقة تُمتع نورا وتغذّي خيالها. تمنحها أجنحة تحلّق بها في فضاء غرفتها وتمكّنها من فتح النافذة المغلقة دائما للانطلاق إلى عوالم أخرى فسيحة. كلّ رواية تقودها إلى أخرى وكلّ عالم يفتح لها بابَ آخر. يروقها أن تشارك أبطال الرّوايات مشاعرهم وانفعالاتهم، فتحزن عندما تبكي البطلة وتتألّم عندما يوجّه الرّوائي الأحداث إلى مآسٍ جديدة، وتبتسم إذا ما تسارعت دقّات قلب البطلة حين يضغط حبيبها على كفّها الصّغيرة، وتفرح عندما تقرأ عن سعادتها.
لم يعد يزعجها خلوّ حياتها من الصّديقات والضّحكات ومن الحكايات والأسرار الصّغيرة. لم تعد تنزعج من تذمّر أمّها منها لأنّها لا تساعدها في شؤون البيت ولا من انتقادات أبيها التي لا تنتهي، وخاصّة حرصه المفرط على ألّا تطلّ بعض خصلات شعرها من تحت الحجاب.

مرة، كان سيف يتابع برنامجا على إحدى القنوات الدينية وليلى منشغلة بتشكيل قطع الحلالم، تعدّها ليبيعها زوجها، أمّا نور فمنشغلة – هذه المرة - برواية "الوسادة الخالية"* ، تتابع بتيقّظ مواعيد الحبّ البريء التي تجمع صلاح وسميحة، تنتظر كلّ موعد بشوق ويلذّ لها أن تسرع سميحة الخطى كلّ مرّة لتلحق بصلاح، الذي يمدّ يده إلى الخلف حتّى يمسك كفّ سميحة ثمّ يتّجهان إلى مكانهما الأثير يتحادثان ويتناجيان.
كانت نور، مثل سميحة، تنتظر بقلب واجف متى تحين القُبلة الأولى.
عندما حدثت القُبلة الأولى سادت لحظة صمت بين سميحة وصلاح وسَكَنَت نور عن كلّ حركة، اقترب صلاح بوجهه من سميحة فأغمضت عينيها وأطبق بشفتيه على شفتيها. شعرت نور بأنّها هي سميحة وغابت، مثلها، في تلك القبلة اللذيذة. حدث ذلك في الصفحة الثّانية والعشرين، أوّل قبلة بين صلاح وسميحة.

تذكُر جيدا أنّها توقّفت عن القراءة في تلك اللّحظة وطوت طرف الصّفحة حتّى لا تضيع منها ووضعت الرّواية المحشورة داخل الكرّاس الكبير قرب مخدّتها، ثمّ تمدّدت على سريرها وأغمضت عينيها فبدت كالنّائمة، وما هي بنائمة.كانت تعيد قراءة القُبلة الأولى في ذاكرتها وتتمثّل تلك اللّحظة السّاحرة على طريقتها. ومثلما اعتاد صلاح أن يضمّ كلّ ليلة الوسادة الخالية

*"الوسادة الخالية": رواية لإحسان عبد القدوس (1919 - 1990) دار مصر للطّباعة.

كأنّه يضمّ حبيبته، اعتادت نور أن تحضن روايتها كلّ ليلة وتغمض عينيها.
تُحوّل كلّ ما قرأت إلى صور جميلة كشريط سينمائي، تسرّع بعض أحداثه وتمطّط أخرى لتستبقي لحظات ألذّ قد ترتبط بلمسة أو قُبلة أو ضمّة. والغريب في الأمر أنّها تشعر فعلا برجفة في جسدها وارتعاشه في أطرافها وخفقان في قلبها كلّما ضغطت كفّ صلاح على أنامل سميحة أو كلّما أطبق بشفتيه على شفتيها أو كلّما ضمّها إلى صدره برقة وحنان..

لا تستطيع نور أن تفسر ذلك، ولكنّها تقرّ بصدق بأنّها تنسى في تلك اللّحظات مقصّ الغريب وطفولتها المبتورة.!

45

مـرّت الأعـوام علـى العائلـة، كـلّ شـيء فـي حياتهـا ثابـت لا يتغيـر: فـي الصـالة تتّخـذ الحشـايا الوضـعية نفسـها، التلفزيـون فـي المكـان نفسـه، والنّوافـذ مغلقـة كعادتهـا. تآكلـت الزربيـة فاشـترى سـيف أخـرى تشـبهها بالمقـاس نفسـه وبـألوان هادئـة خاليـة مـن الزخرفـة. المكتبـة، إلـى اليمـين، بالكتـب الصـفراء نفسِـها، أضـيفت إليهـا أخـرى. مكـانُ اللّوحـة الكبيـرة المنقوشـة عليهـا سـورة الفاتحـة بخـطّ ذهبـي أنيـق لـم يتبـدّل قيـد أنملـة. حتّـى حاملـة المفـاتيح الصّـغيرة، علـى يسـار البـاب، تكسّـرت مـرّة فثبّـت سـيف أخـرى، مسـتغلّا الثّقـبَ نفسـه فـي الجـدار.. لا شـيء فـي البيـت يوحي بأنّ الزّمن يمرّ وبأنّ الوقت يتبدّل.!

اسـتلقت ليلـى فـي الصّـالة تتأمّـل تسـرّب شـعاع الشّـمس مـن شـقوق النّافـذة المغلقـة. يروقهـا أن تتلهّـى بحركـة الضّـوء البطيئـة فتقـدّر أوقـات الصّـلاة دون أن تعتمـد علـى السّـاعة الحائطيـة. تتبـدّل هـذه الحركـة قلـيلا مـن فصـل إلـى آخـر، مـا يعنـي أنّ فـي الخـارج حيـاة. وحـده بيتهـا ثابـت، كـأنّ الـزّمن لا يمـرّ بـه. أرْعَـب ليلـى أن تشعر بأنّ بيتها خالٍ من الحياة.

لعنـت الشّـيطان ونهضـت مـن مكانهـا صـوب المطـبخ لتعـدّ الطعـام. فـي تلـك اللّحظـة دخلـت نـور كانـت قـد أصـبحت صـبية فـي التاسـعة عشـر، سـعيدة انهـا سـتجتاز آخـر السـنة منـاظرة الباكالوريـا ومصـرة علـى النجـاح فـي دراسـتها لأنهـا تعتقـد ان ذلـك سـيغيّر حياتهـا حتمـا. اتّجهـت إلـى الصـالة فلاحظـت البقعـة التـي أحـدثها جسـد أمّهـا علـى الأريكـة. ابتسـمت فـي داخلهـا وراقهـا أن تسـتلقي فـي المكان نفسه وتحملق في سقف الغرفة.

ابتسـمت نـور وهـي تتـذكّر كيـف كانـت، وهـي صـغيرة، تحـبّ أن تلمـس خيـوط الشّـمس الذهبيـة فتقـبض علـى الهـواء، تحرّكـه بأصـابعها وتسـتمتع بـذرات الغبـار تتمـاوج فتتبعثـر خيـوط الضـوء وتتّسـع ابتسـامتها. سـكون مـريح يخـيّم علـى الغرفـة. يروقهـا أن تتأمّـل تلـك الخيـوط التـي تنتقـل بـبطء شـديد، كأنّهـا تخشـى أن تفـزع سـكون البيـت. يصـلها ضـجيج الشّـارع وصـخب الحيـاة فيـه وتنتبـه إلـى الصّـمت المطبـق علـى أرجـاء البيـت الـذي لا يقطعـه سـوى صـوت أبيهـا وهـو يفـرض أوامـره ونواهيـه ودعـوات أمّهـا وهـي تطلـب البرَكـة والجنّـة للمـؤمنين. تصـلها أنغـام موسـيقى صـاخبة مـن محـلّ قريـب لكـراء مسـتلزمات الأفـراح ويتـردّد فـي الصـالة ترتيـل القـرآن الكـريم، كـأنّ فـي بيـتهم مأتمـا لا ينتهـي، تسـتغفر الله، مُقِـرّةً بأنّ البَون شاسع بين الخارج الذي يحيط بها والدّاخل الذي تسكنه.

فَكّـرتْ قلـيلا. يبـدو فعـلا أنّ هنـاك زمنـين: زمنـا يعيشـه النّـاس مـن حولهـا فـي حـراك كبيـر، فيـه الشّـمس سـاطعة بكـلّ توهّجهـا، وزمنـا تعيشـه مـع عائلتهـا، تتخلّلـه خيوط الشّمس المتسرّبة خلسة من شقوق النافذة المغلقة.

لـم يتغيـر شـيء، كـلّ مـا فـي الأمـر أنّهـا كانـت تقطـع الصّـالة وهـي صـغيرة فـي أكثـر مـن عشـر خطـى تقريبـا، والآن، وقـد بلغـت التاسـعة عشـرة، تقطعهـا فـي خمـس

خطى، حتّى أنّها تستطيع أن تتنقّل في البيت مغمضة العينين دون أن تصطدم بشيء. ستنتبه إلى التلفزيون قبل أن تصطدم به وإلى المكتبة قبل أن تلمس بيديها رفوفها.

تبتسم نور ولا تدري إن كان هذا الثّبات هو الحقيقة والحركة مجرّد وهم. تعرف الآن أنّ بارمنيدس يفهم الوجود من خلال نظرية الثّبات ولذلك يؤكد على قوله ان التغير فساد لأنّه يعني الانتقال من الوجود إلى اللاوجود.

هل يقصد أبوها هذا عندما يقول إنّ المجتمع يتّجه إلى العدم لأنّه يعيش جاهلية جديدة؟

يبدو أنّه يمكن لنور أن تستفيد من الفلسفة، التي أصبحت تدرسها الآن، كم يسعدها أن تفكّر. !

رفعت يدها تتحسّس شعرها فتلمّست الحجاب يشدّ رأسها وواصلت التفكير.

الزّمن يتقدّم وليس هناك ثبات، إنّ التعدّد والتنوّع ثابتان ولا نستطيع نكرانهما، فنحن نرى الجمال في الأزهار و الحيوانات و حتى الثياب، وهذا يعني أنّ التعدّد والتنوّع حقيقة لا ننكرها.

ابتسمت نور وشعرت بمتعة دراسة الفلسفة، وجّهت بصرها صوب خيوط الضّوء المتسرّبة من شقوق النّافذة والمنعكسة على الجدار قريبا من المكتبة إلى حدّ ملامسة كتب والدها الصفراء.

تبّا لبرمنديس وأفلاطون.!

لن تكون الحياة سوى حركة، والحركة تدبّ في بيتها ولا تستطيع أن تنكرها. هاهي الأعوام ق مرت وجعلت الشّيب يزحف على لحية أبيها، فيطليها من حين إلى آخر بالحناء أسوة بالسلف الصالح. أثر الأعوام جليّ على أمها، بخطوط من التّجاعيد الرقيقة ارتسمت حول عينيها متّجهة نحو الخلف. صوت أمّها لم يتغير لكن ضحكتها لا تزال مختنقة كعادتها.

نظرت نور إلى المرآة تتأمّل ملامحها، هي أيضا لم تعد تلك الطّفلة الصغيرة. ولا تنكر جمال وجهها، بعينيها الواسعتين وأنفها الدّقيق وبوسة خال ترتسم قريبا من فمها الصّغير تحرُسه من القبلات التي لا تأتي. لم تعد تلك الطّفلةَ التي تثير شغبا كثيرا في المدرسة، لم تعد تلك الطّفلة التي تبكي عندما تزورها خالتها وتتظاهر بأنّها نسيت أن تجلب لها هديتها فترفس نور بقدميها حتّى تخرج خالتها قطعة الشوكولا من حقيبتها وهي تقهقه.

يروقها أحيانا أن تعود في لحظات إلى سنوات طفولتها البعيدة. تبتسم وهي تتذكّر تلك الطّفولة الجامحة البريئة، ثم فجأة يكفهرّ وجهها وتمتقع ملامحها وتشعر بانقباض شديد في صدرها.

لقد تذكرت ذلك اليوم الرهيب.!

46

"علينا أن نستغل الفايسبوك".
هكذا حدّثهم "الشّيخ عبد الحميد" في أحد الدّروس طالبا منهم الانخراط في دورات تكوينية تدرّبهم على طرق استخدام الموقع الاجتماعي الشهير. ابتهج سيف بالـ"أيباد" الذي وصله، مثل بقية الإخوة، هدية من الجماعة التي آمن بها كلّ هذا العمر رغم أنّه لا يعرف منهم سوى بعض الشّيوخ الذين يجهل مهامّهم بدقّة، فقط هو يثق فيهم كثيرا ويعرف أنّهم وهبوا راية التّوحيد حياتهم.
اعتاد أن يحترم خصوصية المرحلة التي تتطّلب ألّا يسأل كثيرا، كلّ ما عليه الثّقة والطّاعة! لم يزعجه أبدا هذا الغموض الذي يلفّ الجماعة التي ينتمي إليها، خاصّة بعد أن انقضّ العلمانيون الكفرة على مقاليد الحكم من جديد وعاد الطّاغوت يحاصرهم.

كانت حصص الدورات التكوينية صعبة عليه، وهو الذي لا يميل إلى الدّراسة منذ صغره، لكنّه من أجل خدمة الإسلام كرّس كثيرا من الوقت حتّى يتقن ما يجب أن يقوم به، فأصبح بمرور الوقت ماهرا في التّعامل مع لوحة "الأيباد"وأنشأ له أكثر من عشرة حسابات على فيسبوك كلّها لشخصيات شبابية بأسماء مزيفة تحمل صور نجوم الكرة المحليين والعالميين وصور طبيعة أو شخصيات كرتونية. سيكون دوره من خلال الحسابات مساندة كلّ ما يقوم به إخوته في الجبال ودعم تحرّكاتهم بمهاجمة كلّ من يعارضهم والتّنكيل بكلّ من ينتقدهم.
بدت المهمّة سهلة: نقرة إعجاب هنا وتعليق داعم هناك وتلطّف في الردّ على آخر ومحاججة أحدهم بما يحفظ من آيات وأحاديث، وربّما الانسحاب أمامه بالدّعاء له أن يهديه الله يوما إلى طريق الحقّ. ولا بأس، أحيانا، في تهجّم على هذا وشتيمة لذاك وسخرية من آخر وسبّ غيره حتّى بفاحش الكلام. يحتاجون أن يظهروا كثرة وهم كذلك فعلا بإيمانهم وتقواهم.
يقول لهم الشيخ عبد الحميد دائما:
- نحن الطّائفة المنصورة وسينصرنا الله على القوم الكافرين.
ويردّد سيف باستمرار:
- بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا، فطوبى للغرباء.
بمرور الوقت، ازدادت مهارة سيف في التّعامل مع صفحات فيسبوك، وكان يعرف - بخبرته- أنّ بعض التّعليقات التي تعترضه هي لبروفايلات تعود إلى صابر. يجعلهما هذا يضحكان من ردود أفعالهما، خصوصا إذا التقيا في بروفايل شخصٍ يحقد على مشروع دولة التّوحيد فلا يخفي نقمته على دين الله، ككلّ العلمانيين الملاحدة أو اليساريين الأشرار، يواجهانه باللّين مرّة ويكيلان له الشّتائم أخرى. ولا بأس ببعض الكلمات خادشة الحياء أو لكمات افتراضية تسدَّد له في نصفه الأسفل، فكل شيء يجوز من أجل بلوغ مرحلة التمكين.

أحيانـــا، يجـــب أن يخاطـــب القـــوم بمـــا يفهمـــون. هـــذا الشّـــعب لا يلـــين إلّا إذا نُصـــبت لـــه المشـــانق أو هُشّـــم رأســـه تحـــت أحذيـــة المجاهـــدين. لا بـــأس بمواجهتـــه بكـــلّ الطّـــرق، بما فيها فيسبوك.
لأنّ للفيســبوك وجهــا آخــر يجعلــه تلهيــة عــن طاعــة الله، منعــه ســيف عــن عائلتــه. لــن يرضـــى أن يكـــون فـــي متنـــاول ابنتـــه أو أمّهـــا، لـــذلك تعلّـــل بانشـــغال ابنتـــه بالدّراســـة وبجهل ليلى استخدامه ليظلّ حكرا عليه هو فقط.
ســـيف لـــه صـــفحة أخـــرى ســـرّية لا يعرفهـــا أحـــد باســـم "العاشـــق الولهان"اختـــار لهـــا صورة البروفيل شفاه متعانقة.!

السّاردة نفسها تفاجأت بامتلاك سيف صفحة إباحية في الفيسبوك.!

47

استيقظْتُ مُنْهَكَة، أشعر بأنّ كلّ قطعة في جسدي تئنّ، كلّ جزء من روحي يتوجّع. أتنقّلُ بصعوبة وأتحاشى أن تلتقي نظراتي بنظرات أمّي. كان أبي في البيت يبحث عن كتاب لابن تيمية لا يعرف أين وضعه حين رمقني بنظرات خاطفة وسألني، بعد أن عاد إلى كومة الكتب المكدّسة أمامه يقلّبها:

- ما بكِ؟ تبدين مريضة؟

حوّلتُ نظري عن تلك الكتب القديمة بين يديه وتعلّق بصري بخيوط الشّمس المتسرّبة من شقوق النّافذة، ثمّ أجبت، بتبرّم:

- لا بأس، لستُ مريضة، فقط متعبة.

- لا تنسي اليوم دروس الجامع المعتادة ككلّ خميس بعد صلاة العصر.

- لي حصّة تدارك في المعهد مساء اليوم، لا أستطيع الذّهاب.

انفلت الردّ منّي ولم أقصد أن أكذب. تلقّى إجابتي بتأفّف. هل تفطّن إلى كذبي؟ لأوّل مرّة أكذب، ولا أدري لماذا. هل سيسامحني الله على هذه الكذبة الصّغيرة؟ وهل سيسامح أبي على جعله طفولتي ناقصة وحياتي مبتورة؟ هل سيسامح أمّي على سلبيتها المقيتة؟

كذبتي صغيرة ولن تؤذي أحدا، لكنّ الفكرة التي آمن بها أبي وأمّي آذتني كثيرا، بل خرّبتني وجعلتني مثل بلاد منهوبة.

انتبهتُ إلى أنّي لم أعد أطرح الأسئلة، كأنّي اكتشفت أنها بلا معنى طالما أنّني لا أجد عند عائلتي الأجوبة التي تُقنع عقلي، وكان علي أن أصوغ بنفسي الأجوبة التي تريحني. يجب علي أن أواجه هذه الحياة التي لم أخترها فعوّدت نفسي تدريجيا على أن أؤثّث وحدتي بما أحبّ، وإن لم يتوفّر لي دائما ما أحبّ.

لم يكن يُسمح في البيت بغير قنوات الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ولم يكن لنا إلّا كتب ابن تيمية وابن باز ودروس الخطيبي ووجدي غنيم ومحمد حسّان. وجدت في حصص المطالعة في المعهد منفذا فقرأت القصص والرّوايات الجميلة.

قادتني حصص المطالعة في الفصل إلى دنيا الروايات الممتعة وانفتحتْ لي عوالم رحبة ومدهشة. تسألني أمي أحيانا عمّا أقرأ فأقول إنّها رواية من البرنامج المدرسي. لن تضيرني في شيء كذبة بيضاء ما دمتُ لن أؤذي أحدا بأكاذيبي الصّغيرة، بل سأريح أمّي من أسئلتي وقلقي وأريح أبي من نظراتي التي ترشح غيظا وألما لا ينتبه إليهما.

كانت الرّوايات المختلفة توسّع مساحة حياتي وتجعلني أستمتع بعوالمها السحرية. وجدت ضالّتي في تلك الشّخوص المتنوعة والحيوات المختلفة. راقني أن أتخيل نفسي في هذه الشّخصية أو تلك أو في هذا الموقف أو ذاك. كنت أنزعج من كلّ ما يأخذني من عوالمي تلك، بل سأتجرّأ وأقول إنّها كانت

بديلا رائعا عن حلقات الدّروس في الجامع، عن صُحبة "الأخوات في الله" التي ينقصها ألق الحياة. أبعدتني عن الكتب الصّفراء التي تتحدّث عن أهوال القبر وجعلتني أتلهّى بها عن رائحة الندّ التي تفوح في بيتنا وتخنقني.!

قد تبدو العوالم الروائية خيالية لكنّها تحاكي مشاكل وأزمات وانتصارات وانكسارات. فيها آمال ورغبات ورعشات وشهقات وضحك. كلّ الشّخوص تتفاعل مع واقعها بطريقتها، حتّى أنّني أحيانا أخلط بينها وبين حياتي، التي تبدو لي عالما افتراضيا أو قصّة مصطنعة أنشأها خيال مجنّح، لكن الواقع كعادته يصدمني فأكتشف أنّي لم أبرح غرفتي الصّغيرة بجدرانها البيضاء التي تشبه الكفن!
كان يجب أن أتفاعل مع واقعي، مع طفولتي الحزينة، مع جسدي المبتور، مع حياة بلا روح. لم أكن أدري كيف أنجح في كلّ هذا. بدا لي التّأقلم مع الحياة مهمّة مستحيلة وكان يجب أن أجد منفذا أتواصل فيه مع ذاتي ولم تكن لي سوى الرّوايات. كم كانت ممتعة.!
كنت أمضي نهاري بين مكانين: المعهد، حيث أنكبّ باهتمام على دروسي، وغرفتي، حيث أنفتح بمتعة على عالم الرّوايات. شيئا فشيئا، صرت أتغيب عن حلقات الدّروس في الجامع، ثمّ انقطعت عن "أخواتي في الله". طمأنتُ أمّي وأبي إلى أنّي سأعود بعد أن أنهي سنة الباكالوريا، فتقبّل أبي الأمر على مضض وجارتني أمّي بتودّد مصطنع.
هكذا استطعت أن أدافع عن عالمي الذي أحببت، والذي كان يعجّ بشخصيات متنوعة. كنت أستمتع بتخيل الوجوه وأتأمل وجهي في المرآة هل هناك من يشبهني وأستمتع بتخيّل الأجساد كأنّني أعبر إلى جسدي الصّغير، الضّعيف والنّاقص. أحيانا، في غفلة من الجميع ومنّي أيضا، أجد كفّي تتسلّل دون قصد إلى جسدي تتحسّسه. يحدث ذلك خاصّة في بيت الاستحمام، حيث الباب مغلق وثقب المفتاح يغصّ بقطعة قماش صغيرة والماء دافئ والبخار يتصاعد والجسد عار إلاّ من شهوته. يحدث، عرَضًا، أن تصطدم يدي بكلّ أجزاء جسدي ويحدث أن تتوقّف في مكان ما. تسري الشّهوة فيّ، تلبسني وتتلمّس كفّي ذلك الشّيء الملتصق بين فخذي. أتحسّسه فيجمح بي الخيال وتتحوّل كفّي إلى عضو ممدود صلب ويشتدّ الحِكاك وأمنّي نفسي "اللّحظة سأعيش الرّعشة التي قرأت عنها، ستبرق الشّهقة المنتظرة، اللحظة ستنفرج نشوتي ببهجة لا توصف". ويشتدّ الحِكاك أكثر ويتصاعد ثمّ يصطدم رأسي بسقف إحباط حادّ وموجع وترتخي أعصابي فجأة وأشمّ حريق الشّهوة المشتعلة وقد تحوّلت فجأة إلى رماد. كانت كلّ اللحظات التي أختلي فيها بجسدي تنتهي بألم شديد ومرارة وكنت أحبّ أن أبكي ولا أستطيع.!
هل أخطأتُ.؟

ربّما يلزمني شيء آخر لأكتشف تلك الحياة اللذيذة التي تُلَمّح لها زميلاتي في الدّراسة وتشير إليها بعض الروايات ويدفعني الفضول إليها، تلك البهجة الغامرة التي يستمتع بها أبطال الرّوايات. كان يجب أن أبحث لنفسي عن منفذ آخر للتّواصل مع ذاتي.
يتناهى إلي صوت نيتشه - على غير موعد "المرأة، غلطة الله الثانية".
وأُسائل نفسي بحيرة:
- هل المرأة حقّا غلطة الله.؟

لم تقصد السّاردة التلصّص على اللحظات الحميمية التي تقضيها نور في غرفة الاستحمام، لكنّ فضولها كان شديدا لتعرف ماذا تفعل نور بجسدها عندما تختلي بنفسها، الغريب أنّ السّاردة لم تشعر بالذّنب من تلصّصها!.

48

لم تهدأ البلاد، تعاقبت الحكومات على السّلطة وازدادت الأزمات الاقتصادية والاجتماعية، ما زاد عزيمة الإرهابيين ونشاطهم. استوطنوا الجبال وتكاثروا في المدن وصاروا يفرّخون خلايا تتبعهم، خاصّة في الأحياء الفقيرة. يستغلّون الشّباب المهمّشين والمحبط حتّى يوفّروا لتنظيماتهم رصيدا بشريا لا ينضب. وتعدّدت العمليات الإرهابية حتى تحوّلت إلى هاجس يزعج الجميع. لسيف مكانته الاعتبارية في نفوس الشّباب السلفي منذ أيام ثورة 2011 عندما غادر السّجن بطلا.
ها هو الآن يستغلّ تأثيره ليستقطب شبابا جددا ويأتي بهم إلى حلقات الدّروس.

كان سيف قد تعلّم الخطابة وتقنيات التأثير من "الشّيخ عبد الحميد"، الذي صاحبه طويلا، وأيضا من دعاة الإسلام الذين تأثّر بهم، لذلك استعان بحفظ القرآن والأحاديث النبوية وأقوال الصّحابة والأدعية حتّى يضمن وجاهة حججه.
مهمّة سيف محدّدة: أن يأتي بالشّباب الفقراء المهمّشين، خصوصا من اندفع منهم بتهوّر متنمّرا على غيره أو مرتكبا سرقات صغيرة. سيف هو الأقدر على هذا الصّنف لأنّه خبر الحياة بما يكفي ليعرف أنّ داخل كلّ منهم يسكن طفل ضعيف يحتاج إلى من يربّت على كبريائه الجريحة المخدوشة في طفولته القاسية. وبذلك أصبحت لسيف خبرة لا يستهان بها في ترويض الشّباب وجرّهم إلى المرابض، وهو عمل يقدّره "الشّيخ عبد الحميد" فيثني عليه كثيرا أمام بقية الإخوة.
أسّس "الشيخ عبد الحميد" جمعية خيرية اختار لها اسم "أمل"تُقدّم مساعدات للعائلات الفقيرة يتطوّع للعمل فيها بعض الشباب الذين يأتي بهم سيف ليقوموا بأعمال خيرية تكفّر عن خطاياهم في المجتمع وتروّض أنفسهم لِمِ هو أهمّ!
العمل في الجمعية مجاني، لكنّ " الشيخ عبد الحميد" يمنح الشّباب هدايا عديدة في شكل هواتف ذكية أو أحذية رياضية أو مبالغ مالية لتغطية مصاريفهم الشخصية.. وحتّى يصلح حال هؤلاء الشّباب كان يجب أن يلتزموا بالصّلاة، فهي التي ستطهّرهم من ذنوبهم في حقّ الله. ولا بأس في حضور دروس في السّيرة النبوية والصّحابة الكرام ليطّلعوا على تاريخ السّلف الصّالح فيكون قدوتهم. من يصلح إيمانه أكثر يمرّره سيف إلى "الشّيخ عبد الحميد" في مهامّ أخرى، مثل المشاركة في خيمات في الجبال لتقوية الإيمان وممارسة بعض تقنيات الرّياضات القتالية. إنّ حياة الجبال تجعلهم مجتمعً الخير والصلاح، مقابل مجتمع الشرّ والفساد المحيط بهم. ومن ينجح في هذه المرحلة ويصلح إيمانه أكثر يوجّه إلى المرحلة التّالية، والتي عادة ما تكون سرية.
سيكون لهم التّمكين يوما.!

كان التّنظيم الحركي يخضع لتقسيمات دقيقة، فتعزل كلّ القطاعات عن بعضها البعض في سرية صارمة. حتّى سيف نفسه لا يُسمح له بمعلومات أكثر ممّا يحتاج إليه ولا يجوز له التصرّف في غير اختصاصه. لم يكن يزعجه ذلك أبا لأن ثقته كبيرة في كلّ شيوخ الجماعة وأمرائها.

كان سيف سعيدا بنجاحه في كسب تعاطف العديد من العائلات الفقيرة واستقطاب العديد من الشباب الذين يعرف أنّ منهم من يرابضون في الجبال ومنهم من يجاهدون الآن في حروب لنصرة الإسلام في سورية وليبيا ومنهم من استشهدوا في سبيل الله، يتذكّرهم سيف فيدعو، في سرّه كما في العلن:

- ربّي، لا تحرمني أجرهم وأدخلني معهم جنّات النّعيم.!

عن تركيبة تنظيم التيار السّلفي السرية لم تجد السّاردة في غوغل تفاصيل كثيرة يمكن أن توظفها في كتابة هذه الرّواية، ما يؤكد تحفظّهم الشّديد في الكشف عن آليات عملهم الحركي.

49

اعتادت ليلى أن تتنقّل في بيتها وتراه كبيرا فيه غرف كثيرة، أجملها غرفة نوم ملكية تفتح على جاكوزي مرمري اللون. لكلّ نوافذ البيت ستائرُ جميلة، وفي كلّ ركن تُحف ثمينة وعلى الجدران لوحات فنية نادرة. لديها أيضا غرفة نوم فخمة للضّيوف ومطبخ فسيح بثلاّجة كبيرة توحي لمن لا يعرفها بأنّها خزانة فيها ما لذّ وطاب من المشروبات واللّحوم والغلال. للمطبخ أرضية ملوّنة، في جانب منه ما يشبه البار ينفتح على صالون فخم وأنيق. في الصّالون بيانو جميل لمن يريد أن يعدّل مزاجه، وله أيضا أن يزيح السّتائر ويفتح النّوافذ فتصله زقزقة العصافير من حديقة غنّاء فيها مسبح جميل يجعلك ترغب في السّباحة أو الرّقص على أنغام الموسيقى تحت أضواء هادئة.

بيت يشبه تلك القصور التي تراها ليلى أحيانا عرضا في المسلسلات التركية تشرف فيه بنفسها على كلّ تفاصيله وتستعين بخدم يقومون بكلّ ما تريد. لها خادمة تهتمّ بالمطبخ وتعدّ ألذّ المأكولات وأخرى تهتمّ بتنظيف الغرف وترتيب محتوياتها.

تريد ليلى دائما أن تكون لها الكلمة الأخيرة في كلّ شيء. صحيح أنّها لا تحبّ أن تنهر خادمتيها لكنّها تحتاج، من حين إلى آخر، إلى أن تذكّرهما بأنّها سيدة البيت ولا يمكن لأحد أن يتجاوزها، وهذا ما يجعلها ذات هيبة لدى الجميع فيقدّرها زوجها الذي لم ينقص حبّه لها ومازال يفاجئها من حين إلى آخر بهدايا ثمينة.

ليس لليلى غير طفلتها، وعندما تتذكّر نورا تخرج من خيالاتها اللّذيذة وتصطدم بواقعها البائس وتضيق نفسها ببيتها الصّغير الباهت. تشعر ليلى بأنّ نورا نقطة ضعفها الكبيرة، لأنّها خذلتها في لحظة قاسية وتركتها بين قبضتي أبيها ومقصّ الغريب. لا يمكن أن تخذل ابنتها مرة أخرى فتنجب أطفالا غيرها، لو أنجبت طفلة أخرى لازداد شعورها بالعجز. تعرف أنّ ما مرّت به نور كثير عليها، لذلك تحبّ أن تحتفظ بها وحدها. تنتقل من حلم جميل إلى كابوس ثقيل كلّما تذكّرت مقصّ الغريب، تسرع في خطواتها وهي تنتقل من المطبخ إلى فناء البيت كأنّها تهرب من صراخ طفلتها المقيدة بقبضتي أبيها الكمّاشتين ومقصّ الغريب يتوغّل في الفراغ الصّغير بين فخذيها. يشتدّ صراخ طفلتها في جنبات ذاكرتها فتتمنّى، وهي تسلّ الأعشاب الطفيلية التي نمت بين وريقات النعناع، أن تسلّ صراخ نور من ذاكرتها.

كثيرا ما كانت تلقي نفسها على السّرير وهي تنشج بمرارة. وحتى تنشغل عن شروخ الماضي تعوّدت ليلى أن تتنقل في بيتها الصغير وتحسبه قصرا فخما وتتلهّى بسقي النعناع في الأصص البلاستيكية وتتخيلها حديقة غنّاء!

مازالت لا تعرف أنّ ما سيحدث لعائلتها سيحوّل بيتها إلى ركام.!

50

في السنة الرّابعة من التّعليم الثانوي، وهي تعدّ نفسها لاجتياز مناظرة الباكالوريا، كان نيتشه من أجمل اكتشافاتها. شدّها بملامحه المتناقضة التي تجمع اللّين والصّرامة، بنظراته الحادّة التي تكاد تنفذ إلى رأسها الصّغير، وبشاربيه الكثّين اللّذين يثيران فضولها. لم تظفر بصورة لنيتشه مبتسما وتساءلت ماذا لو أمكنها أن ترفع شاربيه قليلا لترى ابتسامته المختبئة؟

- ألا يبتسم الفلاسفة.؟

مازالت في مخيلتها صورة جوني ديب تتصدّر جدار غرفتها. مازالت تحبّه ومازالت وفية لأحلامها، بل أضافت بجانب صورة جوني ديب صورة أخرى لنيتشه. لا أحد غيرها يرى هاتين الصّورتين. لا أحد يقدر أن يتطفّل على خيالاتها ولا أن يجوس في أحلامها ولا أن يتلصّص على أفكارها. مع نيتشه أصبحت تشعر بدبيب أسئلة تسري في عقلها واكتشفت أنّها يمكن أن تفكّر، هي الأخرى، وراقها ذلك كثيرا، لهذا السّبب ربّما أحبت نيتشه، ربّما أرادته أن يكون أبا يحلّ محلّ جوني ديب، الذي لم تنجح في أن تكون ابنته ولا قطّته أيضا؛ مع نيتشه سيختلف الوضع، لا تظنّ أنّ للفلاسفة متّسعا من الوقت لإنجاب أطفال أو تربية قطط، فهم ينجبون أفكارا ويربّون البشرية.!

تلمّست حجابها، ثم سحبت يدها بسرعة وهي تقول، بصوت لا يسمعه سواها:

- أنا أيضا لستُ سوى فكرة.!

ابتسمت لاكتشافها، أجالت بصرها في أرجاء غرفتها الصّغيرة. كلّ ما في العالم هو أفكار، بعضها مشدود بأعمدة إلى السّماء والآخر مشدود إلى الأرض بأوتاد، ثمّة أفكار منغلقة وأخرى منفتحة، أفكار سطحية وأخرى عميقة، أفكار تنبت أفكارا وأخرى لا تشبه الأفكار. عَلِقَ بصرها بكتب أبيها الصفراء. أبوها، مثلا، فكرة منغلقة على نفسها وأمّها فكرة منسحقة لا تشبه إلا نفسها. أمعنت النّظر في جدران غرفتها البيضاء مثل كفن. الغرفة أيضا فكرة والقبر فكرة، ثمّ ارتفع بصرها إلى النّافذة المغلقة دائما، هي أيضا فكرة، لكنّها عندما تكون مغلقة تؤدّي معنى وعندما تفتح تؤدّي معنى آخر.

ما إن وصلت إلى استنتاج أنّها هي نفسها فكرة وكلّ العالم من حولها أفكار سابحة في الكون وأخرى ملتصقة بالأرض حتّى ابتسمت وهمست لنفسها:

- الأفكار يمكن أن تتواصل في ما بينها أيضا.

جلست إلى مكتبها وقد راقها أن تتحوّل إلى فكرة، فكرة تبحث عن ذاتها. قد يجعلها ذلك تتكسر إذا اصطدمت بفكرة صلبة وقد تُبتلع إذا اعترضتها فكرة أكبر تفتح فمها مثل قرش لا يرحم. وفَكرتْ أنّ أفضل طريقة لتكون فكرة قائمة بذاتها هي أن تتواصل مع أفكار أخرى، كأن تصادق فكرة يمكن أن تستفيد منها وتستمدّ منها طاقة للحياة، وليس أفضل من نيتشه فكرةً تبدو برّاقة ومتناسقة. انبثقت عن ذهنها خطّة ماكرة نفّذتها فورا فأخذت تخطّ أولى رسائلها إلى نيتشه:

الرّسالة الأولى

مرحبا سيدي،

قبل أن تنطلق أستاذة الفلسفة في تدريسنا الحصص الخاصّة بك، سَرَت همهمة بين التّلاميذ مردّدين أنّك من أكثر الفلاسفة جدلا وجرأة وإثارة، تخلّلت ذلك ضحكات مكبوتة تخبر بأنّك مجنون أيضا، لقد جعلني هذا أحذر وأحتاط أثناء دراسة أفكارك في الفصل. لا أنكر فضولي لمعرفة أفكارك لكنّني لا أحب أن تجرفني إلى ما لا أرضاه. لعلّ أهمّ ما لفت انتباهي منذ البدء هو التقديم الذي استهلّت به الأستاذة الدّرس. قالت إنّك كنتَ طفلا متدينا ابن قسّيس، أي أنك من عائلة متدينة محافظة وتربيتَ على تلاوة الكتاب المقدّس والصّلوات كلّ يوم وأنّك كنت تلقّب بالقسّيس الصّغير. لكنّ الغريب أنّ كلّ ذلك لم يشفع لك، إذ انقلبتَ على عائلتك وعلى مجتمعك وأعلنتَ الكفر بالإله ووصفت أخلاق الدّين بأخلاق العبودية. كيف فعلتَ كلّ هذا يا سيدي؟
لا يبدو لي سهلا أن ينشأ المرء في بيئة متدينة ثمّ ينسلخ عنها. ما الذي جعلك تفعل هذا؟ هل رأيت في طفولتك ما يجعلك تنفر من الدّين؟ هل ثمّة مَن عبث ببراءتك باسم الدين؟
لم تشر الأستاذة إلى دوافع تمرّدك وأُحبّ أن أعرفها؟ هل التمرّد معطى فطري أم مكتسب؟ هل نتمرّن على التمرّد تدريجيا أم يأتي دفعة واحدة؟ ألم تتملّكك رجفة وأنت تكتب ضدّ المجتمع والدّين؟ هل للفيلسوف قوّة أخرى تميزه من كلّ البشر فتجعله لا يخاف وهو يفكّر ضدّ المجتمع وضدّ الدّين ولا ينهار؟ أريد أن أعرف أيضا كيف تتلقّى العائلة خبر تمرّد ابنها عليها؟

قالت أستاذة الفلسفة إنّك كنتَ ضدّ المرأة وضدّ الصّداقة وضدّ الموت. حتّى الموت لم يسلم منك يا سيدي، وذهبتَ إلى أنّ الموت الطبيعي يأتي دائما في وقت غير مناسب وأنّك تفضّل الانتحار لأنه يعبّر عن إرادة الإنسان.
يا إلهي، كم تبدو أفكارك خطيرة.!

التقديم الذي استهلّت به الأستاذة الحصص المخصّصة لدروسك مثيرا فعلا، جعلني أتابع أفكارك بتهيّب حتّى لا تجرفني. لا أدري إن كان بقية زملائي قد تقبّلوا الدّرس مثلي، قد اندهشوا وتساءلوا بعد أن أربكتهم أفكارك.
أشعر بأنّك مختلف، وهذا يثيرني، لذلك أحببت أن أكتب لك. أريد أن أفكّر معك بصوت مرتفع، أن أناقش بعض مقولاتك التي أشعر بأنّها تستفزّني، فأنا مثلك نشأت في عائلة متدينة، لكنّ الإسلام غير المسيحية، ثم إنني محصّنة كما يجب بإيماني الشّديد. صحيح أنّ تمرّدك على المجتمع وعلى الدّين يروقني لكنّ هذا لا يعني أنّي سأفعل مثلك.!
كن بخير.
سلام.

من غريب الصّدف أنّ السّاردة نفسها كانت معجبة بأفكار نيتشه!
صحيح أنه يروق الساردةَ أن تكون هناك روابط مشتركة مع نور، لكن يصيبها الفزع كلما خطر ببالها أن تكون في مكان نور. لم تكن ترغب أبدا في أن تعيش تجربتها في الحياة.!

51

كعادتها، غادرتْ نور المعهد وحيدة. منذ حادثة الإعدادية، التي اكتشفت فيها أنها وحدها التي تعرضت لختان، أصبحت تميل إلى العزلة. عندما تكون بعيدة عن زميلاتها لا تحتاج إلى مقارنة قاسية بينها وبينهنّ. ولم تجتهد أي من زميلاتها في اختراق هذه العزلة التي لفّت بها نور نفسها، باستثناء بعض المرّات المتباعدة التي صاحبتها فيها زينب قليلا، بحكم أنهما يسلكان الطريق نفسه للعودة إلى البيت. أمّا زملاؤها الفتيان فكانت بالنّسبة إليهم كائنا لا يُرَى.!
لم تضايقها كثيرا هذه العزلة التي اختارت لنفسها وحاولت أن تؤثّثها بطريقتها.

تعُدّ نور هاتفها الخلوي أهمّ أصدقائها. تعدّل موسيقاه فتستمع إلى أغان مختلفة تصدح بإيقاعات عنيفة لا ينصت إليها غيرها. لا تدري لماذا أصبحت تميل إلى الموسيقى الصّاخبة، كأنّها تريد شيئا يهزّ أعماقها ويحرّك سواكنها، كأنّها كانت تفتّت داخلها أشياء متكلّسة أو كأنّها تصرخ من خلالها.

في يوم عادي غادرت نور المعهد عندما التحقت بها زينب، التي عادة ما تكون رفقة رحاب، لكنْ يحدث أن تتوتّر علاقتهما بسبب تمرين لم تنجزه إحداهما ولم تنجدها صديقتها أو بسبب عدد في اختبار يكون الفرْق فيه كبيرا فتتّهم إحداهما الأخرى بأنّها لم تساعدها بما يكفي أثناء الامتحان. فعلا، كانت زينب تلعن رحاب وتتّهمها بالأنانية المفرطة، فقد اكتشفت أنّها حجبت عنها الحلول في مادة الرّياضيات رغم أنّها سرّبت لها أجوبة امتحان التاريخ. كانت زينب تصف صديقتها رحاب بالغباء والنذالة، مضيفة أنّه لولا مساعدتها في الامتحانات لكانت لا تزال في الصفّ الثّالث. وأمام إيماءات نور، التي تبدو ساذجة، تمادت زينب فقالت إنّ صداقة رحاب لا تليق بها في الأصل وإنّها بدونها لا تساوي شيئا. ظلّت نور على إيماءاتها الغبية فواصلت زينب:

- هل تعرفين أنّ والديها مطلّقان (ثم وشوشت لها وهي تلتفت يمينا ويسارا) سأخبرك بسرّ أرجو أن يظلّ بيننا، يشتبه في سيرة أمّها (وأضافت بثقة) يبدو أنّه لهذا السّبب طلّقها زوجها، اللّطف يا ربي، أنا أخجل من أن تكون لي أمّ مثلها.!

في تلك اللّحظة لحقت بهما سيارة فيها رحاب وأمّها. توقّفت السيارة بجانبهما وصاحت رحاب:

- هيا نوصلكما إلى بيتيكما، هيا بسرعة.

قالت نور:

- شكرا لكما، أنا وصلت بيتي.

في حين لم تتردّد زينب، فتحت باب السيارة ودلفت إلى داخلها وهي تلوّح بيدها إلى نور:

- باي، شهية طيبة.

بقيت نور تتأمّل السيارة وهي تنطلق في الشّارع وقد صدمها نفاق زميلتها الفاضح. شعرت بألم في معدتها وبرغبة شديدة في الحديث، ولم يكن لها أفضل من صديقها تكتب له.

الرسالة الثانية

مرحبا سيدي،

تمرّ بنا أحداث يومية نعيشها بوعي ساذج، لكنْ عندما نجرّب التّفكير فيها قليلا نجد أنفسنا أمام إشكالات معقّدة، وربما محرجة. ما عشتُ هذا المساء مع زينب يجعلني أتساءل ما الأخلاق؟
أنا، مثلك، يسوؤني كثيرا نفاق النّاس من حولي، وهذا ما يجعلني أبالغ في عزلتي. يبدو لي الصّدق أسهل، فلماذا يحتاج الناس إلى النّفاق؟
اليوم، في حصّة الفلسفة نجحت الأستاذة في لفت انتباه كلّ التلاميذ إلى وجهة نظرك في الأخلاق، حتّى الذين من عادتهم ألّا يكترثوا بدرس الفلسفة، فينشغلون بخيالاتهم تأخذهم إلى خارج جدران الفصل، لاحظت اهتمامهم. قالت أستاذة الفلسفة إنه لا أحد تجرّأ على نقد الأخلاق مثلك. بدت متحمّسة وهي تقول إنّ كلّ القيم الأخلاقية المتأتّية من العادات والأعراف الشائعة والأديان التوحيدية وغيرها تعبير عن حالة ضعف وعجز.
يبدو هذا حقّا مربكا.!
هل تريد، يا سيدي، أن تقول فعلا إنّ أخلاق الرّحمة والعطف والتّضحية لا تكون إلّا من شخص عاجز وذليل؟
كنتُ إلى حدود هذا الصّباح أظن أنّ الأخلاق تعبّر عن رِفعة النّفس. لا يعني أنّي قَبلتُ ما تقول، لكن أحبّ أن أسألك هل تظن فعلا أنّ كلّ من لا يستطيع فرض سلطته على غيره يتعلّل بالفضيلة؟ هل تظن أنّ هذا فعلا ما يحدث؟ هل تريد أن تقول، مثلا، إنّ أمي تتمسّك بالفضيلة لأنّها تشعر في أعماقها بالعجز؟
فعلا، تبدو أمّي مسالمة جدا وأشعر انّ في أعماقها تسكن امرأة منسحقة بلا حول ولا قوة تجعلني أشفق عليها، لكنْ لا أظنّ أنّ ما تذهب إليه يمكن أن ينسحب على أبي أيضا، أبي قويّ ويتمسّك بقيم الدين ولا يفرط في سنن الإسلام ولا أستطيع أن أعلن انه ضعيف وهو يبرهن على قوته دائما بمناسبة أو بدونها.

قالت أستاذة الفلسفة أنك تقصد بأخلاق العبيد كلّ القيم الأخلاقية المتأتية من الموروث الثقافي. قد يبدو هذا ممكنا بالنّسبة إلى المجتمعات الضعيفة لأنها لا تنتمي إلى الدين الإسلامي. لا أظن يا سيدي أن هذا الدّين سبب ضعف المجتمعات، لو عشتَ، مثلنا، زمن داعش كنتَ حتماً ستغير رأيك، " أنصار

الإســـلام " و " شـــباب محمـــد " إن اكتشـــفوا أنـــك تختلـــف عـــنهم فـــي التّفكيـــر وأنّـــك تكتـــب ضـــدّ الـــدين يمكـــن أن يجـــزّوا رأســـك بســـهولة ويعلّقـــوه علـــى مـــدفع دبّابـــة أو على باب جامع أو على سور حديقة.

أشدّ الأنظمة بأسا الآن ترتعد منهم وتحسب لهم ألف حساب.!

ختمـــت أســـتاذة الفلســـفة اليـــوم الـــدرس بتأكيـــدك نســـبية الأخـــلاق، فلـــيس هنـــاك خيـــر مطلق ولا شرّ مطلق.
هـــذا القـــول مربـــك بالنســـبة لـــي، فهـــل تقصـــد أنّ مـــا فعلتـــه زينـــب هـــذا المســـاء وهـــي تغتاب صديقتها المقرّبة ثمّ تنافقها هو فعل أخلاقي؟
هـــل يعنـــي أنّـــك تعتبـــر مـــا فعلـــه أبـــي عنـــدما جـــاء بالغريـــب إلـــى طفـــولتي وفـــي يـــده مقصّ هو فعلا أخلاقي أيضا ؟
أن تقول، يا سيدي، إنّ الأخلاق نسبية فهذا يعني أنّه لا توجد قيم ثابتة.
يا للهول انك فعلا تقول كلاما خطيرا. !
الإســـلام يؤكـــد ان الأخـــلاق ثابتـــة حتمـــا وأظـــنّ أن الحيـــاة لا تســـتقيم دون قـــيم ثابتـــة، لـــذلك ربّمـــا يبـــدو كـــانط أكثـــر وجاهـــة منـــك عنـــدما يؤكّـــد كونيـــة الأخـــلاق. لكـــنْ حتّـــى قـــول كـــانط هـــذا يجعلنـــي فـــي لُـــبس شـــديد، فـــأن تكـــون الأخـــلاق كونيـــة لأنّ مصـــدرها الوحيد هو العقل الإنساني يعني أنّنا لم نعد في حاجة إلى الدين!
أجد نفسي مرتبكة أمام أسئلتي التي تطوّح بي يمينا ويسارا.
صـــدقا، كنـــت محتاجـــة إلـــى صـــوت أمـــي الآن تقطـــع حيرتـــي وتنـــاديني إلـــى صـــلاة العشاء.
مضطرّة لأن أقطع هذه الرّسالة.
دمت بخير.
سلام.

كانـــت الســـاردة ســـعيدة برســـائل نـــور وتعُـــدّها غنيمـــة، لكنهـــا لـــم تشـــأ أن تخبـــر أحـــدا كيـــف عثـــرت عليها، لا تريد أن تكشف، خاصة للقراء، الآن عن كل مصادرها في كتابة الرواية.!
كمـــا لاحظـــت الســـاردة ان نـــور تخلـــط بـــين القـــوة كمـــا يتحـــدث عنهـــا نيتشـــة و العنـــف بمـــا هـــو إرهاب لكن كان الوقت متأخرا لتصحيح هذه الفكرة.
لقد فات الأوان فعلا.!

52

ما حدث في ذلك اليوم أمام المعهد كان رهيبا. غصّ المكان بحشود التلاميذ وتدافعوا بفضول لمتابعة مشهد يتكرّر من حين إلى آخر. جاءت امرأة بعربتها الصّغيرة تبيع سندويتشات للتلاميذ أعدّتها في بيتها. دفعها الشرطي بقوّة وأمرها بأن تدفع عربتها وتعود إلى بيتها. صرخت المرأة قائلة إنّها لم تأت للسّرقة أو الاحتيال وإنّها فقط تسعى إلى كسب رزقها. دفعها الشرطي من كتفها:

- غادري المكان فورا، لا يحقّ لك البيع هنا.

علا صوت المرأة أكثر وهي تقول:

- كلّ مكان أذهب إليه تمنعونه عنّي، أين تريدني أن أبيع؟ لي أطفال أريد أن أدرّسهم ولي بيت يجب أن أدفع إيجاره؟

- هذا ليس شأني، غادري المكان فورا ولا تبيعي شيئا هنا.

تزايدت حشود التلاميذ وانضمّ إليهم بعض المارّة والفضوليين، منهم من يساندون الشرطي ومنهم من ينحازون للمرأة ومنهم من يتضاحكون مستمتعين بمشهد مسرحي مجاني. كانت نور تنظر إلى المرأة بشفقة وقد انخفض صوتها وهي تتوسّل إلى الشرطي:

- أرجوك يا سيدي، أطفالي يحتاجون إلى هذا العمل، ليس لي سند في الحياة وأحتاج إلى أن أعيل أطفالي.

زفر الشرطي، وقد بدأ صبره ينفد:

- قلت لك احملي أشياءك وغادري المكان فورا.

- لم أفعل شيئا - ارتفع صوتها وهي تضيف- ليست جريمة أن أبحث عن رزقي هنا.

يبدو أنّه لم يعد ثمّة متّسع من الكلام في صدر الشّرطي، إذ دفع عربة المرأة بسرعة وهو يصرخ بكل قوة. ولأنّها كانت تمسك العربة تعثّرت وسقطت أرضا فتناثرت السندويتشات حولها وتعالت صيحات التّلاميذ. رفعت المرأة رأسها، وفي لحظة خاطفة التقت عيناها عيني نور. زمجر الشرطي في وجوه الحاضرين:

- انفضّوا بسرعة، ماذا تريدون؟

ثمّ عاد يركل العربة بقوة!

لم يتجرّأ أحد على مساعدة المرأة، فلم تجد نور بدّا من الصّراخ في وجه الشّرطي:

- ابتعد عنها، لِمَ كلّ هذه العجرفة، أيها الشرطي؟

ثمّ اخترقت الحشود وساعدت المرأة على النّهوض. في الحقيقة، لا أحد سمع صراخ نور، فقد بقي صوتها في حلقها ولم تتحرّك من مكانها ففقد ظلّت تنظر إلى الشرطي بحنق وإلى المرأة بشفقة. ظلّت النّظرة التي وجّهتها المرأة لنور وهي على الأرض ملتصقة بذهنها. فقط ناقوس الحصّة الموالية أنقذ نورا من

عجزها فغادرت المكان. التفتت، وهي تطأ عتبة باب المعهد، فرأت التّلاميذ قد انفضّوا من حول المرأة، بينما هي مازالت على الأرض والسّندويتشات متناثرة حولها في حضرة شرطي يخشاه الجميع.
حملت نور هذا المشهد المؤلم إلى الفصل ولم تستطع أن تسيطر على مشاعرها وهي تتابع درس التاريخ. لا تزال الإهانة التي لحقت المرأة توجعها والنّظرة الخاطفة التي وجّهتها لها وهي على الأرض تخزها وتُشعرها بتواطئها ضدّها، وأشدّ ما يدميها أنّها تلمح النّظرة ذاتها في عيني أمّها حين تتلقّى صفعات أبيها، لأنه لم يجد الأكل لذيذا أو لأنّ المنشفة لم تكن في مكانها. لم تستطع نور أن تدافع عن أمّها أيضا وتمنع عنها صفعات أبيها الذي يبرّر ذلك أثناء غضبه بأنه يربّيها، وحين يهدأ يقول إنّه الشيطان عليه لعنة الله، ثم يضيف وهو يهزّ كتفيه:
- ليس عليّ لوم.!
يعذّب نور أنّها لم تستطع يوما أن تدافع عن أمّها. لا تقصد أن تتشفّى منها لأنّها لم تنجدها من مقصّ الغريب، لكنّها تعجز عن التصدّي لأبيها، مثلما عجزت عن نجدة المرأة اليوم لأنّها لا تستطيع مواجهة الشرطي.
كم تخشى أن يكون العجز قد سكنها، وتذكّرت جسدها الناقص.

ترى لو كان صاحب العربة رجلا هل كان الشرطي سيعامله بكلّ تلك العجرفة؟ هل كان سيسقطه أرضا وينثر كلّ بضاعته أم أنّه قد استباحها لأنّها امرأة؟

كانت نور ترغب في البكاء. تشعر بأنها امرأة بلا موقف ولا تحبّ أن تكون كذلك.
في ذلك المساء، كتبت رسالة أخرى إلى صديقها نيتشه.

الرّسالة الثالثة

مرحبا صديقي،

أثارني ما قالت أستاذة الفلسفة عنك فرغبت في الكتابة إليك، قالت إنّك قوّضت الفلسفة كليا وأسّست أخرى أقمتها على إرادة الإنسان. يبدو هذا رائعا، ولكن رأيك في المرأة أثارني كثيرا.
هل يعقل أن يمجّد فيلسوف مثلك الإنسان ويهين المرأة.؟
أحقّا ذلك هو رأيك في المرأة؟
من المثير جدّا أن تشبّه الحقيقة بالمرأة، تقول ما معناه أن الإنسان يجب أن يتملّك الحقيقة مثلما يتملّك المرأة وإن كنتُ لا أدري بالضّبط قصدك، هل كنت تحُطّ من قيمة الحقيقة التي تريد أن تجعلها في متناول الجميع أم أنّك تروم إعلاء قيمة المرأة فرفعت شأنها وجعلتها أسمى من الجميع؟
عندما ذكرت الأستاذة مقولة لك تعُدّ فيها المرأة مصدر اللاّعقلانية تأكّدت من أنّك تكره المرأة فعلا، وصدقاً أحبطني ذلك، بل شعرت بأنّك لا تختلف عن أبي. كأنّ المرأة طفل لا يكبر، يجب أن يربّيها الرّجل، سواء كان غبيا أم جاهلا أم فيلسوفا.

اليوم عشتُ مشهدا موجعا أمام المعهد أهينت فيه امرأة مسكينة جاءت تبيع سندويتشات للتلاميذ. أزعجني كثيرا أنّ المشهد الذي اعتدت أن تُهان فيه المرأة في بيتنا قد انتقل إلى الشارع، كأنّ إهانة المرأة حدثٌ عادي يجب أن نألفه في بيوتنا وخارجها وفي كتب الفلسفة أيضا.
لا أفهمك، يا سيدي، لا يليق بفيلسوف مثلك أن يقول ذلك، فعلى امتداد التاريخ الإنساني تحمّلت المرأة صلف الرّجل وغروره وعانت كثيرا من جهله وأنانيته؛ لذلك أَولى بالفلاسفة أن ينصفوها، أمّا أن تكون ضدّها فهذا ظلم كبير منك.
أستطيع، أنا الفتاة التي لم تقرأ كتبا كثيرة مثلك ولا أدّعي الفلسفة، أن أناقشك وأرفض نظرتك إلى المرأة.
كيف تؤمن بالإنسان وتحتقر المرأة؟ هل يعني هذا أنّك تستثني المرأة من الإنسانية؟
أين سألتجئ الآن. ؟

عندما ذَكَرَتْ أستاذة الفلسفة اليوم مقولتك الشّهيرة "إنّ الحقيقة، مثل المرأة يجب أن تُغتصب" ضحك التلاميذ، ربّما تخيلوا كيف يمكن للمرء أن يضاجع الحقيقة غصبا عنها. طبعا، هذا تصوير مثير ينجح في إثارة الانتباه وأعُدّه دعابة سخيفة منك. وقد سألتُ الأستاذة لماذا هذا الوعي الذكوري الذي يسيطر على طالب الحقيقة عند نيتشه؟
ألا يمكن أن نفكّر في الحقيقة بعيدا عن مقولة الاغتصاب هذه؟ ثمّ لماذا تتّجه بنا إلى نصف المرأة الأسفل؟

لـم يبـد علـى الأسـتاذة أنّهـا اهتمّـت بسـؤالي، فقـد انشـغلت بفـرض الهـدوء علـى بعـض التلاميذ الذين بالغوا في التّشويش أثناء الدرس.

علـى كـلّ، هـا أنـا أكتـب لـك وأنـا أعـرف أنّـك لـن تجيبنـي لأنّـه مـن الغبـاء أن أنتظـر ذلـك منـك وأنـا أعـرف أنّـك ميـت، لكنّنـي قـد أجـد إجابـة مـا فـي مـا سيتيسّـر لـي مـن كتبك.
أفكّـر ألّا أقتصـر علـى فلسـفتك فـي مـا سـأنال مـن حصـص الفلسـفة وسـأجعل قـراءة كتبـك، وخاصّـة "أفـول الأصـنام"و"ما وراء الخيـر والشـرّ"، ضـمن جـدول قراءاتـي فـي السّـنوات القليلـة المقبلـة، ربمـا يجيبـانني عـن أسـئلة كثيـرة تشـوّش علـي هدوئي المصطنع.
تربكني الأسئلة، كما يربكني كلّ مقصّ أراه.!
كن بخير.
المخلصة نور.
سلام.

تَـذَكَّرَتْ نـور لسـعة المقـص، شـعرتْ بـأنّ كـل الـذكور سواسـية، مهمـا اختلفـت أزمنـتهم أو ثقافتهم أو وعيهم وهالها الأمر. .!
رمت الساردة قلمها وأسندتْ رأسها إلى ذراعها الممدّدة على الطّاولة وأجهشت بالبكاء.
زوجها أيضا مثل كل الذكور، يعمل على بخسها دائما خصوصا كامرأة كاتبة.!

53

كانت الحركة في المعهد على أشدّها، نصبوا منصّة في الساحة وعلّقوا الزّينة ورصّوا أصص الأزهار، تتخلّلها بالونات بألوان مختلفة. إنّه يوم الاحتفال بالعامل المثالي. ابتسمت نور وهي تقول في سرّها هذه بادرة لطيفة، عامل المعهد يستحقّ تكريما يليق بجهده، طوال العام، في تنظيف السّاحة وقاعات الدّرس، قبل أن ينهي يومه، بستانيا يهتمّ بحديقة المعهد وحارسا يمنع عن المعهد الأغراب، وقبل هذا وذاك نادلا يجلب للمدير قهوته من المقهى المجاور.
وضعوا طاولة عليها شراشف نظيفة وأنواع مختلفة من الحلوى والمرطّبات والعصائر. سيستغلّون فسحة استراحة المساء حتما ليكرّموا "عم صالح"، هو رجل صالح فعلا، هكذا كان يردّد التلاميذ في ما بينهم.

عندما حان الموعد خرج كلّ الأساتذة والتّلاميذ وبعض الأولياء إلى ساحة المعهد لمتابعة الاحتفال. صعد النّاظر، وسط تصفيق الحاضرين، يلقي كلمة يشيد فيها بالعامل المثالي في المعهد. كانت نور تبحث بعينيها عن "عمّ صالح"وسط الحشد فلم تره. من المؤكّد أنّه في مكتب قريب وسيظهر للجميع حالما يعلن عن اسمه. ظلّ النّاظر يشيد بمجهودات العامل الجبّارة، ثمّ طلب من الحضور القليل من الهدوء ليعلن عن اسم العامل المثالي وكانت المفاجأة: مرّة أخرى يكرّم مدير المعهد بلقب العامل المثالي. كانت المفاجأة شديدة على نور وهي ترى مدير المعهد يتقدم بكلّ ثقة وسط الجمع ويعتلي المنصة فيُحيي الحاضرين. لم تستطع نور أن تتماسك وشعرت بإحباط شديد. ولحسن الحظّ لم تكن لها حصّة دراسية ذاك المساء فغادرت حشد التلاميذ، الذين صفّقوا بحرارة، منتظرين لحظة دخول المدير إلى مكتبه لينقضّوا على طاولة الحلويات والعصائر.
في الباب الخارجي كان "عمّ صالح" يحرس المعهد حتّى لا يدخل فضولي أو غريب. سلّمت عليه بابتسامة هادئة وهي تشعر بوخزات مؤلمة من هذا التصرّف الذي يجعل العدالة بين النّاس وهماً. عندما حدثّت أمّها عن الأمر قالت لها:
-لا بأس، سيكون العدل في الآخرة وسينصف الله "عمّ صالح".
تساءلت، وهي ممدّدة على سريرها، هل يعني كلام أمّها أنّ الله سينصفها في الآخرة؟ هل سيعاقب أباها على ما فعل بها؟ هل سيعاقب أمّها على صمتها؟ هل سيعاقب الغريب الذي أدخل مقصه إلى هناك؟ كيف سيبرر لها الله تخليه عنها؟
تذكّرت أنّ أستاذة الفلسفة قالت إنّ الإله قد مات أيضا، حسب نيتشه.!
شعرت نور بالارتباك وكان لا بد أن تكتب لصديقها.

الرّسالة الرّابعة

مرحبا صديقي،

قالت أستاذة الفلسفة اليوم إنّك أعلنت موت الإله.!
أزعجني جدّا يا سيدي أن تقول ذلك عن الله. صحيح انه يروقني تمردّك وتعجبني ثورتك على المجتمع، لكنّ هذا لا يعني أن يصل بك الأمر إلى حدّ أن تعلن للعالم أنّ الإله قد مات. أفهم أنّك فعلت ذلك، ربّما لأنّك منزعج، مثلي، من القيم الزّائفة التي بدأت تنتشر في المجتمعات. فأنت تشبهني، لا تطيق نفاق النّاس. يتظاهرون بقيم نبيلة ويؤذون غيرهم، يتظاهرون بمحبّة الآخرين ولا يعبّرون لهم إلّا عن كرههم. لا أتحمّل أن يسرق المرء جهد غيره أو يسرق حياته. يزعجني هذا كثيرا، لكن كل ذلك لا يبرر إعلانك موت الإله.
أظنّك، يا سيدي، قد بالغت كثيرا في تمرّدك.
لا أظنّ أنّ الإله مسؤول عن نفاق النّاس ولاعن تصرّفاتهم. لقد منح الإنسان حرية الاختيار ثمّ سيحاسبه على ما يقوم به من أخطاء في حقّ الآخرين.
إن قتلتَ الإله يا صديقي فمن سيعاقب النّاس الذين ظلموا غيرهم والذين سرقوا أموال غيرهم، بل سرقوا حياة غيرهم؟
أن تقتل الإله يعني أنّ المخطئين قد ضمنوا الخلاص من العقاب، وهو ما لا يجب أن يكون.!

قالت أستاذة الفلسفة إنّك عندما أعلنت موت الإله كنتَ تقصد تقويض الميتافيزيقا الغربية من أجل تأسيس فكرة الإنسان الأعلى. قد يبدو هذا جميلا، لكنْ هل تظن أنّ الإنسان الأعلى يمكن أن يكون وقد قُتل الإله فيه.؟

تبدو الحياة صعبة جدّا بوجود الإله، فكيف ستكون بدونه.؟

أظن أنّك تصنع أعداء كثرا بمثل هذا القول، ولو كنت تعيش في زمني لقطع إخوة أبي في الله رأسك ولتباهي من فعل بك ذلك ببطولته، وأظنّه سيلتقط صور "سيلفي"مع رأسك وقد تهدّل شارباك، ثمّ يعلّق رأسك على ماسورة كلاشينكوف. سأتألّم كثيرا لذلك، وأغلب الظنّ أنّي سأبكيك، لكنّ بكائي لن يغير مصيرك المحتوم، لذلك كنت أحبّ لو تخلّيت عن فكرة قتل الإله هذه. حتّى زملائي في الفصل ضحكوا من فكرتك وردّت الأستاذة على سخريتهم بأنّه لا يجب الحكم عليك أخلاقيا في هذه النّقطة وألا نفهم هذه الفكرة خارج سياقها، بل في إطار نقدك للميتافيزيقا الأوروبية.
هذا جميل يا صديقي، وأظنّ أنّك يمكنك أن تنتقد كما يحلو لك دون أن تقتل الإله.!

خلــق الله الإنســان والحيــاة والجمــال، ولا أظــن أنّــه خلــق الظّلــم. صــحيح أنّنــا، أحيانــا، نشــعر بــالظّلم عنــدما نوجــد فــي زمــن لا نحبّــه وننتمــي إلــى مجتمــع لــم نرغــب فيــه، وربّمــا أيضــا عنــدما نولــد فــي عائلــة لــم نخترهــا، لكــنّ الله هــو ضــامن الحيــاة المقبلــة. لا أظــن أنّ كــلّ نصــيبنا هــو هــذه الحيــاة التــي نعــيش فقــط، أنــا أعتقــد يقينــا أنّــه توجد حياة أخرى وأنّ الله سيجازي كلّ الصّابرين ويعاقب كلّ الظّالمين.
لا أقصــد بالظّــالمين أبــي أو أمّــي طبعــا، فأنــا أجــد فــي أبــي خصــالا حميــدة رغــم أنّــي أشــعر بأنّــه ســرق حيــاتي، لكنّــه هــو الآخــر ضــحية الجهــل وضــحية تجّــار الــدين. لا أظنّــه كــان ســيفعل بــي مــا وقــع فــي ذلــك المســاء الحــزين لــو لــم يــأت ذلــك الدّاعيــة الجاهــل وجــدي غُنــيم الــذي قالــت أمّــي إنّــه أحــدث بلبلــة بقدومــه إلــى بلادنــا حــاملا أفكاره الهدّامة.
لا أحــبّ أن أبتعــد عــن موضــوع رســالتي الأساســي، لأنّــي بصــدق منزعجــة جــدّا هــذه المــرّة مــن تطاولــك علــى الإلــه. طبعــا، عليــك أن تقبــل رســالتي هــذه بكــلّ مــا فيهــا من لوم، وثق بأنّ هذا لن يؤثّر كثيرا على تقديري لكَ.
كن بخير.
المخلصة نور.
سلام.

54

عند بزوغ الفجر استيقظت نور مذعورة على صرخات أمّها المكتومة وهي تتلقىّ صفعات من زوجها يجبرها على النّهوض للصّلاة مثل كل مرة يغلبها النوم، فقامت مرتبكة للوضوء حتى لا تنال حصّتها من صفعاته. بدا لها السّبب واهيا، وقد يكون مجرّد تعلّة ككلّ مرّة يريد فيها أبوها أن ينفّس عن ضغوط الحياة فلا يجد غير وجه زوجته، يتلقّى منه الصّفعات والشّتائم ممزوجة برذاذ بصاقه.
كان قاسيا جدّا عليها أن ترى أمّها تهان بشدة، ثمّ تَعِدُ نفسها في كل مرة بحياة أفضل بعد الموت.!

غادرتْ نور البيت بسرعة في اتّجاه المعهد بمزاج سيء، دون أن تنظر إلى أمّها وهي تغصّ بدموعها. كانت تصعد سلالم المعهد بخطى واسعة، وفجأة تعثّرت في ردائها الطّويل فسقطت أرضا. تعالت الضّحكات السّاخرة حولها وهي تقوم من سقطتها. تمنّت ألّا ينتبه إليها زملاؤها في القسم فيجعلوها أضحوكة، لكنّ العيون حولها كانت كثيرة. عندما جلست إلى طاولتها حاولت تجاهل الهمسات السّاخرة من حولها. أرادت أن تنسى بكاء أمّها وسقطتها المريعة فشغلت نفسها، كعادتها، بالدّرس.
أية حياة بائسة تعيشها.!

في الفصل، كان الأستاذ يوزّع التّلاميذ إلى مجموعات لإعداد ورشات عمل. انقسم التلاميذ جميعهم وبقيت هي بمفردها لا تنتمي إلى أية مجموعة. كلّما همّت بمجموعة قالوا لها: "استوفينا النّصاب ولا يمكن أن نضيف شخصا آخر".
قال لها الأستاذ:
- بقيتِ وحدك إذن؟
صوّب بصره إلى التّلاميذ كأنّه يستجديهم وهو يقول:
- من يضيفها إلى مجموعته؟
همهمات التلاميذ حولها أشعرتها بطعنة في كبريائها.
لا أحد يرغب في أن ينضمّ إليه كيس أسود.!
قال تلميذ يُدعى فارس:
- لا بأس، تعالي معنا.
ردّ تلميذ من المجموعة:
- لا، لقد استوفينا النّصاب.
لوّح الأستاذ بيده وهو يقول لها، بلامبالاة:
- ابحثي عن مجموعة بنفسك أو أنجزي العمل بمفردك.

آلمهـا كثيـرا أن ينفـر منهـا التلاميـذ فيعاملوهـا بلامبـالاة. هـي لا تعـرف كيـف تفسّـر ذلـك ولا تجهـد نفسـها مـن أجـل التّواصـل معهـم، ربّمـا لأنّهـا فعـلا كـيس أسـود كمـا يحلو لبعضهم أن ينعتها.
صار مزاجها سيئا جدا هذا اليوم.

كانـت تهـمّ بالـدّخول إلـى البيـت عنـدما وجـدت علـى عتبـة البـاب ظرفـا مـن المعهـد فيـه بيـان أعـدادها للسداسـي الأول والتـي تمكّنهـا مـن تجـاوز منـاظرة الباكالوريـا بمعنويـات مرتفعـة. أخيـرا تحصـل علـى خبـر جميـل. دخلـت البيـت ضـاحكة، وفـي يـدها ورقـة أعـدادها. وجـدت أمّهـا منكسـرة بعينـين حمـراوين كانتـا تبكيان فلم تبال بنجاحها، وكان أبوها منشغلا عنها فقال لها معرضا:
- لن تحتاجي إلى كلّ هذا لمستقبلك، يكفي ألّا تكوني غبية مثل أمّك.!

دخلـت غرفتهـا وهـي تشـعر بإحبـاط شـديد. ارتمـت علـى فراشـها جثّـة منهكـة. كانـت تبكـي وتشـعر بضـيق شـديد. وكـان لا بـدّ لهـا مـن صـديق، كتبـت رسـالة إلـى نيتشه، ثم نامت مثل كيس أسود ملقى بإهمال.

الرّسالة الخامسة

مرحبا،
هذه المرة، تردّدتُ كثيرا قبل الكتابة إليك..

أصبحتُ أشعر بالملل من حصص الفلسفة، الأستاذة لا تبالي بأسئلتي، تتعلّل بضغط البرنامج الدراسي وضيق الوقت، وأجد هذا تبريرا واهيا، ربّما هي نفسها لا تملك أجوبة عن أسئلتي، وهذا يحبطني كثيرا.

كلّ ما قامت به الفلسفة هو إيقاظ أسئلة العقل، لكنْ ما قيمة هذه الأسئلة إن بقيت معلّقة في سماء الحيرة، فلا نحن نظفر بأجوبة ولا هي تتركنا نستريح؟
سعدتُ، في البداية، بدبيب الأسئلة في عقلي يفتّح كلّ النوافذ فأطلّ على العالم بألوان أخرى. شعرت بأنّني أحيى من جديد، لكنْ ما الجدوى ولا أجوبة تشفي غليلي وتفكّ قيودي؟ لا أجوبة تعيد إليّ الثّقة في جسدي وتصالحني مع الحياة.
لقد زادت الفلسفة فساد مزاجي وأربكتني وزادتني هموما أخرى.

ما جدوى أن توسّع الفلسفة عالمي وأنا محبوسة في غرفة صغيرة بنافذة لا تفتح؟
ما قيمة أن تضفي الفلسفة المعاني على الحياة وحياتي بلا معنى؟
ما الجدوى من التّفكير وأنا أصطدم في كلّ مرّة بنظرات أبي اللاّسعة وخنوع أمّي المقرف؟

أشعر بالضّيق، كأنّ الأرض لا تتحمّلني. يبدو أنّ أسوار الإيمان قصيرة لا تصمد أمام أسئلة العقل، لذلك أشعر بأنّه لا نفع منّي في هذه الحياة.

أنتَ أيضا، يا سيدي، لستَ أفضل حالا منّي، هل تستطيع أن تخبرني ما النّفع الذي قدّمته لكَ الفلسفة وقد أنهيت حياتك مشرّدا؟ أغلب الظّنّ أنّك كنت تمرّ بحديقة فيترك الأطفال لعبهم ليرموك بالحصى وهم يسخرون منك "مجنون، مجنون"..
أنتَ نفسك أجدك انتهيت إلى أفكار عدمية بلا فائدة. أظن أنّ إرادة الحقيقة التي أبهرتني فيك لم تكن سوى إرادة الكذب على الحياة، وما الإنسان الأرقى سوى وهم لإنسان لم يكن كذلك سوى في ذهنك.؟

عندما خصّصت أستاذة الفلسفة حصّة تقويمية لفلسفتك لم أجهد نفسي في متابعتها. لم أكن أشعر بحاجة إلى نقد فلسفتك. لقد انتهيتَ بطريقة مأساوية وغادرتَ الحياة بطريقة لا تليق بقطّ في بيت محترم.

كانت الأستاذة تفسّر وبجانبي زينب منشغلة، كعادتها، بكتابة رسالة إلى أحدهم على هاتفها الخلوي، أمّا أنا فقد كنت منشغلة بسمر تداعب شعر عائشة المنساب على كتفيها. عنّ لي أن أحوّل بصري إلى فارس، يجلس باسترخاء وقد وسّع بين رجليه، كأنّه على طرف سرير يداعب القلم بيده اليمنى ويضع يده اليسرى على فخذه ونطّت إلى ذهني فكرة أخرى سيكون فارس بطلَها.

ليس من الضروري أن يكون الأبطال نجوم السّينما أو فلاسفة، بل يمكن لفارس أن يكون بطلا ويقدّم لي الأجوبة التي عجزت عنها فلسفتك البائسة.
أكتب لك رسالتي الأخيرة، وأظن أنّه لم يعد ثمّة جدوى من الكتابة إليك. لم تنفع نفسك، فكيف ستنفع غيرك.!

أظن أنّنا لا نظفر بالحياة في الكتب، بل في الواقع يا سيدي، لذلك الحياة نعيشها ولا نقرأ عنها.!

رفعت بصري إلى فارس، الذي وضع قلمه على الطاولة وترك أصابعه تجوس في خصلات شعره وهو يرفع رأسه تدريجيا إلى الخلف بتكاسل ليريح عنقه، استوت الفكرة عندي الآن.

هل تراه يقبل فكرتي المجنونة.؟

أفضل ما بقي من فلسفتك هو التحدّي، وأنا أتحدّى فلسفتك، يا سيدي، أركنها جانبا لأنّها لن تصلح إلّا لاجتياز الامتحانات المملّة، وسأمضي في حياتي أبحث عن أفضل طريقة أفتح بها النّافذة المغلقة في غرفتي وأطير..
كن بخير في قبرك يا صديقي.
وداع
المخلصة نور.

تحسّست السّاردة حزمة رسائل نور. فكّرت في أن تعيد النظر في بعض التّراكيب اللّغوية الواردة فيها، والتي يمكن أن تصاغ بطريقة أفضل، ثم عدلت عن رأيها. تعلم انه ليس من حقها التدخل في أفكار غيرها. و لم تكن تدري إلى أين ستقودها نور بعد ذلك. !

55

أخيرا، عرفت نور ما كانت تفعله أمّها في السرّ.
منذ صغرها كانت ليلى تقضي أوقاتا طويلة في سوق الملابس المستعملة. تذهب خصّيصا لـ"سوق الزهراء" الذي يشتهر بكثرة البائعين الذين يعرضون سلعهم المختلفة. هناك تجد كلّ أنواع الملابس لكلّ الفصول ولكلّ الأذواق ولكلّ المقاسات، حتّى أنّك قد تجد ثيابا من بلاد الإسكيمو وأخرى للقطط والكلاب. تشعر ليلى بمتعة كبيرة وهي تتنقّل بين أكداس الثياب بشغف شديد، ما جعل أمّها تستعين بها دائما لشراء ما تحتاج إليه العائلة نظرا إلى مهارتها في التقاط ما هو جميل بأرخص الأسعار. كما اشتهرت بذلك عند بنات عمها، فكنّ يستعنّ بها للتزوّد بما يحتجن إليه. كأنّ ثمّة حدسا يجعلها تنتبه إلى الطّاولة التي عليها أكداس من الثياب الجيدة؛ لذلك ثمّة طاولات تمرّ حذوها بلامبالاة وأخرى لا تتركها إلّا بعد أن تنبشها مثل كلب يبحث عن عظم في كومة فضلات.

في جولة أولى تغرف ليلى كومة الملابس وتقلّبها، ثم تلتقط ما بدا منها بلون جميل، تنشره أمامها وتدقّق في فصالته، تنتبه إلى أكمامه، تنظر في أزراره، تتثبّت من خياطته ثمّ تضعه جانبا وتضيف إليه ما ترضى عنه، حتّى يصبح لديها كدس صغير تعود إليه في جولة ثانية للتثبّت من مقاسه ونوعيته، تضع ما ترضى عنه على ذراعها هذه المرّة وتعيد إلى كومة الملابس ما لم ينجح في امتحانها، ثم تتّجه إلى البائع تساومه. وكعادته، يقسم إنّه يبيع ثيابا بماركات عالمية وليس له ربح في كلّ ما اختارت. غير أنّها تظلّ تلحّ كأنّها تستجديه حتّى تصل إلى الثّمن الذي تريد، بهذا كانت تتباهى أمام ثريا بأنّها الأمهرُ في التسوّق وبأنّ لها الفضل على العائلة بتزويدهم بالماركات العالمية بأبخس الأسعار.

كانت ليلى تجد في سوق الملابس المستعملة طريقة مميزة لتعزيز ثقتها في نفسها، حتّى أصبح التسّوق في "سوق الزهراء" من هواياتها المفضّلة، لذلك كانت تقضي وقتا طويلا فيه دون أن يصيبها الملل. وإذا ما كانت أختها ثريا تفخر بأنّها أفضل تلميذة على مقاعد الدراسة، فإنّ ليلى تشعر بأنّها الأستاذة أمام أكوام الملابس القديمة، تجيد فرز الثّياب التي تليق بالموضة وما يستحقّ رتوشا صغيرة وما يمكن أن يكون أكسسوارا، تقول لثريا، وهي تستعرض فستانا جميلا:
- ربّما كان هذا الثّوب الجميل لباميلا أندرسون أو لريهانا!
ثم تغمز بعينها وهي تشير إلى كلسون أحمر بالدانتيل:
- وهذا قد تكون ارتدته ويتني هوستن في "The Bodyguard". وتضيف، وهي تتنهّد:

- يا عيني على كيفن كوستنر كم هو ساحر، مستعدّة لأن أبيت ليلة واحدة معه أقول بعدها أيها الموت تعال.
وتقهقه الأختان.

منذ أن هداها الله والتزمت باللّباس الشرعي، لم تعد تذهب إلى سوق الزهراء إلّا لماما لاقتناء بعض الملابس الداخلية لها وما يتيسّر لطفلتها نور. أحيانا، تعثر على فستان قصير أو شورت جميل أو قميص بلا أكمام، تتفحّصه ثمّ تتنهّد وهي تعيده إلى كدس الملابس المستعملة، وأحيانا تغلبها الشّهوة فتدسّه تحت إبطها وتساوم البائع عليه.
الآن اكتشفت نور ما تفعله أمّها بعيدا عن الجميع.!

على غير العادة، تغيّب أستاذ التّاريخ عن الحصّة الصباحية فعادت نور إلى البيت. عندما دخلت الفناء الخارجي انتبهت إلى صوت موسيقى غربية تنبعث من غرفة أمّها. تملّكتها الدّهشة، فاقتربت بهدوء ووضعت يدها على مقبض الباب ثمّ فتحته. شهقت ليلى وفغرت نور فاها: كانت ليلى تضع شعرا اصطناعيا قصيرا أصفر وترتدي صدرية بيضاء تكشف عن الذراعين والصّدر بطريقة مثيرة مشدودة إلى تنّورة زرقاء قصيرة جدّا وحذاءً شتويا بكعب عال يصل إلى الرّكبتين. ظلّت نور مشدوهة، يدها على المقبض وجسدها مسمّر، أمّا ليلى فتحوّلت إلى تمثال جوليا روبرتس تؤدّي دور مومس في فيلم "woman pretty"..
وكان يجب أن تتكلّم إحداهما، سحبت نور يدها من مقبض الباب وهي تقول:
- ماما، هل أنت بخير؟
انتبه تمثال جوليا روبرتس إلى الموقف الغريب الذي هو فيه فمدّت يدها بسرعة تضغط على زر آلة التسجيل تقطع الموسيقى الهادرة واصطنعت ضحكة عالية وهي تقول:
- هههههه لا شيء، دفعني لهذا القلق هههههههه.
ثمّ بسرعة، سحبت الباروكة من على رأسها:
- اخرجي، سأغير ملابسي، قد يصل والدك فجأة أيضا.
ثمّ استدركت وهي تتطلّع إلى وجه ابنتها:
- لمَ عدتِ باكرا اليوم؟
لم تردّ نور، اتّجهت إلى غرفتها وأغلقت عليها الباب.
تظاهرت ليلى بتجاهل الصّدمة التي غمرت وجه نور وأسرعت تغيّر ملابسها وتلعن حظّها البائس في كلّ شيء.

وحدها السّاردة لم تكن مندهشة ممّا أتت ليلى، وأغلب الظّنّ أنّها تعرف أنّ لليلى مواقف أخرى شبيهة بهذه، وربما صادمة أيضا لا ندري لماذا لم ترغب في سردها.!

56

تلفّ نور جسدها بمنشفة وتجفّف بأخرى شعرها الحريري. لا أحد يعرف أنّ شعرها جميل. لا أحد ينتبه إلى جسدها المرمري ولا أحد يسمع صراخه الخافت. أسرعت ترتدي ثيابها لتلتحق بحصّة الإنجليزية وقد قرّرت أمرًا.!

ما إن أطلّت برأسها في الفصل حتّى أرسلت عينيها تبحث عنه بين زملائها، لم يأتِ بعد. إنّه يتكاسل حينا ويتمارض أحيانا. يبدو متحرّرا وجريئا، يحسن إلقاء النّكات البذيئة التي كانت تسترق إليها السّمع وتبتسم لها في سرّها.. لكن لِمَ لمْ يأت هذا الصباح؟

بدت لها الحصّة ثقيلة، وزاد ذلك إصرارها على ما عزمت عليه، ستتخلى عن كل جُبنها وتكون كما تريد، ما إن ارتفع جرس الساحة مدويا في أرجاء المعهد حتّى كانت خارج الفصل. أرسلت نظراتها تبحث عنه، يجب أن تجده.

على سور المعهد كان متّكئا، يرسل نظراته الزائغة، وبتكاسل ينفث دخان سجارته في اتّجاه السماء. اقتربت منه:

- صباح الخير.

نظر إليها بنصف عين، ثمّ امتصّ سيجارته بشدّة وأرسلها كومة من الدّخان تتكوّر أمام وجهه وردّ بابتسامة مائلة:

- وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.

فاجأتها تحيته فأرسلت ضحكة أرادتها عالية على غير عادتها وهي تميل إلى الخلف فتساءل بخبث:

- ها أنت تضحكين؟ هذا أمر جديد...

اطمأنّت لدعابته وقالت:

- سمعت أن أستاذ الإنجليزية يقدّم لك دروسا خصوصية في بيتكم، أريد أن أحضر معك.

- لكنّي أجدك مميزة في اللغة الإنجليزية.

قاطعته:

- أريد أن أتميز أكثر.

لم تدرِ كيف تجرّأت لتنظر في عينيه وأضافت:

- متى تبدأ الحصّة المقبلة؟

- غدا في السّادسة مساء، هل تعرفين بيتي؟

- نعم، إنّه في طريق الجامع.

وأضافت لتؤكّد:

- سأكون هناك ولن أتأخّر.

لم يكن فارس أكثر تلاميذ الفصل اجتهادا في الدروس، ولكنّه كان أكثرهم جموحا واعتدادا بشخصه. كان جليا أنّه يعتني بالرياضة أكثر من اعتنائه بالدّروس، لذلك يبدو جسده قويا ترتسم عضلات ساعديه تحت القميص الخفيف فتجعله مثيرا. كانت نور تسترق النّظر إلى جسده، ترسل بخيالها كفّها تتحسّس ساعديه القويين وصدره العريض وتمتدّ إلى رقبته المثيرة. شيء في جسدها يرتعش فتقرّب شفتيها من رقبته وتمدّ أصابعها لتتخلّل شعره. وما تكاد تلامس شفتيه حتّى تستفيق وتسلّ نفسها من هذا الخيال الجامح.. تستعيذ من الشّيطان الرجيم.
لفارس أستوديو صغير في بيتهم، خصّصته له عائلته أثناء التحضير للباكالوريا ليجتمع فيه ببعض أصدقائه للمراجعة. هناك كان أستاذ الإنجليزية يقدّم له حصص الدّعم.

وصلت نور في موعدها وجلست للدّرس. كان الأستاذ يفسّر وهي تنظر إلى الأوراق أمامها. اختلطت عليها كلمات وجمل ودوائر وسهام وشعرت بأنّ صوت الأستاذ لا يصلها. ربما لأن هناك صوتاً آخرَ ينبع من داخلها يعلو على كلّ الأصوات، صوتاً لا يشبه في أوامره صوت أبيها ولا في تعليماته صوت أمّها. يعلو الصّوت داخلها ويوجّه بصرها نحو يدي فارس وهما مستقرّتان على الطاولة، لكنّهما لا تستقرّان عندما تتلمّسان جسدها، يمدّ كفّه إلى نهدها، يداعبه برقّة ويرسل كفّه الأخرى تتحسّس خصرها، فتشعر بدبيب لذيذ وتصدر عنها آهة خافتة. تميل إلى الخلف قليلا، فيميل أكثر في اتّجاهها ويلتصق بها. تتحسّس شفتاه خدّها وأنفها وتسقطان على شفتيها، وتنتبه إلى صوت الأستاذ يسألها عن تمرين أمامها، فتستلّ نفسها من خيالها الجامح وتغادر لذّتها خفية حتّى لا ينتبه أحد إلى تلك اللحظة الجميلة التي كانت تعيش، وتستعيذ من الشيطان.

لم يكن هذا ليخفى على فارس. انتبه إلى شرودها وضبطها أكثر من مرة تتأمّله. راقه الأمر، وهو الذي يعرف الفتيات أكثر ممّا يعرف أسماء الفلاسفة. يحدث أن تذهب باكرا إلى حصّة الدّعم فيكونان وحدهما في انتظار قدوم الأستاذ، يميل عليها ضاحكا ويقول:
- المُتخبّي ع الأحباب عذاب.
ولأنّها تردّ بابتسامة فإنّه يضيف: "وقتاش يا مشموم؟"*
تتّسع ابتسامتها ولا تردّ عليه.

---
*وقتاش = متى (بالدّارجة التونسية).

57

قلوبهم ترتجف من الخوف، يتوجّسون من الأسئلة الصّعبة التي لا يَدرون كيف ستُصاغ لهم، فقد اقترب امتحان الفلسفة وازدادت حيرتهم. كانت نور من أشدّهم تميزا. أحَبّتْ كثيرا عقلانية ديكارت وجموح نيتشه ورصانة كانط وانفلات باخ. وجدَتْ أنّ الفلسفة تزرع فيها أسئلة أخرى وتؤجج حيرتها وقلقها. ولئن شعرت بأنّها تؤذي إيمانها فقد راقها في أعماقها أن يحاول عقلُها التملّص من أسوار المعارف الجاهزة التي اعتادتها في كتب والدها الصّفراء.
تعرف نور أنّ فارسا لا يضاهيها تفوّقا ولا تميزا في الدّراسة، وخاصة في الفلسفة.
اقتربت منه وقالت له:

- سأساعدك في فهم ما التبس عليك في درس فرويد، متى تريد أن نلتقي؟

حدَسَ ما تريد فأجاب وهو يحاول أن يخفي دهشته:

- هذا المساء.!

أبكرت نور في موعدها ورشّت العطر في خِمارها وجلبابها وفي كلّ مكان يمكن أن تصل إليه كفّ فارس، التي لم تستقرّ قطّ كلّما داعبها في خيالها.
استقبلها فارس في الأستوديو الذي كان فوضويا كالعادة، سألته:

- ماذا تريد أن تفهم؟

أجاب ضاحكا وهو يغلق الباب:

- كلّ شيء.

فتحَت الكتاب على صفحات المحور الأوّل وانطلقت تفسّر بعض المفاهيم التي تبدو مستعصية. كان فارس ينظر إلى يديها المرتعشتين. انتبهت بسرعة إلى نظراته الحارقة إلى يديها. تلعثم صوتها وحاولت أن تخفي ارتباكها بالإسراع في الحديث. مدّ فارس رجلَه لتلامس قدمها فلم تسحبها، ضغط عليها برفق ولم تسحبها. كان هذا كافيا ليميل بجسده عليها ويقول:

- عطركِ لذيذ.

عندما رَفعتْ بصرها إليه، كان قد اقترب بوجهه كثيرا. ودون أن تشعر وجدت نفسها تميل في اتّجاهه. وبدون تردّد، قطع فارس تلك المسافة الصّغيرة جدّا بين وجهيهما. كانت تلك أوّل قُبلة خاطفة منه، لكنّها لذيذة، كان ذلك فاتحة مَا تريد. وحدث ما جاءت من أجله أسرع ممّا خططت له.
تعدّدت القبلات الخاطفة، ثمّ تحوّلت إلى عناق حارّ ولذيذ. استبدّت بهما الشّهوة فقال، بصوت خافت مرتعش، وهو يشير إلى الأريكة:

- تعالي إلى هناك.

لم يكن لها عقل يفكّر في تلك اللّحظة أو لعلّها المرّة الوحيدة التي فكّر فيها عقلها وقرّر أن يصمت.!
انسابت نحوه في رقّة وصارت معه على أريكته في الأستوديو. الجسدان متلاصقان في عناق محموم.. أزاح عنها، في غمرة قبلات متتالية، الخِمار

وندّت عنه صرخة خافتة وهو يرى شعرها الجميل ورقبتها البيضاء. ترك فارس لشفتيه المتلعثمتين وأصابعه المرتبكة ونظراته المشوّشة سبيل اكتشافها، ذابت في حضنه ولم تدرِ كيف وجدت نفسها تبحث عن كفّه لتقودها إلى ذلك الشّيء الملتصق بين فخذيها..
كانت هناك نار تشتعل.!
تأوّه سيف من فرط الرّغبة وأَنَّتْ هي من شدّة الحرارة. تملّكتها شهوة حادّة ازدادت بالمداعبة واشتعلت بالقُبُل ونهشت ذلك الشّيء الرّابض بين فخذيها. كان يعتصرها متأوّها وهي تحته تتلوّى وتغمغم. تتحوّل اللذّة إلى فحيح ويتحوّل جسدها إلى كتلة حارقة فتتألّم. في لحظة خاطفة، انفرجت شهقة باذخة وارتسمت ابتسامة رضا لذيذة على شفتي فارس وفي نفس تلك اللّحظة تيبّس جسدها واستنشقت شهوتها المحترقة التي خلّفت ألما حادّا ينبعث من ذلك المكان الذي اقتطع منه شيء قيل إنّه سيجعلها شريفة، وهالها ما اكتشفت: جسدها ناقصٌ ومتعتها ناقصة وفرحتها ناقصة ثمّ.. لم تعد شريفة.!
تبّا لك أيها المقصّ.!
انزاح عنها فارس بلطف، وهو يهمس "كم كنتِ لذيذة"!
ثمّ أضاف:
- لماذا لا أجدكِ سعيدة.؟
لم تجبه، ولم يكن يدري أنّه بسؤاله قد سكب البنزين على جسدها المتخشّب. مدّت يدها تبحث عن خِمارها الذي تكرمش تحت قدميهما. كان الحزن السّاكن في أعماقها منذ طفولتها قد ارتسم على وجهها وسكن نظراتها وحركة يديها وعصفت بها الهواجس:
- هل صحيح أنّ المقصّ قطع سعادتها؟ هل تواطأ أبوها مع الرّجل الغريب وسلّ الفرحة من حياتها إلى الأبد؟ ها أنّها الآن لم تعد شريفة ولا سعيدة أيضا؟ أي جواد خاسر هي!
لن تستسلم بسهولة لقدرها البائس.
سكنت حركتهما وهدأت أنفاسهما. ملامحها حزينة، نظراتها حزينة، حركات يديها حزينة.
اخترقت الصّمت بصوت ذابل وقالت:
- سنعيدها ثانية.
حملق في وجهها وانتصب واقفا.!

58

في ذلك المساء عُدْتُ مُنهكة ومشوّشة وحزينة، عُدْتُ أجرّ صباي الناقص. أشعر بأنّ إعاقة جسدي المبتور قد حوّلتني إلى فتاة عرجاء. كان العَرَج في جسدي الذي لا يستقيم في شهوته. عُدْتُ وأنا لا أطيق النّظر إلى وجه أحد. لا أريد حتّى النّظر في مرآتي، كأنّ وجها آخر سيُطِلّ عليّ، وجها اختبأت طويلا حتّى لا أراه وأكتشف حقيقته، ولكنّ حقيقتي أصبحت عارية.

لا عَزَاء لي.!

ارتميتُ على فراشي كالقتيلة وتكوّرتُ على نفسي في وضع جنيني، كأنّي أنتظر ولادة جديدة. كانت تلك طريقتي في التّعبير عن كلّ المشاعر المطمورة في أعماقي من ألم وحزن وغضب وانسحاق. لم تكن بي قدرة لأحتجّ كالعادة على أمّي وأغضب وأُصِرّ بأسناني، فيخرج صوتي خافتا ومرتعشا:

- لماذا فعلتما بي هذا؟

لم يعد هناك معنى لأسئلة مُرّة اعتدتها، وفي كلّ مرّة تنخر روحي المهترئة أكثر، ولم تعد أجوبة أمّي البسيطة تقنع عقلي الجامح ولا تستجيب لروحي القلقة. كنت أتكوّر في فراشي وكلّ قطعة في جسدي تئنّ.

الآن، وقد اكتشفت الحقيقة بنفسي، أتلمّظ مرارتها، لم يعد لي حلّ غير أن أستعيد لحظاتي الجميلة مع فارس، وإن كانت مبتورة. تشتعل الشهوة إلى أقصاها وفي اللّحظة الحاسمة تتحوّل إلى رماد.

لعلّه قُدِّر لي أن تكون حياتي ناقصة.!

أتكوّر في فراشي كبلاد منهوبة، لا أطيق صوت أمي، يستحثّني للطّعام ولا أتحمّل، صوت أبي ينادي للصّلاة ولا أستطيع أن أخفي ذلك الشّعور اللّذيذ بالانتقام منهما.

لم أعد شريفة، وليضربا رأسيهما في الجدار.!

انكمشت في فراشي، أستعيد لحظاتي الشهية مع فارس وأتلمّظ حريق شهوتي.

وددت أن أبكي ولم أستطع.!

يجب أن تتعدّد لقاءاتي بفارس، أحببت أن أنتهك هذا الجسد الناقص، فجعلت بيت فارس حديقتي الخلفية وسرّي العميق. لقد أصبح لي عالمي المدهش، رغم أنّي في كلّ مرّة أركض في مروج اللّذة ولا أصل، يشتدّ صهيل جسدي ثم يتحوّل إلى فحيح مرّ. رغم هذا أدمنت حديقتي وأحببت هذا السرّ في حياتي. يلذّ لي أن أعود إلى البيت وأنظر إلى وجهَيْ والدَي، كأنّي أريد أن أكشف لهما أنّ حارس القيم الذي أسكناه داخلي من ورق وأنّ صكّ الشّرف الذي اقتطعاه من جسدي بلا قيمة.

مع فارس أجد نفسي أقفز على تلك الأسوار التي أحاطاني بها و التي تبدو شاهقة وجدتها قصيرة وأُطلق كلّ خيولي. أدخّن معه سجائره، وأحيانا يأتي بمادّة صغيرة ساحرة ندسّها في سيجارة نتبادلها ونغرق في الضّحك.

كانت كلّ خيولي منطلقة مع فارس، لكنّها خيول لا تصل.!

كنت أنتقم من فشلي بالمزيد من الرّكض وأستمتع بنظرات التشفّي إلى والديّ وهما لا يدريان.
يلذّ لي جموح خيولي الرّاكضة ويؤلمني أن يتحوّل صهيلها إلى فحيح مرّ، وتلذّ لي طريقتي في التّعبير عن نقصاني بأن أركض بانطلاق وحرية على فراش اللّذّة وأستمتع بشعور التشفّي من حُرّاس القيم الزّائفة وتحبطني تلك النهايات الفاشلة.!
بدأ نسق حياتي يرتبك، ولم أكن في حاجة إلى أن أعلّل عدم انتظام صلواتي أوحضوري دروس المسجد. كانت أمّي تجد لي التّبريرات لمواجهة تبرّم أبي:
- إنّها الباكالوريا، ستنتهي هذه السنة الدراسية وستعود إلى انتظامها.
كان أبي يتقبّل تبريراتها على مضض. تفرح أمّي وتعُدّ ذلك انتصارا تتقرّب به منّي، فتبتسم لي وأجد ابتسامتها كالعادة بلا ألق فأواجهها باللاّمبالاة.
أذكر أنّي عدت مرّة فوجدتُ أبي قد ألمّ به زكام شديد منعه من الصّلاة في الجامع، قال لي:
- استعدّي بسرعة وتعالي نُصلّ جماعة.
كانت أنفاس فارس تتخلّل شعري وقرصات نشوته وشم في معصمَي وردفَي.
في تلك اللّحظة لا أدري أي شيطان تلبّسني. نظرت إلى عيني أبي وقلت:
- حاضر، دقيقة وأجهز.
توضّأت بسرعة - وأنا على جنابة - ووقفت خلفه، بجانب أمي، وبدأنا الصّلاة.
لقد جعلا حياتي ناقصة، فلتكن صلاتهما ناقصة مرة. لقد جعلا شبابي باطلا، فليكن تعبّدهما باطلا مرّة. الغريب أنّي لم أشعر بتأنيب ضمير ولا آلمتني وخزاته. كانت لسعة المقصّ وهو يلج الفضاء الصّغير بين فخذي أكثر إيلاما.
لقد صار الصّوت الذي يسكنني يعلو على كلّ صوت..
إنّه صوتي هذه المرة.!

في أستوديو فارس كانت السّاردة تسترق السّمع من ثقب الباب بقلب واجف ولا تعرف هل تبتهج لتمرّد نور أم تحزن لِمَا ينتظرها.؟

59

- حبّي.. وينك؟

ينظر إلى صفحة ميسنجر، عينه على العلامة الخضراء المضيئة الملاصقة لاسمها.

ينقر رسالة ثانية لها:

- ألو.. روحي..

يتمتم "ما الذي يشغلها عنّي؟"..

في انتظار أن تصله رسالتها يصعد ببصره إلى خانة العلامات الخضراء الملاصقة لأسماء أصحاب الصفحات المفتوحة الذين يسهرون خلف رغبة مشتعلة ويعود لينظر أسفل الشّاشة، منتظرا أن تطلّ رسالتها ويتمتم "القحبة لم ترد".. هل سبقه إليها "النمر العاشق"أم "الطيب جعبة" أم "دكتور لوف"؟

بدأ صبره ينفد وأعاد نقر رسالة أخرى لها:

- ألو..

وفيما هو يبحث ببصره عن"زهرة الياسمين"أو "امرأة وحيدة" أو "امرأة بلا رجل"، برقت رسالة منها، لمعت عيناه وفتح رسالتها على عجل وقرأ:

- وي، روحي...

ابتسم الشّيطان داخله وردّ بسرعة:

- وينك يا عسل ؟

ردّت عليه بصورة كرتونية لقِطّة ترسل قبلات.

أرسل زخّة من القلوب المتحرّكة وكتب:

- فين كنت؟

- في التواليت.. هههههه

- توحشتك حبّي.. إيجا هنا نستنّى فيك عندي برشة.

- أنت فين كنت غايب؟ عندك مدّة، وين غطست؟

هل يقول لها إنّه في الجبال ضمن "خرجة" مع إخوته في الله للتعبّد والتدريب العسكري حتى تحين ساعة التّمكين وتكون هي وأمثالها أوّل من تُقطع رؤوسهنّ؟ لكن لا يعرف من هي في الواقع حتّى يقطع رأسها. إنّه لا يعرف عنها سوى اسم "امرأة الظلّ" وصورة بروفايل لهيفاء وهبي.

ليقطع رأس هيفاء وهبي إذن.!

- قلتُ لك فين تغطس كلّ مرّة وتغيب برشة.. وين تمشي وآش تعمل؟

لماذا تسأل كثيرا هذه الأفعى؟ ما الذي يعنيها من أمره؟ لمح الضوء يشعّ من النقطة الخضراء الخاصة ب"زهرة الياسمين"، لقد وصلت.

هل يغلق نافذة "امرأة الظلّ"ويذهب إليها؟

كأنّ "امرأة الظلّ"شعرت بتردّده فكتبت:

- كانك مشغول، باي..؟

كتب بسرعة:

- وين ماشية.. إيجا هنا!
(أضاف صورة شفاه متحرّكة ترسم قُبلة)
- قلّي آش لابسة توة؟
- طلّع
-لا، لا، قولي أنت.
- ما نقولش. (وأضافت صورة قرد يضحك)
- باهي، ما تقولش أمّا ابعث لي تصويرة.
- تصويرة لنصفي الفوقاني وإلّا نصفي اللّوطاني؟
قال في نفسه "هذه القحبة يبدو أنّه الليلة يلزمها وقت أكثر من العادة حتى تلين". نظر إلى زوجته إلى جانبه تغطّ في نوم عميق. اطمأن إلى شخيرها الخافت والمسترسل وكتب:
- تصويرة لنصفك اللوطاني حبّي
(أضاف صورة قرد يضحك في حالة قفز متواصل).
- لحظة.
وفي انتظار أن ترسل صورة كان يجب أن يأتي بقارورة ماء ويخفّف من ثيابه التي يرتديها، ثم يتمدّد في فراشه، ستكون ليلة مجنونة.
في طريقه إلى المطبخ لمح بصيص ضوء يتسرّب من غرفة نور، همس لنفسه:
ما الذي يجعلها تسهر إلى الآن؟
نقر الباب نقرات خفيفة حتّى لا يوقظها إن كانت نائمة ثمّ أدار مقبض الباب بهدوء ليجدها في فراشها وبين يديها كتاب، وبسرعة كان يجب أن يقوم بدور الأب:
- لمحتُ ضوء غرفتك، ألم تنامي بعد؟
ردّت بصوت بدا متماسكا:
- بي من الأرق ما صرف النّوم عنّي، لذلك انشغلت بقراءة ما تيسّر من القرآن الكريم.
زمّ شفتيه: مممممم
أضاف بابتسامة رضى:
- ليلتك زينة.
وأغلق الباب خلفه بشدّة.
شعر بأنّ لطم الباب ارتدّ صداه الحادّ في قلبه، وكأنّه يقفله عليها إلى الأبد.

أتى بقارورة الماء وتمدّد في سريره. وضع الحاسوب على صدره وفتح رسالتها، كانت صورة لنصفها السفلي ترتدي كلسونا أحمر.
- محلى زينك روحي، نحّي كلسونك نحب نشوفك ع الطبيعة.
ردّت عليه بصورة قطة ترسل قبلا. تبدو الليلة مناسبة ليستمتع على طريقته. تعجبه التكنولوجيا وهي تروّح عن النفوس المتأزّمة.

أمسك الحاسوب بيده اليسرى ومدّ يده يتحسّس شيئه ويستمتع بشهوة تستفيق في كفّه. ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وهو يتلقّى صورة لنصفها السّفلي عاريا
نقر "واااااااااااو".
تنهّد وأضاف "إنت أحلى حبّ يا روحي".

تسللت الساردة بخفّة، وغادرت الغرفة بهدوء لتترك سيف يستمتع بشهوته الجامحة!

60

أخيرا، أصبحت لي أسرار أتحسّسها بمتعة وألم، وربّما هذا ما يجعلني أضحك فيداهمني بكاء وأبكي فتتسلّل إليّ ابتسامة.
اعتدت كلّ ليلة أن أجلس إلى طاولتي أنشغل بدروسي وأنتظر اللحظة المناسبة. عندما يعمّ السّكون ويتحوّل البيت إلى مقبرة صامتة، أستلّ من محفظتي المدرسية مجلّة سرّية، ثمّ أتسلّل بهدوء وأندسّ في فراشي. أقرّب إليّ قليلا الفانوس الصّغير وأفتح المجلّة تحت الغطاء. تستمتع عيناي بتلك الصّور ويدي في ذلك المكان، أقتفي أثر الشّهوة وأبحث عن اللذّة.
لا أدري من أين كان فارس يأتي بتلك المجلّات الخليعة التي تفتح صورها على الجسد العاري والجريء والسّعيد. كنت أدسّ تلك المجلّات بين كتبي ولا أسمح بأن يُقترب من محفظتي. أعود بها إلى البيت وأبحث فيها عن سعادتي، علّي أنسى لسعة المقصّ الحارقة.

في تلك الليلة، فَتحتُ المجلّة وصارت عيناي تَعُبّان من تلك الصور بلهفة شديدة تقودني إلى شهوة عمياء، أستدرج المتعة، ربما تحدث مفاجأة ويباغتني صهيل الجسد. فجأة أضاء النّور رِواق البيت وشعّ الضّوء في غرفتي من تحت الباب، ثم سمعت نقرات عليه فارتبكتُ وتلعثمت يداي. دسست المجلّة بين فخذي، وبسرعة استنجدت بالقرآن الذي كان مُلْقى على الطّاولة الصّغيرة حذو سريري. أطلّ أبي برأسه قائلا:

- لمحتُ ضوء غرفتك، لم تنامي بعد؟

كانت إجابتي جاهزة، فقلت بصوت حاولت أن أجعله متماسكا:

- بي من الأرق ما صرف النّوم عنّي، لذلك انشغلت بقراءة ما تيسّر من القرآن الكريم!

زمّ شفتيه: مممممم
أضاف بابتسامة رضى:

- ليلتك زينة.

وأغلق الباب خلفه بشدّة. شعرت بأنّ لطم الباب ارتدّ صداه الحادّ في قلبي وصُعقت.!

ماذا فَعلتُ اللحظة؟ هل حقّا كنت أضع القرآن الكريم بجواري للتقية.؟

كأنّ أخرى سواي تفعل هذا، وكأنّي كنت أحتاج وجه أبي الصارم أن يطلّ علي فجأة لأحملق حولي. صحيح أنّي أتشفى بخداع والدَي، ولكنّني لا أقصد أن أتجاسر على ربّي.
هل حقّا كنت أضع القرآن الكريم عن قصد قرب طاولتي وأنا أستمتع بصور الأجساد العارية في وضعيات فجّة وفي منتهى الإباحية والشّذوذ؟

هل ستعاقبني يا ربّي؟
قفزتُ بسرعة خارج الفِراش، كأنّي أريد أن أبتعد عن مكان الجريمة، أريد أن أبتعد عن المجلّة الإباحية التي تركتها تحت الغطاء وأن أبتعد عن القرآن الكريم ملقى على الطّاولة الصّغيرة.

هل تراه ذنبي أنّك خلقتني أنثى ووهبتني أبا يرى الشرف نابتا بين فخذي؟

أرغب في أن أنتقم منهما وأحبّ أن أحتمي بك يا ربّي. ما ذنبي أن أكون في بيت تنتشر فيه رائحة النّدّ وتتكدّس فيه كتب صفراء لابن باز وابن عثيمين وابن عبد الوهاب وتصدّق فيه خرافات وجدي غنيم؟
كانت الدموع تنزل حارّة على خدّي.
أنت يا إلهي، مثلي، ضحية تخلّفهم وجهلهم. عليك أن تقتصّ ممّن يتاجرون باسمك ويسلبون الأرواح باسمك ويسرقون حياة النّاس باسمك.
انفجرت أبكي بحرقة وبمرارة.
بعد أن بكيتُ كثيرا حتّى استوفيت كلّ دموعي شعرت بأنّي أفضل.(تمسح أثر السّيول على خدها). قرّرتُ، ضمن جدول مطالعاتي المستقبلية، أن أقرأ أكثر عن تجّار الدّين الذين يستغلّون ربّي ويحوّلونه إلى ضحية مثلي، ثم اندسستُ في فراشي ثانية ومددت يدي أتلمّس المجلّة التي تكرمشت أسفل طيات الغطاء وفتحتها من جديد.!

61

على الشاطئ تَركتْ كفّ فارس وابتعدت عنه. نزعت حذاءها وألقت الفردتين على الرّمال بإهمال. تقدّمت وحدها بخطى هادئة. كانت الأمواج تأتي مسرعة وتذوب تحت قدميها، مخلّفة زبدا في شكل رغوات تتدافع ثم تتلاشى سريعا.

كانت تستلذّ الرّمال الباردة وهي ترتخي تحت قدميها. توقّفت قليلا تعبّ من الهواء العليل، يدخل صدرها كأنّه يتسرّب إلى كامل جسدها وهمست لنفسها "ما أرحب البحر".!

تقدّمت خطوات أخرى في اتّجاه الأمواج المتلاطمة وتناهى إلى سمعها صوت فارس يناديها. تجاهلته وهي لا تحوّل بصرها عن البحر الممتدّ أمامها

"ما أجمل البحر".!

استمرّت في تقدّمها حتّى أصبحت الأمواج تصطدم بركبتيها.

عاد فارس يناديها وراقها ألا تعيره اهتماما

"كم أحبّ البحر".!

بحركة رشيقة، امتدّت يدها نحو حجابها وسلّت الإبرة الصّغيرة التي تشدّه ثم سحبته من رأسها. ولأوّل مرّة رفعت يدها تتحسّس شعرها عاريا تحت أشعّة الشمس. ثم سلّت الحلقة المطاطية التي كانت تشدّه في هيأة ذيل حصان، فانسدل شعرها بحُرية على كتفيها وأخذت النّسائم تتلاعب ببعض خصلاته.

"واااااااااااااو! كم يبدو هذا منعشا ولذيذا".!

لأول مرّة تلامس أشعّة الشّمس شعرها في مكان عامّ، ولأوّل مرّة تشعر بالنّسائم تعبث به وتتخلّله. ابتسمت لرذاذ الموج المتناثر على وجهها وتقدّمت خطوة أخرى في البحر. ثمّ، بحركة مباغتة لم تفكّر فيها، وهي واقفة غطست رأسها في البحر، تشعر الآن بخصلاتها تتماوج في الماء، ثم ردّته بحركة رشيقة إلى الخلف، فارتدّ شعرها إلى الوراء دفعة واحدة وتناثرت قطرات الماء في نصف دائرة. كانت حركة ممتعة، وبدت اللّقطة مثيرة من بعيد. ابتسمت نور لهذه الحركة المنعشة وتحوّلت ابتسامتها إلى ضحكة متقطّعة، ثم إلى قهقهة عالية. وعادت تغطس رأسها في البحر وتستبقي، هذه المرّة، خصلات شعرها تتماوج في الماء طويلا، ثمّ تردّ رأسها إلى الخلف ليعود الماء إلى التّناثر من شعرها. راقها أن تجد نفسها جزءا من البحر، أن تلمسه، أن تُغرفه في كفيها ثم تنثره أمامها. أحبّت الأمواج تأتي مسرعة حرّة، جريئة وتصطدم بها فيتناثر الرّذاذ عاليا وتقهقه.

شعرت بأنّها تحبّ البحر أكثر ممّا تتصوّر، تحبّ الأفق أمامها رحبا فسيحا وتشعر بأنّها لو مدّت أصابعها للمسته. تحبّ السّماء وصفاءها وتشعر بأنّها يمكن أن تحضنها.

وحدها على الشّاطئ في لحظة منفلتة لم تخطّط لها؛ لعلّ أجمل اللّحظات هي تلك التي تأتي على غير موعد.!
شعرت بالنّوارس تحلّق حولها، كأنّها تساندها وتشجّعها على الحياة.!
ما زالت الأمواج تصطدم بها والرّذاذ يتطاير. رغبت في أن تتقدّم أكثر وترتمي بين الأمواج. ماذا لو تحوّلت إلى سمكة حرّة تسبح دون رقيب ودون ماض يكدّر صفوها؟! غرفت الماء بكلتا يديها وتركته يسيل بين أصابعها حتّى وصل مرفقيها فبلّل ثيابها.
ضحكت من نفسها وعاد صوت فارس يناديها ويصلها متقطّعا بفعل هبوب النّسيم وأمتعها أن تتجاهله. هذه لحظتها هي وراقها أنه لا يمكن أن يشدّها شيء عمّا تريد.
فتحت ذراعيها فبدا جسدها لمن يراها من بعيد في هيأة صليب، لكنّ كل الأصنام كانت قد تهاوت عندها.
أمتعها أن تكون وجها لوجه مع البحر. ماذا يمكن أن تقول له، وكلّ اللّغات لا تستوعب هذا الاتّساع الكبير وهذه السماء الفسيحة وهذا الأفق الرحب؟
كيف خلق الله كلّ هذا الاتّساع ورضي لها بأن تُحبس في غرفة صغيرة بنافذة لا تُفتح؟
قهقهت وهي تصل إلى هذا السّؤال.
"كم تبدو الحياة عبثية، لكنّها لذيذة".!

فجأة، لم تدرِ ما الذي حدث؛ كأنّ يد قوية دفعتها من الخلف فوجدت نفسها ترتطم بسطح البحر وتغوص في الماء، وبسرعة غمرتها الأمواج. لا تدري ما الذي حدث، كانت المياه تحيط بها من كلّ الجوانب وتشدّها إلى الأسفل.للحظة، شعرت بأنّها ملتحمة بالبحر الفسيح. رفعت نفسها قليلا تستردّ أنفاسها. راقها أنّها لم تعبأ بنظرات بعضهم التي كانت تتابعها بفضول ولم يكن يعنيها شيء، غير أنّها في حضن البحر يضمّها إليه وتعانقه. كم كان سهلا أن تفعل ما تريد، وهمست لنفسها "من الرائع أنّ هذا ليس حلما"وعادت تلقي نفسها بين الأمواج.!

استمتعت بوقتها بين الأمواج وعادت مبتسمة إلى حيث ينتظرها فارس، الذي بدا متعجّبا ممّا فعلت نور. كان يجب أن تبقى قليلا تحت أشعّة الشّمس حتّى تجفّ، فانحصر جلبابها الواسع المبتلّ على جسدها لتبرز تضاريسه مغرية. بدت لفارس أشبه بوردة يتقاطر ماؤها وتمنّى أن يضمّها إليه.

خطر ببال السّاردة حذف هذا الفصل غير أنّها لم تفعل.!

62

- هل أقول لها الآن؟

اقْتَرَبْتُ منها، يدي ممدودة بقهوة بنّ تفوح رائحتها الزكية المنعشة. كانت منكبّة على دروسها. ارتعشت يدي وأنا أقترب منها.

لا أحبّ أن أقول لها الآن خشية أن أزعجها ولا أستطيع أن أرجئ طلب أبيها.

اقتربتُ منها أكثر.

- إلى متى وأنا حمّالة أوامر؟

لا أستطيع أن أعصي زوجي، فالرسول يقول "لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لغير الله تعالى لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها". صحيح أنّ زوجي تقي يخشى الله، لكنّ ابنتي مَلَاك يستحقّ الحياة.!

وضعتُ القهوة على الطّاولة وقرّرتُ أن أستجمع شجاعتي دفعة واحدة واجتهدت كي يصلها صوتي هادئا، قلت لها:

- عزيزتي، لدي خبر لكِ يُسعد كلّ فتاة.

رَفَعَتْ بصرها عن كتابها وقالت لي:

- ما هو هذا الخبر؟

- تعرفين أنّ أباك يحبّك كثيرا ولا يريد لكِ سوى الخير.

وأضَفْتُ، بسرعة كأنّي أفجّر قنبلة:

- لقد أتى لك بعريس، إنّه شابّ في منتهى التّقوى والورع، أبو نضال.

جَحَظَتْ عيناها وحَمْلَقَت فيّ بغرابة وصرخت:

- ماذا؟ أتى لي بزوج؟

قلتُ، أهدّئُ من روعها:

- لا عليك يا عزيزتي، إن لم ترغبي فلا بأس، لن يُرْغِمك أحد.

ثم استدركتُ:

- ولكنّ أباك رضي به يا عزيزتي.

وحتّى أقضي على كلّ فكرة مقاومة أضفتُ:

- قال الله تعالى "وأن أُشكر لي ولوالديك".

رمت القلم من يدها وأسقطت رأسها على كتابها وخرج صوتها مختنقا:

- ماذا ستفعلان بي أيضا؟ ألا يرضيكما أنّكما سرقتما منّي طفولتي وصباي! والآن تريدان سرقة ما تبقّى من عمري؟

انخرَطَتْ في بكاء مرّ، ثمّ رَفعت رأسها وقالت، بصوت متقطّع:

- أنا أدرس ولا أفكّر في الزّواج أبدا.

- يقول أبوك إنّه لا فائدة كبرى تُرْجَى من الدّراسة حتى إن أكملتِ دراستك و تحصلتِ على شهادة الباكالوريا لن تدخلك هذه الشهادة الجنة والعزيز يقول في قرآنه الكريم "وقَرْنَ في بيوتكنّ".

صرختْ في وجهي متسائلة:

- إذن لماذا كنت أدرس؟ لماذا تركتماني أتعلّق بالدّراسة وأجعلها عالمي الأجمل؟
- لا يهمّ يا ابنتي، يقول أبوك إنّ العلم الحقيقي هو العلم بالدّين والتّقوى، ثمّ إنّ عقوق الوالدين من الكبائر.
صرخت:
- أفهم أنكما تمنعاني من مواصلة دراستي ؟
- لا جدوى من الباكالوريا ليست هي التي ستضمن لك الجنة بل برّ الوالدين.
صَرخَت بشدة كأن نار لسعتها:
- لن يحدث هذا، لن أسمح لكما العبث بحياتي مرة أخرى

صمتتْ برهة وأنفاسها تعلو و تنخفض من شدة الغيض، كأنها تفكر في خلاص ممكن ثم سألتْ دون أن ترفع رأسها:
- ومن هو هذا الزوج؟ ماذا قلتِ اسمه؟
قلتُ، وقد بدأتُ أطمئنّ:
- إنه شهاب، صديقه في الجامع ويحضر معه الدّروس دائما ويحسن تجويد القرآن.
وأضفتُ، كأنّي أقدّم ميزة أخرى:
- وقد ذهب إلى الجهاد في سورية ضدّ الطاغية بشّار الأسد، ويقولون أنه أبلى بلاء حسنا.
ثمّ ابتسمتُ وأنا أضيف:
- منذ ذاك وهو يكنّى بأبي نضال، والآن يمضي أغلب وقته في جبال الشعانبي في القصرين، مثل الأسد، يدرّب شباب الإسلام على الانتصار لراية التّوحيد.
قاطعتني:
- وأبي يريد أن يقدّمني هدية له لأنّه ذهب إلى سورية وقتل الأبرياء باسم الله ؟ ولأنّه الآن يدرّب الشّباب على نشر الموت في تونس؟
شعرتُ بخيبة، مازال عقلها يعاند. مازالت لم تستكن بعد. يبدو أنّه مثلما قال أبوها: هذا التّعليم العَلماني الكافر يعلّم الشباب الابتعاد عن الدّين. استجمعت أفكاري وأجبت، بنبرة حاولت أن تكون قاطعة:
- عيب يا ابنتي، أنتِ عندنا في مقام الجوهرة وأبوك يريد أن يأتمن عليك رجلا صالحا، ثمّ إن الذّهاب إلى سورية كان لنصرة الله وجهاده في الشعانبي من أجل رفع راية التوحيد في بلادنا ومواجهة الطّاغوت، تعرفين أنّ الإسلام الآن في خطر.
قالتْ، بعناد شديد وهي تضرب الطّاولة بيديها بقوّة حتّى اندلقت القهوة على الأرض وتناثرت بعض الكرّاسات:
- أنا لن أتزوّج يا أمّي! ثقي بأنّي لن أتزوّج ولن يستطيع أي منكما أن يرغمني على فعل شيء، لن أترك لكما حياتي تعبثان بها كما يحلو لكما.

انْخَرَطَتْ في صراخ حادّ امتزج بنشيج مرّ. كان يجب أن أغادر غرفتها. أدركتُ في تلك اللّحظة أنْ لا جدوى من أي حوار معها وقتها، لكنّي - وأنا أُهِمُّ بالمغادرة- شعرتُ بأنّي أرغب في احتضانها وضمّها إلى قلبي.
لا أدري لماذا ولكنّني رغبتُ فعلا في أن أبكي على صدرها. لم أستطع أن أحميها وهي صغيرة حين صرخت بقوّة من لسعة المقصّ الحارقة جدّا، كنت أنظر إليها عاجزة ولم أستطع أن أمنع عنها أذى أخينا في الله الذي جعل لها بمقصه عطب في روحها.
أردت في تلك اللّحظة أن أبكي وأطلب منها أن تغفر لي ضعفي وقلّة حيلتي، لكنْ وجدتني أقول لها:

- اخفضي صراخكِ، إنّ صوتك عورة وقد يتناهى إلى الجيران.

ثمّ أضفتُ، بحزم كأنّ شخصا آخر يتكلّم على لساني:

- لا أحبّ أن يسمع أبوك كلّ هذا الهُراء، غدا سيأتي شهاب بعد صلاة العصر ليتمّ التّعارف والقَبُول، ثم سيتّفق مع أبيك على موعد الزّواج.

أَغْلَقْتُ الباب خلفي ويدي لا تزال على مقبض الباب، كأنّ صوت سيف هو الذي يخرج من أعماقي وكنت أحب أن أقنع نفسي بما أقوله:

- ستهدأ وستفهم أنّ الزواج قَدَر الفتاة وأنّ الزّوج هو الذي يصون المرأة ويحفظها لا الشهائد الدراسية، ستهدأ بعد حين.

بعد برهة من الزمن، عنّ لي أن أفتح باب غرفتها. كانت ملقاة على فراشها بجسد مرمري. ارتبكتُ وتلعثمَتْ أنفاسي. كانت تبدو لي جسدا جميلا يستحقّ الحياة وصبية مشرقة تستحقّ الفرح. هل ترانا سنظلمها ثانية وسنسرق منها عمرها الآتي؟
في تلك اللّحظة رفعتْ نور رأسها نحوي فتقاطعت نظراتنا. لم أتحمّل نظراتها الموجعة تخترقني. بسرعة، صفقتُ الباب خلفي ولذتُ بغرفتي.
شعرت بأنّ قلبي مثل طفل يتيم وتائه وانخرطت في نشيج موجع.

63

لن تَخشاه بعد اللحظة..
اقْتَرَبَتْ منه بهدوء مريب. شعر بخطواتها فرفع بصره إليها وقال:
- أريد ماء.
أضاف، وهو واقف يقلّب صفحات صفراء من كتاب بين يديه.
- ولا أريدك أن تذهبي إلى أمّك هذا المساء.
واصل الحديث بصوت بارد دون أن ينظر إليها:
- قولي لنور لا أريدها أن ترتدي الألوان الزاهية لخُمْرها، ذلك يجلب إليها الأنظار.
رَدَّتْ على أوامره وهي تقول:
- لماذا أعيش حياتي على ما تريد وما لا تريد؟ ما الذي يرغمني على تحمّل أوامرك التي تجلدني بها كلّ يوم.؟
رفع بصره إليها مصعوقا، فقالت بحدّة:
- لماذا تجعل نفسك مركزَ الكون وتبدّد حياتي وحياة ابنتي بكلّ هذا التسلّط؟
بقي بصره معلّقا بها وهو يحبس أنفاسه غيرَ مصدّق ما يسمع.
- لن نسمح لك، بعد اليوم، بأن تتدخّل فينا بهذه الطريقة السّافرة وتتعامل معنا كأننا قاصرتان لا نفهم الحياة ولا يحقّ لنا أن نعيشها إلّا كما تريد أنت.
لكزته برجلها بعنف أشدّ، فانتفض مصعوقا وهو يصرخ:
- جُنَّتْ هذه المرأة وحقّ الدّين!
كان يجب أن تكون قوية هذه المرّة، أن تنفض عنها عجزها وتتخلّص من ضعفها. تقدّمت نحوه أكثر ودفعته بقوّة حتّى تراجع إلى الخلف في خطى متعثّرة وهي تصرخ به:
- بل استعدتُ وعيي هذه المرّة ولن أتركك تفسد حياتي وحياة ابنتي، هل تفهمني أيها الجاهل؟
تلمّس الجدار الذي ارتطم به واستعاد أنفاسه. الثّابت أنّه لا يحلم وأنّ ليلى تتحدّاه وتتمرّد عليه.
يبدو أنّها قد جُنّت فعلا أو مسّها عفريت.!
تمالك نفسه بسرعة، مدّ يده وشدّها من رقبتها وهوى بكفّه الأخرى على صدغها بكلّ قوّة والكلمات تتناثر مع بصاق فمه:
- اخرسي يا بنت الكلب، سألقّنك درسا لن تنسيه مدى الحياة، هل تتطاولين عليّ أيتها الجيفة؟
لم تسقط كما توقّع، بل وجدت نفسها في وضعية مناسبة جدّا لتسدّد له ركلة قوية بركبتها بين فخذيه، فتراخت قبضته وتراجع إلى الوراء وهو يصرخ من شدّة الألم. كان هذا كافيا لأن تجد نفسها على مسافة قريبة جدا منه، فاستجمعت قوتها وانقضّت عليه وهي في حالة هياج والشّتائم تتطاير:

- بل أنت الكلب، أنت من سرقت حياتي وتسرق حياة ابنتي، أيها الوغد.!

لـــم يســـتطع أن يرفـــع جســـده تحـــت لطماتهـــا المجنونـــة وركلاتهـــا العميـــاء وشـــتائمها المقذعـــة. كـــان مصـــدوما ممّـــا يـــرى ولا يســـتطيع أن يصـــدّق عينيـــه. قـــال، مرتبكـــا وهو يتكوّر من شدّة المفاجأة والألم ويتحسّس أثر دم يسيل من شفّته السّفلى:

- لقـــد جننـــتِ فعـــلا وأعـــرف كيـــف ســـأربّيك أيتهـــا الحمقـــاء، ســـتندمين علـــى مـــا فعلتِ الآن، سأقتلك أيتها المرتدّة!

اســـتعادت أنفاســـها لثـــوانٍ أثنـــاء وعيـــده لهـــا ولـــم تجبـــه، بـــل عـــادت إلـــى ركلـــه ولطمـــه، وخرج صوتها من بين أسنانها وهي تصرخ:

- أيهـــا الوغـــد.. إنّـــك تقتلنـــا كـــلّ يـــوم، أيهـــا الكلـــب، أنـــت لا تســـتحقّ الحيـــاة لأنّـــك لا تعرفها.

لا تـــدري مـــن أيـــن أتتهـــا هـــذه القـــوّة وهـــذه الشـــجاعة. كانـــت لبـــؤة شرســـة، كلّمـــا ازدادت ركلاتهـــا وعنفهـــا تضـــاعفت قوّتهـــا وجرأتهـــا. كـــان مصـــعوقا مـــن جبروتهـــا وكانـــت مصـــدومة مـــن هشاشـــته ولا تصـــدّق أنـــه يتكـــوّر تحـــت ضـــرباتها العنيفـــة. ذهنهـــا مشلول، لكنّها تدرك أنّ المعادلة قد انقلبت.

الآن هـــي ســـيدة اللّحظـــة، تفـــرض عليـــه منطقهـــا الجديـــد. اقتـــرب فـــي تكـــوّره مـــن المكتبـــة التـــي تعـــجّ بالكتـــب الصـــفراء. حانـــت منهـــا التفاتـــة فـــرأت مزهريـــة جميلـــة كانـــت قـــد أهـــدتها لهـــا أختهـــا ثريـــا ولـــم تضـــع فيهـــا ورودا قـــطّ. رفعتهـــا، دون تـــردّد، وهـــوت بهـــا علـــى رأســـه، فتنـــاثرت قطـــعٌ منهـــا فـــي أرجـــاء الغرفـــة وانبثـــق الـــدم مـــن رأســـه. كـــان يكفـــي أن تـــرى الـــدّم الأحمـــر حتّـــى يـــزداد هيجانهـــا، كأنّهـــا ثـــور تحـــرّر مـــن كلّ قيد.

زاد جنونهـــا وهـــي تتـــذكّر كـــلّ ســـنوات القهـــر التـــي قضـــتها معـــه، فبـــدأت تبحـــث حولهـــا عـــن شـــيءٍ آخـــر تضـــربه بـــه ولـــم تجـــد غيـــر الكتـــب الصـــفراء قريبـــة منهـــا. ولا تـــدري مـــن أيـــن أتتهـــا القـــوّة لتخلخـــل أحـــد الرّفـــوف لـــم يكـــن ثابتـــا كمـــا يجـــب. وســـرعان مـــا أصـــبح الـــرفّ فـــي يـــدها وتســـاقطت الكتـــب الصـــفراء علـــى ســـيف. يبـــدو أنّ هشاشـــة الـــرّف راقهـــا فعـــادت إلـــى خلخلـــة بقيـــة الرّفـــوف مـــن مكانهـــا حتّـــى أســـقطت كـــلّ الكتـــب عليه وأحدث ذلك ارتطاما عنيفا.

استفاقت من النّوم مذعورة.!

كانـــت فـــي فراشـــها تنـــزّ عرقـــا وأثـــر الهلـــع بـــادٍ علـــى ملامحهـــا وهـــي تســـتغفر وتســـتعيذ مـــن الشّـــيطان الـــرّجيم. أفزعهـــا الكـــابوس وبـــدأت تتحسّـــس نفســـها، رفعـــت بصـــرها إلى المكتبة ولمّا رأت الكتب في رفوفها ساكنة عاودها اطمئنانها.

فكّـــرت السّـــاردة أن تعيـــد كتابـــة هـــذا الفصـــل، ربمـــا أرادت أن تخرجـــه مـــن دائـــرة الحلـــم وتحوّلـــه إلى حقيقة، ثمّ عدلت عن ذلك!

64

مُكَوّمَة في فراشي جثّة مهملة.!
مثل بلاد منهوبة..
مثل شجرة مخرّبة..
مثل طائر منتوف الجناح..
عشتُ طفولتي ناقصة وصباي ناقص وحياتي بلا فرح، رغم ذلك حاولت أن أنفض عنّي حزني وأُتمّ نقصاني. لم يشفع لي تفوّقي في دروس الفلسفة والإنجليزية والتاريخ ولا حرّرتني أيامي السّاخنة مع فارس. كان حلمي في الحياة صغيرا: فقط أن أحلّق، أن أمدّ جناحي وألقي نفسي في فضاء فسيح، أن أعوّض عالمي الصّغير بعوالم حقيقية شاسعة.
أشعر بضيق في التنفّس. كنت أحتاج إلى نافذة أطّل منها على الخارج، لكنّي فشلت. أتلمّظ ريقي مُرّاً في حلقي. يعذّبني أن أفشل في أول اختبار أحتاج إلى أن أقول فيه "لا"، ولكنّني أعجز عن تلفّظها. يبدو أنّ انتصاراتي في دراستي وسعادتي المشوّهة في أستوديو فارس كانت كلّها وهمية.!

جاء شهاب، أو أبو نضال كما يحبّ أبي أن يسمّيه، مع أمّه وأختين له. بقينا كلّنا في غرفة الجلوس. لمحته بنظرة خاطفة ولم أستطع أن أتفرّس جيدا في ملامحه. بدا لي طويلا ونحيفا ومتقدّما في السنّ، بلحية كثّة مقزّزة وعينين لم ألمحهما جيدا، لكنّني أحسست نظراته سياطا تلهبني. كانت عيون أمّه وأختيه تخترقني. تتحدّث أمّه وتضع يدها على فخذي من حين إلى آخر، تريد أن تجعل لمستها عفوية حتّى تبدّد ثقل اللّحظة. كانت امرأة بدينة. شعرت بالعرق ينزّ من كلّ مسامّها فتقزّزت. ابنتاها تتصنّعان الابتسامة والطرافة، فقد جئن يقلّبن السلعة التي سيهديهم إياها أبي.
قدّمت لهم أمّي المشروبات فأكرموا أكوابهم ولم يُبقوا فيها شيئا وغادروا البيت على أمل لقاء قريب. تركوا على جسدي نظراتهم الحارقة التي أحبّ أن أنساها. تركوا أحاديثهم الباردة بلا معنى. تركوا ضحكاتهم بلا بريق. وعدتُ إلى غرفتي، أجرّ حزني العميق!

- هل حقّا أتخلى عن دراستي بكل ما فيها من روايات جميلة أدمنتها و لغات أحببتها و تجارب خبرتها مع فارس وأحلام سطّرتها لنفسي ؟ هل حقا فشلت في أن أدافع عن نفسي؟

لمتُ أمي طويلا على سلبيتها المقيتة وعلى عجزها الفادح، لكن هل تخلّصْتُ من سلبيتها؟ هل العجز يورّث أيضا؟
أشعر بأنّي أتدحرج أمام أسئلتي وأغصّ بالدمع، أكبح نفسي حتّى لا أبكي. .!

يجب أن أنفض عنّي هذه القيود التي تكبّلني ولا أراها. يجب أن أقطع هذه السّلاسل التي تمنع عني التفكير. يجب أن أكسّر هذا القفص الذي أسكنه. أشعر بالإرهاق ويجثم عليّ الإحباط وأستسلم للصّمت الجاثم في البيت حتّى أتخلص قليلا من الضّجيج الذي يشتدّ في رأسي.
أحاول أن أغفو فلا أستطيع.
عليّ أن أجد حلّا.!

كم أحببت أن تكون لي كوّة أنظر منها إلى العالم، لكنّ نافذتي مغلقة لا تفتح. كأنّ النوافذ في بيتنا جُعلت للزّينة، وإن خلا البيت من كلّ مظاهر الزينة.
كنت أحبّ أن أفتح نافذتي ليدخل الضوء والهواء وزقزقة الطّيور، ولم يكن أبي يسمح بذلك. أمّي تكتفي، في مرّات متباعدة، بإزاحة السّتائر وفتح الدرفتين البلّوريتين، تاركة لضوء الشمس منفذا يتسرّب منه عبر شقوق النوافذ الخشبية. وأنا صغيرة، كنت أحبّ أن أداعب خيوط الضّوء التي تمتدّ في كُتَلٍ متموّجة، فلا أمسك بيدي غير الهواء وأضحك. وكنت أحبّ أن أقفز على خيوط الضّوء تلك وأطير.

عُدت إلى وحدتي، حزينة، بائسة. لقد سُلبت منّي أصغر أحلامي ولم أطلب كثيرا، فقط تمنّيت وأنا طفلة أن أتحوّل فأكون قطّة تنتقل بيسر وحرية من مكان إلى آخر.مرّة، تمنّيت أن أصير فراشة جميلة تحطّ على الأزهار وتنتقل بين الحقول بحُرية. تمنّيت كثيرا أن أكون طائرا، هل كثير على ربّي أن يحوّلني إلى طائر صغير يمدّ جناحيه في الهواء ويحلّق في الفضاء الفسيح بحرية؟

أحبّ أن أسحب الغطاء المتكوّم أسفل قدمي ولا أستطيع، كأنّ مسامير دقّت في كلّ جسدي، كأنّ جراحا في روحي تنزّ دما وقيحا.
الآن يتناهى إليّ من غرفة الجلوس ترتيل خافت للقرآن الكريم من آلة التسجيل، وكأنّه ينعى حياتي الصّغيرة التي انتهت قبل أن تبدأ، حياتي الناقصة والضيقة والقاحلة والحزينة، والتي لم تكن يوما ملكي. أخذتني شبه إغفاءة ووجدتني أدخل قصّة "ليلى والذئب".. عندما كنت صغيرة، ككلّ الأطفال، أحبّ الحكايات.

(أمشي في غابة كبيرة موحشة وبي أمل أن أنتهي إلى بيت صغير، لكنّ الذئب تقدّم نحوي وأوشك أن يغرس أنيابه في جسدي. فجأة، تنقذني يد وتحوّلني إلى طائر وتلقيني في الفضاء)
يتكرّر هذا الحلم كثيرا..
هذه المرّة امتدّت يد أمّي لا لتنقذني من ذئب يتربّص بي بل لتوقظني..
قالت أمّي:
- هيا إلى العشاء يا نور.

قلت، وأنا أعيد رأسي إلى المخدّة وأغمض عينَي حتى لا يصطدم بصري بجدار غرفتي الأبيض مثل كفن:
- لا أريد عَشاء!
تناهى إليّ صوتها ضاحكا:
- لا يا ابنتي، إني أقصد أن تقومي إلى صلاة العِشاء.

لا أدري لماذا أقسّم الضّحكات إلى نوعين: ضحك يحمل بريق الحياة وضحك يصطنع الحياة فيأتي باردا لزجا بلا نكهة.. ودائما ضحكات أمّي تنقصها الحياة. أخبرتني بأنّه يزعجها أن أشير إلى ذلك فتوقفْتُ عن إبداء ملحوظاتي، أمّا أبي فلم يكن له ضحك إلّا لِمَاما، وكانت ضحكاته مقتضَبة، أشبه بهمهمة تنفلت منه. وهكذا كنت أخمّن أنّ ضحكته بلا حياة لأنّها تَرِدُ خافتة فيكبح جماحها وخجولة كأنّه يخاف انطلاقها أو يستحي منها.. كأنّ الضحك محرّم!
ظللتُ ساكنة، كلّ ما فيّ ساكن؛ كأنّ الحياة قد غادرتني لولا تلك النّبضات التي تدكّ صدري بترتيب وتصل إلى مسامعي كأنهّا آتية من المخدّة التي أتوسّدها وليس من قلبي. يبدو أنّ القلب يتوقّف عن الحياة إذا توقّف عن الأمل!
يقترب منّي صوت أمّي وأشعر بيدها ترجّني من قدمي وتدفعني إلى اليقظة. يصلني صوتها وكأنّها ظفرت بمكسب:
- هل تعرفين، همست إليّ أم شهاب، وهي تغادر أنّ الفرحة الكبيرة قريبة جدّا بإذن الله، وهذا يعني أنّك قد أعجبتهم.
لم أردّ عليها، وجدت ذهني يتّجه إلى مقارنة فارس بشهاب، فابتسَمْتُ بمرارة.
لا يستحقّ الأمر مقارنة طالما أنّي لست في وضع اختيار بينهما وليس لي من شهاب هذا غير تلك النّظرة التي لمحتها وهو يُلقي بصره عليّ عندما همّ بالمغادرة. بدت لي نظرته باردة وذابلة، أمّا نظرات فارس مليئة بالحبّ والدّفء والحرارة.
يداه ترتعشان وهو يتلمّس شهوتي وهمسه يدغدغ أذني عندما يقول "أحبّك".
يسحبني صوت أمّي من خيالي:
- هيا، لم يعد وقت على الصّلاة يا نور.
لم أردّ عليها ولم أستطع النّهوض.

هل حقّا سأترك حياتي تُسرق مني ثانية؟

لم يكن بمقدوري، وأنا طفلة، أن أفعل شيئا لمقصّ الغريب وهو يخترق الفضاء الصّغير بين فخذيّ، لم أكن أستطع التملّص من قبضة والدي الصّارمة وهي تشدّني بقوّة، فعشتُ طفولة مبتورة وصبا ناقصا، ولكنْ هل سأسمح بأن يُسرق منّي الآتي؟ هل سأكتفي بالتفرّج على الحياة تُسحب منّي تدريجيا؟!

تحين منّي نظرة إلى غلاف كرّاسة كنت قد كتبتُ عليها بخط غليظ "لا مستحيل تحت الشمس - نابليون -"، لكن هل عاش نابليون بونابرت تجربتي في الحياة لينفي المستحيل؟
تباغتني مقولة شكسبير العالقة في ذهني "علاجنا غالبا ما يكمن فينا".
لكنْ هل سأستطيع مواجهة أبي وقول "لا" ؟
هل ألقيها في وجهه هكذا مباشرة وواضحة ودون أن يَغُصّ بها حلقي ودون أن يرتعش لها جفناي ودون أن يشدّها قلبي؟ هل ستخرج "لا" من شقوق عقلي قبل أن تنسلّ من فمي؟
ليس صعبا عليك يا ربّي أن تفتح نافذة غرفتي المغلقة وتمدّ يدك إليّ فأتحوّل إلى طائر وتلقيني في فضاء فسيح.
يقاطعني صوت أمي "هيا يا نور، لقد تأخّرتِ عن صلاة العِشاء".
لم أجبها.
لقد وجدتُ الحلّ.!

65

"أبناؤكم في خدمتكم!"..
هو الشّعار الذي ترفعه الجماعة في مجتمع الفساد والضّلال لمواجهة جاهلية القرن الحادي والعشرين، يقول "الشيخ عبد الحميد":
- نعم، نحن أبناء هذا المجتمع الضالّ، لذلك نخدمه ونقوده إلى طريق الحقّ وحكم الشّريعة، لكنْ دون أن نتأثر به، ففي ذلك مهلكة وفساد!

تحلّق الجميع حول "الشيخ عبد الحميد" وهو يفسّر بهدوء وثبات كيف أنّ "عقيدة الولاء والبراء" تُحصّن المسلم الحقّ من الاندماج في هذا المجتمع الضالّ فلا يتواصل مع الطّاغوت ولا يحاكي أهله في عاداتهم، وإنّما يختلف عن الجميع في عيشه ولباسه وأكله وشربه، عملا بقول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم "مَن جامَع المشرك وسكن معه فإنّه مثله".
يؤمن سيف بكلّ ما يقول "الشّيخ"، فقد أنصت إليه أكثر من مرّة. إنّه لا يملّ الدّروس التي يكرّرها عليهم، حتّى أنّه حفظ مقاطع منها ويعرف في كلّ مرّة ما سيقول من الآيات والأحاديث التي سيدعم بها ما يتحدّث عنه؛ كأنّ في داخله أسطوانة تدور بالأفكار نفسها.
يحتاجون إلى التآزر في ما بينهم كالبنيان المرصوص، كلّ فرد من الجماعة يعدّ نفسه مجاهدا وداعية في الآن نفسه. لكي ينجح سيف في مهمّته الدعوية يستثمر ما حفظ من آيات قرآنية وأحاديث للرّسول الكريم وقصص عن الصحابة الكرام تكون حججا في حديث ناعم.
وُفّق سيف، بكرم من الله، في هداية كمال ولد مباركة وأيمن ولد حامد الجزّار وأيضا حسّان الطويل، الذي كان يكنّى بالغول وأصبح اسمه الآن أبا الحسن.
لاعتبارات خاصة و واضحة، لم يحدّث سيف أحدا بصفحته السرية في الفايسبوك!

فكرت السّاردة أكثر من مرّة في استغلال غياب سيف والدخول في غفلة منه إلى صفحة "العاشق الولهان"، ثم تراجعت عن ذلك، ربما ترى أنّ ما ستجده في صفحته السرية لن يضيف جديدا للرّواية!

66

منذ أن حدّد أبوها تاريخ زواجها أصبحت نور أكثر حزنا، دمّرها أن تُسلب منها حياتها مرّة أخرى. لم ترغب في أن تستسلم لموتها الجديد، لذلك أصبحت قليلة الكلام، تُطيل التّفكير في اللّاشيء.
لاحظ أبوها ذلك وكعادته لم يعرها اهتماما، ولاحظت أمّها ذلك فشعرت بالخوف عليها لكنّها لا تستطيع أن تفعل لها شيئا، فاكتفت بالدّعاء لها.
كانت نور تمشي في شارع الحبيب بورقيبة بخطى واهنة لا هدف لها، تمشي فقط حيث تأخذها قدماها وتُلقي بصرها على الأشياء من حولها، أفواج من النّاس يخبّئ كلّ منهم حكاية لكنّها لا تشبه حكايتها، تعلو الضحكات من حولها فتشتهي أن يكون لها مثلها ولا تقدر.
لمن ستضحك؟ وعلى ماذا ستضحك؟

توقّفت قليلا، كانت على مقربة من "الكوليزي" ونظرت حولها إلى الجالسين في المقاهي، إلى الواقفين على الرّصيف، إلى عابري الطريق. لا أحد من كلّ هؤلاء يشعر بحزنها. لا واحدة من تلك الفتيات المبتهجات الضّاحكات ابتُليت، مثلها، بطفولة ناقصة وحياة مشوهة. لا واحدة منهن نكّل بها والداها وأتيا لها بغريب في يده مقصّ.!
أمام المسرح البلدي كان طابور من النّاس ينتظر الدخول. رَفعتْ بصرها إلى اللّافتة الإشهارية الضّخمة التي تعلن عن عرض أركسترالي جديد.
- هل يدفع الناس المال للاستمتاع بالموسيقى؟
يبدو لها هذا غريبا، ما الذي يوجد في الموسيقى حتّى يترك الناس من أجلها زقزقة العصافير التي تملأ الشّارع الكبير ورائحة القهوة اللّذيذة التي تفوح من مقاهي الشارع الكبير.؟

أخذت قرارا فجائيا، ستدخل المسرح مثلهم وستتفرّج على الموسيقى. تريد أن تسمعها بقلبها وتراها بعينيها. بدا لها القرار غريبا، لكنّه راقها. أسعدها أن يكون لها شيء تريده في هذا المساء الثقيل.
بسرعة، صارت وسط الطابور وفي يدها تذكرتها تنتظر الدّخول. بدا لها الانتظار ممتعا. لأوّل مرّة ستكتشف شيئا جديدا لا علاقة له بمقصّ الغريب ولا برائحة النّد ولا بصوت مبحوح يرتّل القرآن ويحوّل البيت إلى مأتم. وتذكّرت فارس فابتسمتْ.!
أبهرتها زخرفة المسرح من الدّاخل. ها أنّه يمكن للفضاءات المغلقة أن تكون جميلة أيضا. تذكرت غرفتها فانقبض قلبها، وكان يجب أن تنسى بيتها بكلّ ما فيه.
اختارت مقعدا في الصفّ الأول وجلست تنتظر انطلاق العرض.

بدأت القطعة السيمفونية تنتشر في المسرح بحركة سوناتا*(1) السّريعة تمتدّ فيها الموسيقى بين الحشود، تتمسّح على الكراسي وتعلو في فضاء المسرح حتّى كأنّها تلامس السّقف، كأنّها تُلزم الجميع بالهدوء وتفرض عليهم الإنصات. ثم تغيّر مسار الموسيقى وفق المينويت* (2) فانخفض إيقاعها قليلا وتباطأ، كأنّها تغازل كلّ فرد على حدة، تلاعب خيالاته قليلا وتتسرّب عبر مسامّه إلى أعماقه فتسكن تجاويف قلبه.

كانت الموسيقى هي الحركة الوحيدة في المسرح. الحركة التي تسيطر على الجميع، كأنّها تتحكّم في أنفاسهم وأبصارهم وأجسادهم. يبدو أنّ كلّ الحاضرين قد سلّموا أنفسهم لسحر الموسيقى وحركاتها المتماوجة. حتّى نور سلّمت نفسها للموسيقى تهدهدها بإيقاعها، تربّت على كتفها، ثمّ تغوص بها قليلا، تجذبها إليها وتضمّها بحنان تحتاج إليه الآن جدّا. وبحركة الشيرزو(3)* الثالثة تصاحبها الموسيقى بهدوء وتمشي معها بعذوبة ورفق على شاطئ جميل. وتنتشر أنغام الآلات حولها تعدّل مزاجها فتجعلها ترى الأشياء من حولها جميلة.

بدا لها أنّها تكتشف كلّ شيء حولها لأوّل مرة، كأنّها ترى والدها بملامح هادئة وأمّها بقلب دافئ وتستعيد طفولتها فلا ترى مقصّ الغريب!

كانت الموسيقى تمشي بها فلا تتعثّر في ذكرى حزينة ولا يزعجها طيف مريب، كأنّها تراقصها رقصا خفيفا رشيقا كنقر على السّحاب، فيتمايل جسدها دون أن يوقظه الحارس الماكر الكامن فيها ولا تقرّعها أمّها.

شعرت نور بسلام داخلي عميق وتعجّبت من أنّها لم تنتبه قبل اللّحظة إلى سحر الموسيقى. وبحركة الروندو*(4) السريعة جدّا شعرت نور بأنّ الموسيقى توقظها من سكونها وتشدّها بعنف، كأنّها ترفعها من استسلامها وتستلّها من يأسها وتقذفها في سماء المسرح.

كانت نور في عوالم أخرى لم تطأها يوما.

إنّها الآن تحضن الموسيقى وتشعر بالحياة تدبّ في أوصالها.!

عندما غادرت نور المسرح شعرت بأنّها قد تحرّرت من كلّ ما يشدّها إلى الأرض. في طريق العودة تحوّلت إلى غيمة خفيفة تطير، ترى كلّ العالم تحتها صغيرا بلا معنى. ولأوّل مرّة لا يحمل قلبها غِلاّ على أحد ولا يتسلّل إليه اليأس وتؤمن بأنّ بإمكانها أن تبدأ حياتها اليوم، لا تدري كيف لكنها تشعر كأن الموسيقى تولدها من جديد.

فوجئت بأنّها لم تجد طاقة الحياة هذه في الرّوايات ولا في الفلسفات ولا في أستوديو فارس، بل وجدتها في أعماقها؛ كأنّ الموسيقى أرادت أن تقول لها إنّ كلّ بدء لا ينطلق من داخل الإنسان لا يعوّل عليه.!

(1) السوناتا (2) المينويت(3) الشيرزو(4) الروندو: حركات موسيقية في السيمفونية.

مـــا إن أدارت المفتـــاح حتّـــى انفـــتح أمامهـــا بـــاب الـــبلاء وانفجـــر فـــي وجههـــا صـــراخ أبيهـــا وتقريـــع أمّهـــا. تـــداخل صـــوتاهما ممـــزوجين باللّعنـــات والشّـــتائم، فقـــد تـــأخّرت فـــي العـــودة إلـــى البيـــت حتـــى هـــذا الوقـــت دون مبـــرر شـــرعي، وهـــذا لا يجوز.!

تحـــت وقـــع المفاجـــأة، كـــان كـــلّ شـــيء فـــي داخلهـــا ينهـــار للمـــرّة الألـــف. شـــعرت وهـــي تتعثّـــر فـــي خطاهـــا بأنّهـــا لا تســـتطيع أن تتمالـــك نفســـها وانقـــبض قلبهـــا بشـــدّة عنـــدما رفعـــت بصـــرها فوقـــع علـــى الســـوط الـــذي علّقـــه أبوهـــا فـــي مـــدخل الصـــالون يذكّرها بالفصل رقم 25 من "الأربعين نصيحة لإصلاح البيوت"*(1).

عنـــدما ارتمـــت فـــي فراشـــها كـــان كـــلّ شـــيء فيهـــا يـــئنّ، صـــفعات أبيهـــا وشـــتائمه، ثـــم اســـتعانته بالسّـــوط، جعلهـــا تشـــعر بأنّهـــا تحوّلـــت إلـــى كـــائن غيـــر صـــالح للحيـــاة، بـــل إن الشّعور الذي يسيطر على نور أنّها لم تُخلق للحياة أصلا.!

الآن في غرفتها الضيقة، التي تشبه القبر، محطّمة كما لم تحطّم من قبل!

غير انها اطمأنت إلى الحل الذي وجدته لنفسها.!

أمّهـــا أيضـــا لـــم تـــنم، ظلّـــت تتقلّـــب فـــي فراشـــها بـــين شـــخير زوجهـــا ونشـــيج طفلتهـــا. كانت تلوم نفسها ككل مرة لأنها تعجز أن تمنع عن ابنتها ضربات السّوط.
لكن هل منعت عن نفسها ذلك. ؟!

*(1) *فـــي كتـــاب للشـــيخ محمـــد صـــالح المنجـــد بعنـــوان "أربعـــون نصـــيحة لإصـــلاح البيـــوت" تقـــول النصـــيحة رقـــم 25 "علّقـــوا الســـوط حيـــث يـــراه أهـــل البيـــت"، لتـــذكير ســـكّان البيت، من زوجة وأبناء، بالضرب وسيلةً لردع كلّ من تحدثه نفسه بالمعصية.!*

بعـــد هـــذا الفصـــل توقّفـــت السّـــاردة عـــن الكتابـــة عـــدّة أيـــام، عاودتهـــا بشـــدة حالـــة إكتئـــاب تعـــاني منـــه وتنكره على نفسها.!

67

اليوم يتمّ الحسم.!
أطلّ الصّباح بمزاج بديع، السّماء صافية والهواء منعش. اليوم هو أوّل أيام عطلة الرّبيع المدرسية. هذه العطلة التي يستنفر فيها زملائي التلاميذ كل قواهم من أجل الاستعداد لمناظرة الباكالوريا وأتخلى فيها أنا مكرهة عن الدراسة وعن فرصة النجاح الذي يمكن أن تبدّل حياتي كليا، أفعل ذلك بِرّا بالوالدين وتوافقا مع وظيفتي في الحياة كامرأة مكانها البيت لا خارجه كما يؤكد أبي. وأكتشف الآن أن كل سنوات الدراسة كانت مجرد فراغ حتى يأتي الزوج المناسب.لذلك أجمع تبعثري وأرتّب فوضاي وأستعدّ لهذا الحدث الكبير.

اليوم يكون زواجي، تماما كما قرّر والدي باتّفاق مع شهاب ورضيَتْ أمّي وكان يجب أن أقبل.!

أتت لي أمي بأخت كبرى من الجامع تُعدّني للزواج يبدو أنها مكلفة بمثل هذه المهمة فاكتفت بتعطّيري بالمسك، كان ذهني مشلولا لذلك تناهت إليّ بعض من النصائح الكثيرة التي كانت تلقيها عليّ من أجل إنجاح هذا الزواج أن أطيعه في المعروف، وأن لا أصوم تطوّعا إلا بإذنه، وألا أأذن لأحد في بيته إلا بإذنه، وألا أخرج بغير إذنه، وأن أشكر نعمته التي أنعم بها عليّ.
كم تبدو الحياة وردية فعلا.!!

خصّصنا بيتنا الصّغير للنّساء واستعنّا بفناء خلفي يسكنه عمي الصغير، خصّصناه للرّجال بعد أن نظّفته أمّي من بقايا أكل فاسد وقنينات خمر خضراء وعطّرته برائحة البخور والندّ وفاحت منه لأول مرة تراتيل القرآن الكريم.
كانت الحركة في بيتنا على قدم وساق، نساء كثيرات جالسات وأخريات منهمكات في إعداد الوليمة والأطفال في صخب وفوضى. كم افتقدت خالتي ثريا وكم هو مُرٌّ غيابُها.!
أسدل ستار على باب بيتنا المفتوح لأول مرة على مصراعيه ليفصل عالم النّساء داخل البيت عن غيره. اكتفى بعض الرّجال بالوقوف على الباب لطلب ما يحتاجون من صحون الأكل أو أطباق الغلال أو قوارير الماء.
نساء البيت القليلات هنّ من أقاربنا وأخوات في الله وبعض الجارات. خيّل إليّ أنّي لمحتُ الساردة بينهنّ. كانت مختلفة عنهنّ بلباسها غير الشّرعي وشعرها المنساب على كتفيها.
ما الذي أتى بها إلى هنا؟
لاحظتُ أنّها تجول ببصرها في كلّ الاتّجاهات، باحثة عن وجه محدّد. كنت أعرف أنّها تبحث عنّي، تريد أن تلتقط ملامحي علّها تقودها إلى نهاية أخرى غير التي اخترتُ لمسار بطلة روايتها.

لم أكن أشعر بأنّي بطلة، فالأبطال أقوياء وشجعان يملكون من الجرأة ما يجعلهم يختارون المسار الأفضل لحياتهم وأنا لم أكن يوما بطلةً.!
الشّعور الوحيد الذي كان يلازمني طيلة حياتي هو أنّي ناقصة، والنّقصان لم يكن يوما من شِيَم الأبطال. أشعر دائما بأنّني طائر مكسور الجناحين، أنا التي أحبّ أن أُحلّقَ في الفضاء بحرية وأعيش كما أريد، طائرا لا يؤذيني أحد.

جلستُ بين النّساء بجلباب حريري وخِمار أبيض ذُهّبت أطرافه بخطوط جميلة، ينحسر عن وجهي فيبدو كالقمر. عنّ لي أن أثبّت بصري على النساء وأتلصّص على الساردة. أحببتُ أن أرى نظراتها الحائرة وهي تبحث عنّي.
أحبّ أن ترى هدوئي المريب ونظراتي الثّابتة وابتسامتي المائلة إلى السّخرية.
هذه المرّة لن يكون للسّاردة ما تُغيّر.!

أحبّ أن ألمح حيرة السّاردة لأسخر منها، بعد أن انفلتت خيوط السّرد من يديها ولم يعد بإمكانها - هي أيضا- أن تتحكّم فيّ.
كنت أحبّ أن أشمت بها أيضا.!

أشعر بأنّ الله لن يخذلني هذه المرّة وسيساعدني على تحقيق حلمي الصّغير: أن أكون طائرا حرّا.
أهازيج الفرح في عرسي هي أناشيد دينية تُدَقّ فيها الدّفوف فتصنع إيقاعها الخاصّ. تصل الأناشيد، مرّة، قوية، وأخرى، متعبة.
غريب أن تتغنّى بالقيم الفاضلة وتكون خالية من بريق الحياة.!

وتساءلتُ في سرّي: ماذا تعني القيم الفاضلة.؟

بعد أن انتهى الجميع من الوليمة، من الفناء الخلفي الذي كان عمي الصغير يستمتع فيه بسهراته مع رفاق السوء كما يسميهم أبي كأن يتناهى إليّ صوت أحد الشيوخ يلقي درسا عن فضائل الحياة الزوجية في الإسلام. وكانت النساء في بيتنا الصغير يرغمن أطفالهنّ على السكون حتى يتسنّى لهنّ الإنصات إلى تلك المواعظ.!

(تنظر نور إلى الأطفال بشفقة)!

ذكّرني الأمر بخطبة صلاة الجمعة، لكنْ لا بأس، اختار أبي طريقته المثلى في تزويجي وسأختار، أنا، حلمي الأجمل في أن يكون لي جناحان وأطير.
أحدس أنّ الساردة تنصت إلى خطبة الوعظ التي تقام الآن في بيتنا.
تُرى هل راقتها هذه الأجواء الاحتفالية.؟

مـــا إن اِنتهـــت "خطبـــة الجمعـــة" فـــي بيتنـــا حتّـــى عُقـــد القـــران ومُـــدّت الأيـــدي للفاتحـــة. مـــددت يـــدي، مثـــل الجميـــع، إذ يجـــب أن أتقـــن دوري هـــذه المـــرة. لاحظـــت أنّ يـــدَي ترتعشـــان. لـــم تكـــن رعشـــتهما تشـــبه تلـــك التـــي تســـكنني عنـــدما تـــتلمّس كـــفّ فـــارس شهوة جسدي وتعتصر فواكهه الطرية. وارتبك قلبي.
هَمَسْتُ لأمّي:
- أريد أن أدخل غرفتي قليلا قبل أن أغادر إلى البيت الجديد.
قالت أمّي، وقد بدت لي سعيدة لأنّ الأمور تسير كما ارتضاها أبي وتحبّها هي:
- نعم، لكِ ذلك.
عنـــدما هممـــتُ بـــدخول غرفتـــي التفـــتّ جهـــة البـــاب ولمحـــتُ الســـاردة منزعجـــة قلقـــة تلوّح لي بيدها ألّا أدخل الغرفة.
مسكينة هذه الساردة فعلا، ألا تفهم أنّ كلّ شيء فاتها.!

لـــن أرضَـــى بعـــد اللّحظـــة بـــأن يختـــار غيـــري مصـــيري ويـــتحكّم فـــي حيـــاتي. أقفلـــتُ بـــاب غرفتـــي علـــيّ، بـــابَ عـــالمي الصّـــغير. هنـــا، فـــي هـــذه الزّاويـــة، كـــان فراشـــي. عشـــت كـــوابيس كثيـــرة مرعبـــة بســـبب لســـعة المقـــصّ الـــذي ولـــج الفضـــاء الصّـــغير بـــين فخـــذي وجعـــل طفـــولتي مبتـــورة. هنـــا كبـــرت وعشـــت صـــباي النّـــاقص. هنـــا أحببـــت كتبـــي وحلمـــت بـــأن أكـــون طـــائرا. تحسّســـت طـــاولتي الصّـــغيرة ومـــددت يـــدي إلـــى الـــدّرج السّـــفلي حيـــث ترقـــد مـــذكراتي ورســـائلي لنيتشـــة وهنـــاك أخفيـــت ســـرّا صـــغيرا. أصابعي ترتعش وهي تتحسّس المشرط الحادّ.
تحسّســـت معصـــمي. ودون تـــردّد، غرســـت المشـــرط فـــي عـــروق معصـــمي وســـال الـــدم بســـرعة. كـــان يشـــبه كثيـــرا ذلـــك الـــدمّ الـــذي انبثـــق مـــن الشّـــيء الـــذي يلتصـــق بفخذي. كان الرّبيع حزينا حينذاك. والآن يبدو أشدّ حزنا!

لا أدري لمَ يحدث لي كلّ هذا في فصل الرّبيع؟

كانـــت الـــدّموع تعصـــف بقلبـــي وتهطـــل فـــي وجـــداني والـــدّم يفـــيض بغـــزارة. لـــم أشـــعر بلســـعة المشـــرط. خيـــل إلـــي أنّ لســـعة المقـــصّ كانـــت حارقـــة أكثـــر وموجعـــة جـــدّا، ربّما لأنّها خرّبت أجزاء من روحي وعبثت بطفولتي وصباي وسرقت حياتي!

تلمّســـت الـــدم الأحمـــر القـــاني. بـــدا مثيـــرا فغرســـت المشـــرط ثانيـــة، أحـــاول أن أســـتلّ العـــروق مـــن مكانهـــا. أحـــسّ بلســـعة المقـــصّ وهـــي تقطـــع جـــزءًا منّـــي وينســـاب الـــدم فـــيلطّخ ثـــوبي الأبـــيض ويســـيل علـــى الأرض وأكـــاد أســـقط. اســـتندت إلـــى خزانتـــي، ببابهـــا المـــوارب. نظـــرت إلـــى كتبـــي وكرّاســـاتي وغُصْـــتُ بالمشـــرط عميقـــا فـــي معصـــمي الآخـــر. ابتلعـــت الصّـــرخة حتّـــى لا تتحـــرّر مـــن حلقـــي. لـــم أتمالـــك نفســـي فســـقطت. كانـــت يـــدي المتدفّقـــة دمـــا قريبـــة جـــدّا مـــن وجهـــي. شـــممتُ رائحـــة الـــدّم وتلمظـــت بعـــض مـــا وقـــع علـــى شـــفتيّ وتنـــاثر علـــى وجهـــي. كـــان فـــارس يتلـــذّذ شـــفتَي وكنـــت أحـــبّ أن أخبِّـــئ وجهـــي فـــي صـــدره والـــدّم يســـيل منّـــي ويتمـــدّد تحتـــي بغـــزارة فيتحـــوّل إلـــى بِركـــة. رفعـــت بصـــري بعيـــون متعبـــة ونظـــرات غائمـــة. بـــدا الســـقف

متحرّكا والستائر الجديدة للنافذة المغلقةِ تتحرّك. الدّم ينزف بغزارة وروحي تنتفض. أغمض عيني وأعود فأفتحهما بصعوبة أكثر هذه المرّة. يضاء المكان. كأنّ ستائر النافذة تنزاح الآن. وصلتني طرْقات شديدة على باب غرفتي وأصوات تعلو وتتصادم بعضُها ببعض وتناديني لأفتح الباب.
يصلُني هذا اللّغْط وكأنّني في واد سحيق!
شعرتُ بأنّ قلبي يغوص وروحي ترفرف.

تناهى إليّ صوت السّاردة قويا وهي ترجوني أن أفتح لها لتدخل. صارت الضّربات على الباب عنيفة توشك أن تسقطه. كم كانت قبضة أبي شديدة وهي تشدّ فخذي للغريب والمقصّ يتقدّم بهدوء مريب في الحيز الضيق بينهما. شعرت بمساحة الدّم اللّزج تزيد اتّساعا تحتي وأَضحتْ نظراتي غائمة جدّا. أحاول أن أفتح عيني فأجد صعوبة شديدة وتخور قواي وأجهد نفسي لأرفع بصري إلى سقف غرفتي. ألقي نظرة على خزانتي. أبحث عن مكان آخر أنظر إليه. يتراخى جفناي. لا أستطيع أن أفتح عيني مرّة أخرى. الطّرقات على الباب عنيفة وروحي تنسلّ بهدوء. بصعوبة، شديدة أعود فأفتح عينَي. أشعر بدبيبها في حلقي. ويرتطم بصري بالجدار، بسقف الغرفة، بالنّافذة..

الآن أرى النّافذة وقد انزاحت عنها الستائر. كأنّ النافذة تستجيب لطرقاتهم الشّديدة على الباب فتنفتح. وبعينين ذابلتين جدّا ألمحني - يقيناً- طائرا يندفع بقوّة خارج النّافذة.
أنْدَفِعُ إلى الفضاء الفسيح وقد تحرّرت من قبضة النّافذة.
سأخبر الله بكلّ شيء..!!

سأخبره بأنّهم يسرقون باسمه الحياة التي وهبها للبشر، ينكّلون بالطّفولة ويصادرون الجسد والموسيقى والفرح ويحجبون الشّمس. سأخبره، أيضا، بأنّهم يكرهونه وسأطلب منه أن يثأر لي، يجب أن يثأر لي!.

فجأة، تلاشى كلّ شيء ولم تعد تصلني طرقاتهم العنيفة ولغطهم الشّديد عند الباب.!

تخفي السّاردة وجهها بين يديها وتبكي بمرارة.!

68

دفع سيف الباب بكفّه الغليظة، وما كاد يطأ عتبة البيت حتى فاجأه ضوء ساطع. كانت كل النوافذ مشرّعة. نادى زوجته صارخا، وهو يتقدّم داخل البيت:

- ليلى، ما هذا الذي فعلتِ؟ لماذا فتحت النّوافذ هكذا؟ البيوت لها حُرمتها، لماذا...

فجأة، ابتلع سؤاله حين وقع بصره على ثريا جالسة بثقة وهدوء في غرفة الجلوس:

- ماذا تفعلين في بيتي؟ ما الذي جاء بكِ؟

ردّت عليه ثريا بنظرة لامبالاة ونفثت في الهواء كتلة من دخان سيجارتها.

أجابه صوت ليلى، وهي تطلّ من غرفة النّوم:

- أنا التي دعوتها، هل نسيت أنّها أختي؟

ردّ، والشّرر يتطاير من عينيه:

- لا أريدها أن تدخل بيتي.

أجابت، ببرود:

- لن تدخل بيتكَ بعد اليوم، أنا سأتركه لكَ، سأتركُ لكَ ظلمته الموحشة، سأترك لكَ جدرانه الباردة، سأترك لكَ رائحة الندّ التي تعبق فيه، سأترك لكَ قبركَ، هذا الذي دفنتَ فيه الحياة.

نظر إليها، وكلّه حنق:

- ماذا تقولين؟ هل ستهجرينني؟

التفت إلى ثريا، وهي جالسة أمامه فأشاحت بوجهها عنه. صرخ:

- أنتِ السَبَب.. أنت تدمّرين حياتي.

التفتَتْ إليه ثريا. وبنبرة استهزاء، قالت:

- وهل لكَ حياة حتى أدمّرها؟

ثمّ تابعت:

- بل أنتَ الذي دمّرت حياة أختي وسرقت حياة ابنتها، شوّهت طفولتها بخرافاتك وسلبت أحلامها بجهلكَ، أنت الذي قتلت نوراً.

صرخ، وهو يهمّ بالتهجّم عليها:

- كفّي عن هذا الهُراء وأغلقي فمك وغادري بيتي فورا!

التفتَ إلى ليلى وخفّض من صوته، فبدا كأنّه يتوسّل إليها:

- لا تستمعي إلى هذه السّافرة، إنّها على عصيان مبين! (وبنبرة حزينة) ابنتنا ارتكبت كبيرة، وندعو الله أن يغفر لها. إنّ النّفس أمانة، ما كان عليها أن تتهوّر وتقوم بذلك وتجعلني فضيحة بين النّاس...

- ابنتي لم تقتل نفسها إلّا بعد أن قتلْتَها أنتَ، بعد أن سمّمت حياتها بتعصّبك وسوّدت أيامها بتطرّفك وسرقت أحلامها بمغالاتك.

(واصلتْ، وقد تذكّرت فجيعتها الكبيرة وغصّت بالدّموع).

- لم تقتل نفسها إلّا لأنّك حوّلتها إلى جثّة!

غلبتها دموعها وصار صوتها مرتعشا حزينا:

- أنت من قتل ابنتي ولن أغفر لكَ ما حييت!

فاضت الدّموع وغصّت بشهقاتها فانفجر بكاء مرير. تكوّمت على حقيبتها المحمّلة بثيابها وانخرطت في نواح موجع فقامت ثريا من مكانها، وضعت السيجارة على طرف الطّاولة واحتضنت أختها وهمّت أن ترفعها فارتفع صوت سيف هادرا:

- قلتُ لكِ اخرجي من بيتي فورا.

التفت إلى ليلى وصرخ بها:

- لن تفرضي أختك عليّ، ولن تقحميها حياتي أيتها الحمقاء.

رفع كفّه عاليا لصفعها في تلك اللحظة، مدّت ثريا يدا قوية كأنّها قبضة من حديد فأوقفت كفّه وصرخت، بصوت حادّ والشّرر يتطاير من عينيها:

- إياك أن تفعلها، أنتَ مجرمٌ، أبْعَدْتَني عن هذا البيت حتّى تُدمّر أختي وتدفع ابنتك إلى الانتحار. لن أسمح لكَ بمزيد من الجرائم، يجب أن تكون لك حدود، يكفيك ما فعلتَ حتّى الآن!

تراجع سيف قليلا وعادت ثريا فحضنت أختها واتّجهت بها نحو الباب، وهي تجرّ حقيبتها.

لحق بها سيف مصعوقا يحملق في ليلى أمامه وهي تغادر البيت بفستان غير طويل وبلا حجاب، مجرّد شال مُلقى على رأسها.

صرخ:

- انظري إلى نفسك، هل ستخرجين هكذا؟

ثمّ، وكأنّه قد انتبه إلى أمر كارثي، صرخ بصوت كأنّه يخرج من عينيه الضّيقتين:

- هل ستغادرين دون لباس شرعي؟

أجابته، وهي تشيح بوجهها عنه:

- من اللّحظة لن تتحكّم في حياتي ولن تقود تفكيري!

صرخ وهو لا يصدّق:

- هل يُعقل ما تقولين؟ إنّك مرتدّة، ما هذا الحُمق الذي تفعلينه أيتها الكافرة؟

ردّت، بصوت هادئ:

- لا يحقّ لكَ أن تُكفّرني.!

أضافت بتهكّم: "لا إكراه في الدّين" ولأول مرة منذ تزوجته أضافت بنعومة "يا عزيزي"!

تراجع قليلا إلى الخلف مصدوما. إنّها ليست ليلى، ليست زوجته التي ترتجف من صوته وتحسب خطواته وتتحرّك وفق نظراته. هذه ليلى أخرى قد لبسها جني أو شيطان ماكر.

شعر، فجأة، وليلى تغادر، أنّ البيت يسقط عليه وأنّه ينحشر بين الأنقاض. بلع ريقه بصعوبة. ودون أن يدري، قال:

- لن تذهبي، لن تتركيني وحدي. (أضاف بصوت خفيض) أرجوك، يا ليلى، لا تذهبي..

بدا مرتبكا وضعيفا ومهزوزا.

فوجئت المرأتان بانهيار جبروته. أضاف، متوسّلا:

- أرجوكِ، لا تتركيني!...

التفتت ليلى ناحيته. بدا كطفل يتيم وتائه. تابع، مردّدا كأنّه فقد كلّ الكلام سوى توسّله:

- أرجوكِ، لا تتركيني.

حدجته بنظرة ثاقبة حادّة صبّت فيها كلّ نقمتها، ثم التفتت إلى أختها تسألها، وكأنّها تريده أن يسمع:

- أريد أن أستعيد حياتي التي سُرقت منّي، أريد أن أعود إلى الدّراسة، سأحقّق ما حَلُمَتْ به نور، هل يمكنني ذلك؟

أجابتها أختها، بثقة:

- نعم، بإمكانك ذلك، هناك معاهد خاصّة تقدم حصصا مسائية، يمكنك التّسجيل والالتحاق بالحياة إن رغبت. فقط إيمانك بذاتك هو الذي سيجعلك تحقّقين ما تريدين.

قالت ليلى:

- أريد أن أشتغل في النّهار، لا أحبّ أن أكون عالة على أحد. العمل والدّراسة هما سلاحي في الحياة منذ اليوم. وقبل ذلك، لنبحث عن محام بارع.

ردّت ثريا:

- نعم، عزيزتي، سأساعدك على إيجاد عمل وسنختار معا مدرسة ليلية وستستردّين حياتك.

ابتسمت ليلى، وهي تلقي آخر نظرة على سيف، ثمّ صفَقت الباب خلفهما بعنف.

***

كان صفق الباب القوي صفعة شّديدة له. جلس سيف في أقرب مكان، شعر بأنّ كلّ قواه قد خارت، كلّ غطرسته تلاشت. حملق ببصره في أرجاء الغرفة. صار البيت موحشا كخربة مهجورة، فسيحا كصحراَء قاحلة. لم يعد فيه مَن يُشعِره بقوّته. فجأة، أدرك أنّه لا شيء. ودون أن يتمالك نفسه، انخرط في نشيج مرّ. وبكى بشدة.

شعر أنّ الزّمن قد توقّف عند تلك اللّحظة التي ضعفَ فيها وصار عاجزا، يبكي - بحرقة- أصابع الغريب التي كانت تتحسّسه، ثم تسقط عنه سرواله القصير وتكبّه على وجهه. يبكي بمرارة وهو يشعر أنّ عمودا صلبا من نار يخترقه من الخلف. ويظلّ الغريب يدفعه بوسطه عبر اهتزازات متتالية وهو يرتجّ تحته حتّى يكاد فخذاه ينفصلان عنه.

كان يبكي كثيرا كلّما اختلى به الغريب يعرف أنّه يفعل به أشياء لا تحكى، ويحمد الله على أنّه لم يحدّث بها أحدا؛ لو فعل سيلازمه عار لن يزول. وقد انتقم الله له فأخذ الغريب، الذي لم يكن سوى جارهم "عم الطيب"، في سفر غير شرعي انتهى به وليمة للأسماك. وتعلّم أنّ أفضل طريقة لحفظ سرّ الخِربة ألّا يضعف، فكان يتظاهر بالقوّة، بالتنمّر على أترابه وأصدقائه وجيرانه. أفضل طريقة لتجنّب الضّعف هي أن يكون قويا، واستطاع أن يكون قويا، خاصّة مع زوجته وطفلته. تذكّر سيف طفلته وكأنّه عَلِمَ اللحظةَ بموتها فبدأ بكاؤه يشتدّ. ربّما لأنّه لم يبكها.

عندما فعلتها، كان مصدوما، شعر بأنّها هزّت عرش كبريائه بانتحارها الذي لا يقبله الدّين وكان يكابر ويلعنها في سرّه ويتبرّأ منها أمام إخوته في الله. أمّا الآن فهو يحس بأنهّا ماتت فعلا ولن تعود إلى الحياة ثانية. تمنى للحظة لو تعود ويحدثها فيجعلها تقتنع بأن ما فعله بها كان واجبا والأَولى أن تشكره، لا أن تنتقم منه.
لا يحق لها أن تقترف هذه الجريمة في حقه وأن تُخرج نفسها من دين الله..
ازداد بكاؤه حتّى تحوّل إلى شهيق مرّ. لم يقصد أن يؤذيها عندما استعان بالممرّض، كان يريد أن يطبق إحدى سنن الإسلام. لو فهمت هذا ما كانت لتلومه أبدا.
واصل، بصوت مرتفع كأنه يحدث شخصا: لم أخطئ في حقها أبدا.!

اِنتبه إلى نفسه وفوجئ بدموعه الغزيرة وحمد الله على أنّه وحده ولا أحد تفطّن إلى ضعفه وحالته البائسة ومعنوياته الرثّة.
كانت صور نور مع حبيبها فارس ممزقة على الطاولة، قرّب بعض القطع من بعضها ليتأكد انها فعلا صور لنور، كانت تبدو مبتسمة في الصور فاشتعلت نار في صدره و رمى بالقطع الصغيرة على الأرض، كان يجدر به أن يقتل بنفسه هذه الحشرة المرتدة.

مدّ رأسه تحت صنبور الماء. تخللت أصابعه شعر رأسه ولحيته فاصطدم بجرح في فكه الأيسر مختبئ تحت شعر لحيته، تذكّر تلك الليلة القديمة التي التقى فيها صدفة ببائعة هوى وبمشرط حاد خلّف أثره العميق في فكه.
تنهد واستغفر الله واتّجه، بسرعة، إلى السّوق يسأل عن "ولد حدّة".

السّاردة في حالة شرود..
تقلّب شخصية سيف من أوجه عديدة ولا تصدق ؟!

69

- شبيك يا عشيري، ما شفتكش قبل في الحالة هذي؟

لم يردّ سيف على ولد حدّة. فقط أراح رأسه على جدار الخربة القديم وأطلق زفرة عميقة وحارّة. شعر بأنّ كلّ حياته بروفة سيئة وتمنّى لو كانت له فرصة أخرى للحياة وتساءل في سرّه "هل كنت سأعيد حياتي مرة أخرى؟"..

اضطرب قلبه لهذا التّساؤل. نظر إلى ولد حدّة أمامه يعبّ من البيرة بهدوء وفكّر في سرّه: "ترى لو كان ولد حدّة هو الذي عاش تجربتي في الحياة هل سيقبل دور من يحمل لحية شعثاء وعلامة سجود على الجبين وسبحة في اليد؟ هل سيكون، مثله، متمسكا بدينه كالقابض على الجمر ويفرض تطبيق سُنن الإسلام؟"..

ازدرد سيف ريقه بصعوبة وشعر بالجفاف. قال، بصوت مرتفع كأنه يرد على سؤال طرحه ولد حدّة:

- هل تعرف يا صديقي، عشتُ حياتي كما أحبّ، فعلتُ الصواب في كل شيء ولست نادما على أي شيء فعلته أو سأفعله.!

أسدل اللّيل ستاره ترك الخربة وحولها علب البيرة متناثرة وعاد يجرّ رجليه متفاديا ملاقاة المارّة. عندما تقترب منه بعض الخطى يتظاهر بأنّه منشغل بشيء ما، لا يريد أن يشتم رائحته أحد، إلى أن بلغ بيته.

كان قد وصل إلى قرار سيلتزم به ولن يثنيه عنه أحد!

ألقى نفسه على السّرير فشعر كأنّه يسقط في هاوية. بدا، في نومه العميق، كأنه جثّة منسية!

رغبت السّاردة أن تنفرد بسيف وتوجعه صفعا ولطما وركلا، ثم تقذفه خارج الرواية لأنّه - إلى الآن- لا يريد أن يعترف بأخطائه في الحياة، لكنّها أرجأت ذلك إلى أن تعرف قراره الجديد!

استيقظ من النوم متأخّرا. شعر بثقل في رأسه وإرهاق في جسده. تذكّر الخربة وولد حدّة وعُلب البيرة فغمغم وهو يلقي رأسه على المخدّة من جديد. عادت الصّور تتزاحم في ذهنه. أغمض عينيه كأنّه يمنع الذكريات من

الانسياب، ثم استعاذ من الشّيطان الرّجيم. إنّه على يقين تامّ أنّه على حقّ، يرتاح عندما يسند ظهره إلى سارية المسجد ويطمئنّ إلى الصّلاة ويحبّ تطبيق سنن الإسلام. ويسعد دائما بصحبة إخوته في الله. قام واتجه إلى الدشّ.
بدا صارما وهو يتذكّر القرار الذي اتخذّه وسينفّذه اليوم. تمتم:

- لا بأس، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، دولة الإسلام لا تكون ممكنة إلا ببعض التضحيات، وهذا من أفضال الله علينا.

قضى النّهار يسأل عن "الشيخ عبد الحميد" حتّى لقيه عند صلاة المغرب. في ركن من الجامع انفرد سيف به وسأله، بصوت منخفض:

- متى ستعود إلى جبال الشعانبي يا أخي؟

قال " الشيخ عبد الحميد"، بصوت خافت وهو يلتفت يمنة ويسرة:

- يوم السّبت المقبل، بعد صلاة العشاء. أعددنا خلية لتنفّذ، هنا في العاصمة، تفجيراً في أحد الفضاءات التجارية الكبرى، ثم ننطلق إلى الجبال.

قال سيف، بصوت واثق:

- هذه المرة أضيفوني إلى الخلية، سأكون معكم.!

ردّ "الشيخ عبد الحميد"، مبتسما:

- جازاك الله كلّ خير وجعل الجنّة منتهاك.

70

بعد أسابيع قليلة،
عدتُ إلى المقهى الصغير، طلبتُ قهوة وانتظرتها كعادتي. هذه المرة لم تتأخر، عبرت طاولات عديدة بسرعة في اتجاهي كأنها جاءت فقط لملاقاتي، قلتً بصوت منكسر:

- أعتذر منك بشدة يا ليلى عن كل تدخل مني في حياتكم، صدقا أنا متألمة وحزينة جدا لكل ما حدث و خاصة لخسارتك ابنتك.!

لم ترد، كانت نظراتها باردة، ألقت أوراق نور فيها مذكراتها و رسائلها لنيتشة، كأن ذلك ما تبقى لها من تجربتها القاسية تتخلص منه نهائيا. ودون أن تنبس بكلمة غادرت وقد تركت لي مع الأوراق نظرة اخترقت أحشائي لم أفهم هل هي شفقة أم احتقار.؟

***

أعتبر الكتابة تمجيدا للحياة، لذلك ما استلطفت الموت يوما وما تحمّلت رائحته ولا أجواءه البائسة. حتّى في المناسبات العائلية، إذا حدث أن زار الموت أحدا فإنّي، عادة، ما أختلق الأعذار كي لا أذهب إلى العَزاء إلّا بعد أن يغادر الموت آخذا معه العويل والصّراخ وشحوب الوجوه.
أمقت الموت..
لم أكن أريد، وأنا أروي قصّتها، أن توجد ثقوب يطلّ منها الموت.
لا أعرف كيف أقيّم روايتي و ربما لستُ مطالبة بذلك أصلا، وعزائي أن الشعر إن كان صعبا فالرواية ليست سهلة أيضا، لذلك أعترف أن الكتابة السردية مغامرة حقيقية وعمل صعب. لم أتفطن أن نور كانت تكتب مذكراتها وكأنها لم تكن تثق بغيرها يحكي مأساتها ولم أكن أعلم برسائلها لنيتشة وكأن لا أحد يمكن أن يفكر عوضا عنها. لذلك أجدني، الآن، محبطة في هذه الرّواية التي حلمت أن تجعل لي شأنا بين الكُتّاب، وأن أنجح في تغيير رأي زوجي فلا يعتبر الوقت الذي أقضيه مشدودة إلى أوراقي بلا قيمة.

ما أحببت أن تنتهي الرّواية هكذا، لا أصدّق أنّ نورا اختارت أن تُسلّب حياتَها بذلك الموت العنيف. كنت أحبّ أن أثنيها عن عزمها وأن أساعدها على تغيير مسار حياتها لكنّها اختارت وأصرّت. لا أصدّق أنّها فعلا رضيت بحفرة ضيقة صغيرة موحشة تُدفن فيها إلى الأبد.
لم أكن أحبّ الموت.

لـــم أُرِد لليلـــى أن تصـــل متـــأخّرة إلـــى الحيـــاة، لكنّهـــا استعصـــت علـــي منـــذ البدايـــة عندما استكانت إلى جلباب سيف ورضيت بنوافذ بيتها مغلقةً دائما.
يظـلّ المـوت مؤلمـا وعنيفـا وموحشـا حتّـى أنّنـي لـم أحـبّ أن يـذهب إليـه سـيف، لكنّـه اختـار طريـق التطـرّف فمضـى فيـه بعيـدا. لـذلك كـان عسـيرا عليـه أن يعـود وكـان فشلي في التّعامل معه مقدّرا.

لكل ذلك وبخلاف أغلب الكُتّاب...
أملـك جـرأة الإعـلان، بصـراحة، أنّـي متحفّظـة علـى هـذه الرّوايـة وأفكّـر جيـدا فـي إعادة كتابتها بطريقة أخرى لأني أمقت الموت بشدة.!

لذلك يجب أن أعيد كتابتها فعلا ولا أدري كيف سأفعل ذلك..؟

***

أنضّـد أوراقـا بيضـاء علـى الطّاولـة وقـد تلبسـني قلـق الكتابـة، يتنـاهى إلـي صوت المذيع من الراديو يعلن عناوين نشرة الأنباء:

- مواجهـات عنيفـة شـهدها جبـل الشّـعانبي مجـدّدا بـين مجموعـات إرهابيـة متطرّفـة وعناصـر مـن الجـيش الـوطني للأسـبوع الثـاني علـى التّـوالي والجهـة العسكرية تتكتّم على التّفاصيل لضرورات أمنية.

- جهـة إسـلامية متطرّفـة تتبنّـى العمليـة التفجيريـة الكبيـرة التـي حـدثت أمـس فـي فضـاء تجـاري كبيـر فـي أحـواز العاصـمة تـونس وارتفـاع عـدد الضـحايا والجرحى.

- تبنّـي خليـة "الإسـلام هـو الحلّ" عمليـة قطـع رأس راعـي أغنـام فـي شـمال البلاد التونسية بذريعة تخابره مع الجيش التونسي.

- وقفـة احتجاجيـة حاشـدة شـهدتها العاصـمة تـونس تنديـدا باغتيـال الإعلامـي الكبير محّمد التّونسي على يد متطرّفين إسلاميين.

أضغط على زرّ الراديو فأخرس صوت المذيع.
لا أعرف، أشعر بلخبطة تزيد من ارتباكي وتحول قلقي إلى حالة اختناق.

هذه البلاد تحولت فعلا إلى غرفة صغيرة بنافذة لا تفتح.
لا بأس، سأكتب هذه الرّواية مجدّدا، وبعد ذلك سأرحل عن هذه البلاد.!
الحياة هنا لم تعد تطاق.!!

تمّت